«يا لها من حياة. يا لها من امرأة.
ونعم، يا له من كتاب»
- إذاعة SWR 2

مكتبة

رواية

أنّه فيبر

ملحمة أنيت

2020 deutscher buch preis
جائزة الكتاب الألماني

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

ملحمة أنيت

حيثيات لجنة التحكيم
لجائزة الكتاب الألماني ٢٠٢٠

«لا تقل القصة التي كتبتها أنَّه فيبر، في قوتها، عن قوة بطلتها: إنه لأمر باهر كيف يبدو هنا الشكل الملحمي القديم طازجًا، وبأي خفة استطاعت فيبر تكثيف حياة آن بومانوار، المناضلة في حركة المقاومة الفرنسية، وتحويلها إلى رواية عن الشجاعة، وصلابة المقاومة، والنضال من أجل الحرية.

إن «ملحمة أنيت» قصة حافلة بالصعاب، لكن فيبر ترويها برهافة حس لا مثيل لها، وبسخرية خافتة رائعة. إننا ممتنون لأنَّه فيبر لأنها اكتشفت لنا أنيت، وقصت علينا قصتها».

أنّه فيبر

رواية

ملحمة أنيت

ترجمها عن الألمانية
سمير جريس

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكرمة

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٣
العنوان الأصلي: Annette, Ein Heldinnenepos
المؤلفة: Anne Weber
© MSB Matthes & Seitz Berlin Verlagsgesellschaft mbH, Berlin 2020. All rights reserved.
الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
حقوق الترجمة © سمير جريس

مكتبة
t.me/soramnqraa

نُشر هذا الكتاب بدعم كريم للترجمة من معهد جوته.
The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institut.

GOETHE INSTITUT

فيبر، أنّه.
ملحمة أنيت: رواية / أنّه فيبر؛ ترجمها عن الألمانية سمير جريس - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.

تدمك: 9789778648072
١- القصص الألمانية.
أ- جريس، سمير (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٣٣٥٠ / ٢٠٢٣

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج
صورة الغلاف: أن بومانوار، ١٩٤٠ تقريبًا

آن بومانوار هو أحد أسمائها.
حيةٌ هي[1]، نعم، ولها حياة في مكان آخر
غير هذه الصفحات، في ديولوفي،
ومعناها «صنيعة الرب»، في جنوب فرنسا.
لا تؤمن بالرب، لكنه يؤمن بها.
إذا كان له وجود، فهو الذي خلقها.

طاعنةٌ في السن، لكن الحكاية تريد
ألا تكون قد ولدت بعد. اليوم،
في الخامسة والتسعين، تأتي
إلى العالم على هذه الصفحة البيضاء؛
إلى فراغ كالحفرة، وفيه تُلقي
نظرات طويلة دائرية، كحيوان الخُلد،

(١) توفيت آن بومانوار بعد صدور الرواية بالألمانية بعامين. (الناشر).

وشيئًا فشيئًا يمتلئ الفراغ بالأشكال والألوان،
بالأب والأم والسماء والمياه والأرض.
السماء والأرض من الظواهر الباقية،
لكن المياه تروح وتجيء، تنساب
إلى مجرى نهر أرجينون الجاف؛
فتَنهض مرتين في اليوم القوارب
التي كانت نائمة على جنبها طوال ساعات.
مرتين في اليوم ينسحب النهر إلى البحر،
إلى قناة المانش، أو «قناة الكُم»،
مثلما يطلقون على البحر بالألمانية،
مع أنه ليس قناة ولا كُمًّا،
وليس مفرغًا، هو بالأحرى ذراع:
الذراع التي يمدها
الأطلسي إلى بحر الشمال. برفق
تغفو القوارب على بطونها مرة أخرى.

في الغرفة-الكون، غير المسكونة بعد،
تسبح أربعة، وأحيانًا ستة نجوم لامعة
أو عيون. مثلما تطفو الملامح ببطء
في غرفة التحميض المظلمة
وكأنها ولدت من فراغ، هكذا تبدأ ملامح الوجوه تتضح
حول النجوم. الأم. الجدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأب. الطفلة التي تُدعى «آن»، ويدعوها الجميع
«أنيت»، تجعل الكواكب تدور.

بحساب العمر، تبتعد أنيت عن آن (الحالية)
بضعف ما كانت جدتها آنذاك تبتعد عنها بالعمر، لكن
هذه الطفلة ما زالت بعيدة وقريبة على
نحو مدهش. إنها متحدة معها،
لم تَضمُر، ولم تمت، نائمة هي،
وما زالت تحيا.

ولدت أنيت في «حارة سد»،
وليس هذا محض تعبير مجازي ينطبق علينا جميعًا.
بيت الجدة يسد ثغرة
في مجموعة من بيوت الصيادين
الصغيرة والبسيطة
التي تنتهي معه فجأة أمام النهر.
في كل بُيَيت غرفة معيشة بالأسفل
وإلى اليمين واليسار غرفة تحت السقف.
«بيت جدتي» لا يعني أنها
تملكه. إنها تسكنه بالإيجار. مكان الإقامة
بائس، ولذا فالإيجار
منخفض، لكن القليل

كثير جدًّا بالنسبة إليها،
تربي أطفالها،
وقد ترملت مبكرًا،
بعائد *pêche à pied*،
أو بما تصيده بلا قارب:
يومًا بعد يوم تسير إلى البحر عند الجَزْر
ومن دون كلل تبحث وسط الرمال المبتلة
عن الكائنات البحرية
بأشكالها المختلفة: المحار بأنواعه،
سرطان الشاطئ، حلزون البوق،
ثم تحملها في سلة على ظهرها إلى قرى كثيرة
في المنطقة، وهناك تبيعها:
في سان إنيجيه، لا فيل جيكل،
لو تيرتر، نوتر دام دو جيلدو
أو لو بويون.

أم أمها ولدت في القرن التاسع عشر
في البروتاني، أي أنها سبقتها
تقريبًا بقرنين، طفلةً بين أطفال كثيرين
لفلاحين معدمين
ليس بمقدورهم سد رمق أطفالهم، ولذا
يرسلونهم واحدًا بعد الآخر

ليعملوا خدمًا لدى الأثرياء.
الخادمة الصغيرة التي تعتني بالبقر تعاني شظف العيش.
مدةً طويلة لا ترتدي ـ
يا لصدمة حفيدتها الصغيرة فيما بعد! ـ
سروالًا داخليًّا. لم يكن لديها واحد.
كانت تنام على القش. أجرها السنوي
حذاء خشبي جديد،
وكل عامين تحصل
إما على عباءة ومعها زوج من الجوارب،
أو تنورة وسترة، ولم يكن ذلك ترفًا،
لأنها لم تكن قد وصلت إلى سن البلوغ بعد.
لم تذهب إلى المدرسة قَطُّ.
يقولون عنها *Illettrée*، عندما لا تعرف واحدة،
أو واحد مثلها، القراءة أو الكتابة.
في عمر الخمسين يتضح لها لأول مرة ـ
وأنيت ربما في السابعة ـ
أنها لم تحصل من أمها على قبلة قَطُّ،
فتسيل دموعها، هي التي لم تَشْكُ يومًا. هكذا
تجلسان، الجدة والحفيدة،
وتقبل كل منهما الأخرى، قبلة بعد قبلة بعد قبلة،
وتبكيان. لا تعرف عن أبيها شيئًا
غير فظاظته. لا تذكر أبدًا إخوتها،

أطفال عبيد وفتيات خادمات مثلها،
قد يكونون موتى أو مفقودين،
أو يعيشون بالقرب منها. أنيت
تحب، أكثر من أي شيء، هذه الجدة
الغنية بطيبتها، والمثقفة
من غير قراءة.

مثل كل واحد فينا
لديها جدة أخرى. تحبها بدرجة أقل.
هي أم أبيها، من آل بومانوار؛
يعني الاسم «منزل جميل رحب»،
وهي بالفعل أفضل عائلة في مكان
لا يعرف مجتمعات راقية حقيقية.
مدام بومانوار أرملة أيضًا، وهي ابنة
الموثق القانوني. لا ترى أنيت، في السنوات الأولى
من حياتها، الجدة رقم اثنين. قُطعت
الجسور بين الجدة وابنها في اليوم
الذي منعته من الزواج
بفتاة بُيَيت الصيادين،
إحدى بنات الجدة رقم واحد.
بالتأكيد عانت
مدام بومانوار ذلك، لكن ما العمل؟

كل شيء داخلها كان رافضًا
لهذه العلاقة غير المتوازنة،
التي سرعان ما أثمرت ـ للأسف الشديد ـ
بنتًا، أنيت. تعتبر أن ابنها أفضل من ذلك،
وهي محقة، فهو أفضل، لأنه يستغني
عن مجتمعها المحترم وعن إرثه
لصالح حبيبته. في ذلك الوقت
كان كلاهما ما زال طفلًا تقريبًا، لم يبلغا سن الرشد
وحسب القانون لا يستطيعان الزواج
من دون موافقة الوالدين، وهكذا تولد أنيت
وكأنها في حكاية خيالية ـ حكاية بروتانية ـ في
بُيَيت صيادين فقير، على يد الجدة رقم واحد
وخارج الزواج، ولكن ليس خارج الحب،
من دون أن تسجَّل في البداية
في أي سجل للمواليد.

لديها والدان سعيدان، يود المرء
أن يدعي ذلك، لكن هل هذا صحيح،
وهل هذا ـ عمومًا ـ ممكن؟
ألا يقولون دائمًا إن حالة السعادة
تستمر لحظةً على أقصى تقدير؟ لكنهما سعيدان
في كل وقت، ومن لديه أدلة على العكس،

فليعارض، الفرصة الآن متاحة.
السعادة هي النغمة الأساسية في حياتهما اليومية.
منذ البداية، وهذه الموسيقى الدافئة غير المسموعة
تتغلغل في أعماقها، تظهر أنيت
على مسرح الحياة بعينين مضيئتين،
وبقلب والديها الذي لا يهاب شيئًا.

لا يجسد الوالدان ما نُطلق عليه
صفة «سعيد» فحسب، بل إن كلًّا منهما
عكس الآخر أيضًا. جان طويل
ومارت الصغيرة قصيرة، هو متروٍّ ورزين،
وهي صاخبة، تحب الكلام، لكنها
متعقلة أيضًا، وحكاءة ينصت المرء
إليها فاغر الفم. يحب أن يطلق عليها
«مناضلتي النسوية»، وهو لا يقصد بذلك
نسويتها، قدرَ ميلها إلى
إبداء السخط الشديد والاستشاطة غضبًا في وجه الظلم.
بلغتها، هي *soupe au lait*
أي مثل حساء الحليب، ذلك النوع من الحساء
الذي يفور بسرعة. علَّمت نفسها كل شيء؛
ربما لا يعني «كل شيء» كل شيء حقًّا، لكن أشياء كثيرة جدًّا:
متعة القراءة، لعب كرة الطاولة. قيادة السيارة فحسب

لم توفق فيها، لجموحها الشديد.

لا عجب إذن، قد يقول المرء الآن، ومع
هذه الظروف الملائمة، أن تصبح الابنة
ما أصبحت عليه، وما تلخصه على نحو سيئ
سيرتها الموجزة على غلاف الكتاب،
لأن العقود الحافلة بالأفعال والجهود
تتجاوز غلاف أي كتاب.
لو كانت الظروف وحدها
هي التي تحدد المستقبل، لكننا تخلصنا
من كل المسؤوليات، وكل شعور بالذنب،
وكل تأنيب للضمير. إلا أن
الأمر ليس بهذه البساطة. الجزء الجوهري
يأتي فيما بعد، وينبغي أن ينجزه المرء.

تقترب أنيت من الخامسة، نعم، قريبًا
سيحل عيد ميلادها، لكن هل ستعيش حتى تصل إليه؟
سؤال غبي من منظور اليوم،
لكن آنذاك كانت الإجابة
مجهولة تمامًا، لأن مرضها كان قاسيًا
بل فقدت حتى الوعي،
لكنها لا تلبث أن تستعيده، وترى، أول ما ترى،

الدراجة التي أُهديت إليها
في عيد ميلادها. لم يلحظ والداها شيئًا
من الأزمة الاقتصادية العالمية، لقد مرَّا
بـ«الكساد الكبير» الخاص بهما، كانا يجلسان
على فراش ابنتهما الوحيدة، ولا يصليان،
لكنهما يتبعان بدقة يائسة
تعليمات الطبيب الذي لم يكن
حقًّا يظن أن بالإمكان إنقاذ الطفلة.
التهاب السحايا. اجتازت الأسوأ.
عادت أنيت إلى وعيها، لكن ذلك
لا يحدث فجائيًّا، إنها
عملية بطيئة؛ حتى بعد مرور تسعين عامًا
ما زالت تتذكر أنها شعرت أولًا
بالعضلات، والجلد، والمفاصل،
والأمعاء، ولما استردت الأذن عافيتها أيضًا
استطاعت أن تسمع صوت والديها.
لقاء قمة يُعقد بحضور الجدتين
على فراش المتعافية.
مدام بومانوار تقابل «الأم ذات الشعر الداكن»،
مثلما يطلقون في القرية على الجدة رقم واحد.
كلتاهما تشعران بالسعادة، بالسعادة الطاغية،
وبصورة خاصة

بسبب شفاء الصغيرة. والدا أنيت
وصلا إلى سن الرشد في غضون ذلك، وتزوجا.
تحمل أنيت الآن اسم والدها
واسم الجدة رقم اثنين بعد المصالحة،
وتُسمى في الأوراق الرسمية «ريموند مارسيل
آن بومانوار». منذ فترة طويلة
هجرت بُيَيت الصيادين، وانتقلت
مع والديها و«تيتة»
إلى الناحية الأخرى من الجسر الحديدي على نهر أرجينون،
أو بون دو جيلدو.
كان زوج «تيتة»، وهو حَداد،
قد ذهب هناك لبناء الجسر،
لكنه بعد خمس سنوات، وثلاثة أطفال،
توفي (بالسل). البيت الجديد،
وهو مرة أخرى مجرد بُيَيت، مُقام على الضفة الأخرى،
مقابل المنزل الذي ولدت فيه. في الجَزْر
لا يتبقى من النهر الذي يفصل بين البيتين
سوى قناتين صغيرتين؛ أما عند الفيضان
فيتحول إلى نهر عريض عارم.

قد يقول قائل
يقف اليوم على الجسر

ويتطلع إلى كلا البُيَيتين، يمينًا ويسارًا:
«انظر، هذان البيتان السعيدان». في ممر البُيَيت الثاني،
بين الباب الخارجي وباب غرفة نوم
الوالدين ـ البابان اللذان يُستخدمان كمرمى ـ
تلعب العائلة كرة القدم قبل العشاء
إلى أن يسجِّل الهدف العاشر.
وبعدها تندلع مصارعة،
مثلما قد يحدث في البيوت السعيدة،
وتكون تلك علامة؛ علامة السعادة.

عندما تُقام حفلات راقصة وتُعزف
الموسيقى تحت الجسر، ترقص «تيتة» وأنيت،
بعد فتح شباك المطبخ، رقصة البولكا.
جان، والد أنيت، اشتراكي
والقس ـ نحن في البروتاني والقس كاثوليكي ـ
Monsieur le curé يأتي كثيرًا
لتناول العشاء، وهو أمر لا يُدهش أحدًا،
فالناس يعرفون أنه، بمجرد توليه مهام وظيفته،
قد عمَّم شمعة واحدة للجميع،
أو بالأحرى الطول نفسه للشمعة.
قبل أن يأتي، كان الأطفال يحملون الشموع
في احتفال المناولة الأولى

حسب ثراء الوالدين؛
واحد يحمل شُميعة في طول الإصبع،
بينما يحمل الآخر أمامه ـ
ديبونيه الصغير مثلًا ـ
عمودًا في شكل شمعة.
يتفاهم الأب جيدًا مع هذا القس،
وحتى لا يسبب له الهم،
يرسل أنيت إلى طقس المناولة الأولى
(الأم، مارت، لم تُعجب بالفكرة كثيرًا،
لكنها تستلطف القس أيضًا). يثمر ذلك
أسبوعين من «الباطنية الروحية المتفجرة»
(على حد قول أنيت)، وهو أمر بالتأكيد ليس تافهًا، لكنه،
على امتداد قرن من الزمان تقريبًا،
بالأحرى قليل. قبل ذلك وبعد ذلك:
لا شيء. مثلما يحدث في روايات دوما،
في القرية هناك الزُّرق والبيض،
أي الجمهوريون والملكيون،
وإنْ كان الأخيرون لم يعودوا بالضرورة
ملكيين، هم بالأحرى تقليديون
وكاثوليك. أما الزُّرق
فهم جمهوريون ما زالوا،
وعلمانيون أيضًا، أي أنهم

مكتبة
t.me/soramnqraa

يريدون فصل الكنيسة، عن أنفسهم طبعًا،
وعن الدولة في المقام الأول، وإذا كان ممكنًا
فيجب ألا تكون للكنيسة أي سلطة.
لكن ذلك في البروتاني أضغاث أحلام،
إن لم نقل أوهامًا. في لو جيلدو
مدرسة للبنات، كاثوليكية،
تذهب إليها معظم الطفلات،
حتى بنات الفلاحين الأثرياء القلائل، وبنات
مستأجري إقطاعيات الأمير، إذ في المنطقة أمير،
وقصر أيضًا.
في المدرسة الثانية، التي تشرف عليها الدولة، تختلط
بنات يتدرجن في الفقر وصولًا إلى درجة الفقر المدقع؛
بنات بحارة يبحرون في رحلات كبيرة،
ويصطادون أمام جزيرة نيوفندلاند
أسماك القد الأطلسي بكميات كبيرة،
ويُحْضرونه معهم بعدها بشهور
سمكًا مجففًا، أي مملحًا، إلى البيت.
وبينهن بنات صيادي الشواطئ أيضًا،
وفتاتان أو ثلاث من بنات الفلاحين، إجمالًا ثلاثون فتاة،
أي فصل كامل، لا يسع الفصل
في المدرسة العلمانية أكثر من ذلك.
تتعلم أنيت هناك القراءة والكتابة،

وما تكاد تعرف المبادئ
حتى تبدأ في تعليم «تيتة»،
التي لا تستطيع، بالفعل، لا هذا ولا ذاك.
المغارة تحت غطاء فراش أنيت
كانت فصلًا مدرسيًّا جيدًا. استغرق الأمر
عدة أشهر واستطاعت كلتاهما القراءة والكتابة،
أو لنقل: «فك الخط». بمساعدة أنيت تكتب «تيتة»
الجملة الغريبة: «اليوم
طبختُ حساء بالبطاطس والكراث
من الحديقة». تقرأ لزوج ابنتها،
وإن ببعض الصعوبة، تفسيرًا
من أحد القواميس، للأسف من دون أن
نعرف أي كلمة هي المشروحة هنا.
غير أننا نرى: تحت غطاء الفراش
ما زال لكلمة «التنوير» معنى.

بعد ربع قرن ترقد الجدة
على فراش الموت. أنيت معها،
وكي تتحمل الوداع، تتشبث
بالكتاب الذي تقرأه في هذا الوقت،
لا تقرأه في الحقيقة، بل
إنه معها. كتاب من تأليف آرثر كوستلر،

وعنوانه *Darkness at Noon*
وهو مترجم إلى الألمانية
تحت عنوان «كسوف الشمس». على غلاف
الطبعة الفرنسية مكتوب: *Le zéro*
et l'infini، أي «الصفر واللامنتهي»؛
ثلاثة عناوين إذن، منحت غرفةُ الاحتضار هذه
معنى جديدًا لكل منها.
تمد المحتضرة يدها الضامرة
إلى الكتاب، وتتأمله
طويلًا جدًّا، ثم تشير ـ
وبوادر ابتسامة على شفتيها ـ
بإصبعها المتيبسة الصغيرة
على حرف الـz في *zéro*
وبصوت خافت تمامًا به بعض الدعابة تقول:
«لم أستطع تذكر
هذا الحرف».

فترة صمت.

عودة إلى البداية، إذ إن
حياة أنيت قد بدأت لتوها. كما قلنا

كانت تمتلك في ١٩٢٩ دراجة،
ما لا تستطيع بالتأكيد أن تدعيه
كل طفلة في الخامسة من عمرها،
لا سيما إذا كانت مثل أنيت
فوالداها ليسا موسرين،
لكن ليست كل طفلة في عمرها
ابنة بطل دراجات،
حسنٌ، ربما تكون كلمة «بطل» مبالغًا فيها،
لكنها ابنة رياضي على كل حال،
شارك في الـ*Tour de France*،
في بداية العشرينيات، قبل مولد أنيت.
على ضفة لو جيلدو، أسفل المنزل
المقام عند الجسر، افتتح فيما بعد
متجرًا للدراجات ومركبات أخرى تسير على عجل ـ
على اللافتة مكتوب[١]:
CYCLES ET PETITES MACHINES AGRICOLES
بعدها امتلك السيارة الوحيدة في القرية،
كلَّا السيارة الثانية الوحيدة،
لكنه كان يستخدمها أساسًا
في توصيل جيران مختلفين إلى هنا أو هناك:

(١) دراجات وآلات زراعية صغيرة. (المترجم).

آنذاك، ساد في لو جيلدو نقص كبير
في سيارات التاكسي المجانية. بعد مسافة صغيرة
على الضفة نفسها، كان يسكن في الشتاء،
في ثلاث عربات تجرها الخيل،
مَن كان يطلَق عليهم «الغجر»،
وبالفرنسية *romanichels*؛
عائلة تدير سيركًا، وكان يصلِّح لهم أيضًا
مجانًا الدراجة الأحادية، أو كل ما يستدعي التصليح
ومع ابنتهم - إحدى بناتهم -
كانت أنيت تحب أن تلعب، على الرغم من
إصرار «تيتة» على أن القمل
يسكن شعرها. حتى لو ادعى البابا عكس ذلك،
لما صدقته، وهي الوحيدة في العائلة
التي تصدقه أساسًا.
من دون جدوى، بذلت «تيتة» جهدًا
حتى لا يقترب رأس إحداهما من الأخرى،
وبرفق كانت تمشط شعر الصغيرة
بمشطها الرقيق، وبعدها
تدللها بفطائر «الكريب».
وهكذا نرى أن الأجيال الثلاثة
وآل بومانوار الأربعة جيران طيبون،
وفي الحقيقة لا يتخيل المرء أفضل منهم،

والغجريات يغدقن عليهم بركاتهن من دون انقطاع.

كما الآباء، كذلك الأطفال مقسمون
في المدرسة: أطفال من الريف
وآخرون من البحر،
الفلاحون والبحارة،
أولئك الذين يتغرغرون بالكلمات
وبجانبهم يشعر الآخرون
بأنهم متحضرون.
من يسكن على مصب النهر،
فهو يواجه البحر، البحر المفتوح،
حتى وإن لم يبحر.
المَد يدفع بسفن البضائع الصغيرة
عبر النهر، فيجب أن تُفرَغ سريعًا
قبل أن تتراجع المياه.

كثيرًا ما يهبط إلى اليابسة بحارة
لا يفهمهم إنسان، ومع ذلك
يتبادل المرء معهم الحديث. *La maîtresse*،
معلمة المدرسة، هي أرملة ضابط
في البحرية التجارية، التهم المحيط الأطلسي ذات يوم،
في المنطقة الشمالية الغربية أمام أيسلندا،

سفينتَه بكل طاقمها.
أما هي فتقف في كل صباح سليمة معافاة
أمام الفصل الذي يضم بنتين صغيرتين لهما اسم واحد:
«جيرمين»، وكلتاهما في المستوى الرديء نفسه،
ومع ذلك فإن المعلمة تشد
واحدة منهما فقط من ضفائرها لتعاقبها.
أي الفتاتين، يا تُرى، هي ابنة العمدة؟
تدين أنيت بالفضل أيضًا
إلى التأثير الطاغي
لهذه المعلمة الأولى
بأنها كونت لديها مبكرًا وعيًا بالظلم.

تصبح *interne* في مدرسة دينان،
المدرسة العامة للتلاميذ
ابتداء من سن الحادية عشرة.
Interne تعني أنها تسكن وتأكل
في المدرسة، ولا تذهب
إلا كل أسبوعين إلى البيت،
إلى والديها و«تيتة». في الباص تتفحص
صبيًّا اسمه «جان-باتيست»؛
كلَّا، لا تعرف اسمه الحقيقي،
لكنها تطلق عليه هكذا، لأنه نحيف

وذو شعر مجعد داكن،
مثل يوحنا المعمدان.
الأمر يبدأ مبكرًا! لكن الصبي لا يلاحظ شيئًا.

في الثالثة عشرة، عام ١٩٣٦، تقضي
صيفها الأخير في بيت الوالدين على البحر.
Mais qu'est-ce que c'est que
tout ce monde? ماذا يريد، بحق السماء،
كل هؤلاء الناس؟ أدخل الاشتراكيون
والشيوعيون نظام الإجازة مدفوعة الأجر،
أربعة عشر يومًا فقط،
ولكنها إجازة على كل حال،
تحيا الجبهة الشعبية، *Le Front Populaire*.
تهبط الجموع من قطارات الضواحي
والباصات الصغيرة، من كل شيء
يتحرك على عجلات، يؤرجحون شِباك الصيد
والجواريف الصغيرة، ويرتدون ملابس الإجازة،
وهي نوع خاص من ملابس يوم الأحد،
وقد علاهم السناج من دخان القاطرات.
في كل مكان هم، يغنون، يلعبون الكرة.
جبهة البحر لم تعد الآن سوى
جبهة شعبية عريضة. الزوار،

أيًّا كان المكان الذي جاءوا منه،
يُطلق عليهم «باريسيون»،
ليس المهم إذن ما يفكرون فيه،
Parisiens، أي: سكان العاصمة.
صيف ١٩٣٦. ما يحدث في ألمانيا
معروف. إيطاليا يحكمها موسوليني.
في إسبانيا تبدأ الحرب الأهلية.
يبدو كل هذا بالنسبة إلى فتاة
في الثالثة عشرة، في بلدة صغيرة في البروتاني،
بعيدًا ونائيًا، أبعد من سوريا أو تشاد
بالنسبة إلينا اليوم؛ لكن المظاهر خداعة،
مثل عادتها، إذ سرعان ما يظهر
الإسبان الأوائل، أو بالأحرى
الإسبانيات، اللواتي قُتل أزواجهن،
أو جُرحوا أو وقعوا في الأسر،
يجدن مع أطفالهن ملاذًا في البروتاني.
لم تعد أنيت *interne*، منذ أن تخلى والداها
عن حياتهما عند مصب النهر،
واستقرَّا في دينان
حيث يساعدان الإسبانيات اللاجئات،
وحيث يديران أيضًا مقهى-مطعمًا،
وهو في الحقيقة لا يختلف كثيرًا

عن لجنة الاستقبال
التي يشاركان فيها على نحو تطوعي،
أو بالأحرى على نحو ودي. أنيت
من أنصار السلام، إلى أن تبلغ الخامسة عشرة،
عندها تفضل أن تصبح إرهابية. لقد تأثرت
بتشن، أحد أبطال رواية مالرو *La condition humaine*،
الذي تحول من قاتلٍ إلى انتحاري
خلال انتفاضة العمال والشيوعيين
عام ١٩٢٧ في شانغهاي. هكذا
يعيش الإنسان، عبر موته. عبر موته
من أجل الآخرين؟ أو عبر إرادة الموت،
ولا شيء غير الموت. إرادة الموت تنقذه
من حتمية الموت، أي من «قدر الإنسان».
يحصل مالرو على جائزة جونكور،
وإذا صدقنا النقد، فقد كان
شخصية مريبة حقًّا. لكن، أيًّا كان الأمر،
ليس هذا موضوعنا الآن، ما يهمنا هو الـ*exaltation*
أي الحماسة الجارفة، أو الشعور بأن على المرء
أن يضحي بحياته في سبيل
قضية أو هدف أو مثال. في عام ١٩٣٨ يصل
أول لاجئ ألماني، أو بالأحرى
لاجئة، وتُدعى «إلزه». «ومع أنها كانت ألمانية،

أي للوهلة الأولى عدوة، فقد كانت جميلة جدًّا» (على حد قول أنيت).
إلزه من برلين، لا تتحدث كثيرًا، وإن فعلت،
فبلغة فرنسية سيئة، لكنها تفهم
بعض الأشياء، مثلًا أن الريبة تواجهها،
وهكذا تحكي عن عمها،
الذي قتله في دكانه
بضعة فتيان كانوا يترددون عليه.
من الواضح أنها تقول الحقيقة.

بعدها تبدأ حربٌ لم تكن ـ
على الأقل بالنسبة إلى فرنسا ـ
حربًا صريحة بعد، بالأحرى
فترة صمت، أو التقاط الأنفاس، أطلق عليها
الفرنسيون *la drôle de guerre*، الحرب المضحكة،
مع أنها كانت تخلو من أي شيء
يبعث على الضحك. لم يكونوا
مرحين أكثر من جيرانهم، لكنهم
ليسوا مضرب الأمثال في إتقان اللغات الأجنبية،
وهكذا فهموا التسمية الإنجليزية
phoney war، أي «الحرب المزيفة»،
على أنها *funny war*.

ثم تصل الحرب غير المضحكة إلى البلاد.
يبدأ الهجوم في العاشر من مايو ١٩٤٠،
وينتهي في الثاني والعشرين من يونيو: هذه الأسابيع الستة،
ما زال الفرنسيون، بعد مرور ثمانين عامًا،
لا يفهمون أنها كانت ستة فقط، وليست على الأقل شهورًا،
ولا يفهمون أن القوات الألمانية واجهت زبدة لا خرسانة.
في يوليو يزحف الألمان ويسيرون في شوارع دينان
بالـ*pas de l'oie* أو «مشية الإوزة»، التي يطلقون عليها
بالألمانية «خطوة استعراض الحرس العسكري».
أنيت في السابعة عشرة، وتفضل أن ترى
ذلك عن قرب. الآن، في هذه الأسابيع،
يتقرر شيء بالنسبة إليها ـ هذا إذا لم يكن قد تقرر
قبل ذلك بكثير، عند مصب نهر أرجينون.

عندما يقترب البحر من اليابسة، يقاومه
النهر. في الربيع وفي الخريف يتوغل المد
وينسحب الجزر أكثر من أي وقت آخر،
يطلقون على ذلك *les grandes marées*
أو يقولون أيضًا: «المياه الحية»،
les vives-eaux. وحيثما تصطدم في عنفوان
المياه المالحة والمياه العذبة، يحدث أن
يرتفع على غير توقع جدار من مياه،

سد مائي رائع يطلقون عليه *mascaret*.

«الكتكوت الفصيح، من البيضة يصيح».
هي في السابعة عشرة، في العطلة الصيفية،
يبادرها شخص بالحديث، رجل.
قد يبدأ حبٌّ هكذا، لكن
لا. الرجل اسمه «س.»، أسير حرب،
يتنقل عبر المدينة مع شخصين آخرين
يقدمان مثله خدمات ترجمة
للقيادة العسكرية. تُفرض على الرجال
حراسة، لكنها متراخية إلى حدٍّ ما. بمقدور «س.»
أن يتبادل بضع كلمات مع أنيت
خلال مرورها، من دون أن يلاحظ أحد.
يدور الأمر حول تسلم عدة طرود
من سور الثكنة العسكرية سابقًا ـ
وحاليًّا معسكر المساجين ـ ثم توصيلها
إلى العنوان المكتوب على أصغرها
(الطرود الأخرى بها عناوين وهمية). هل
تفعل ذلك؟ هه، ماذا تعتقدون؟ بالضبط:
تفعل ذلك. في العنوان المشار إليه
تسكن خياطة جميلة وشجاعة،
تستطيع أن تغزل برجل حمار،

وهو ما تفعله بهذه الطرود أيضًا. لقد جدلت
شعرها الأشقر على شكل تاج،
ولديها سمعة أنها عاشت في باريس *une vie de folie*
حياة مجنونة، أو بالأحرى متهتكة، أثمرت ابنًا،
وهو الآن سجين في ألمانيا.
ترى أنيت «س.» مرتين أو ثلاثًا
قبل أن يرحل، وتحديدًا إلى لندن،
كما اتضح بعدها بسنوات.
يترك لها من بين ما يترك «الأمل»
L'Espoir، رواية أخرى لمالرو ـ
عن الحرب الأهلية الإسبانية،
التي يعرفها «س.» من الداخل ـ ويترك لها
كتبًا أخرى من حقيبته.
ثم يرحل. وتتعرف هي
بأناس جدد يجعلونها
تلتقي أعضاء من المقاومة،
وتتعرف، على سبيل المثال، إلى *instit*
أي معلم في التعليم الأساسي، ومن أجله
تنقل في هذا الصيف، والصيف المقبل،
مختلف الأشياء بدراجتها،
إلى هنا وإلى هناك. مثل معظم الأشياء
فإن المقاومة تختلف عما يظنه المرء،

ليست قرارًا يأخذه المرء مرة واحدة،
بوضوح، بل تورط - بطيء وغير ملاحَظ -
في شيء، لا يعلم المرء عنه شيئًا.
أول ما يجب مقاومته، هو المرء نفسه.
الخوف الذاتي. ماذا لو
اكتشف شخص أمرها، وضبطها متلبسة
بحمل رسائل أو بضائع ممنوعة؟
تعلم أن الخوف شيء يُمكن قهره.

يمضي عام، وهي ما زالت زهرة غضة.
أمن الممكن أن تصل إلى سن البلوغ
أسرع من ذلك؟ إلى متى ستظل الأمور
تسير هكذا، على منوالها السقيم والعقيم
بالنسبة إليها؟ بنصف حماسة
تبدأ دراستها في مدينة رِن، وتحديدًا
الطب، في حين كانت بحماستها كلها
تحلم بمصير آخر، بتضحيات وأعمال بطولية.
للأسف تنقصها الفرص. صحيح، لقد كان لديها
عبر الـ*instit* بعض «الاتصالات» التي كانت آنذاك تختلف
عن اليوم، فهي لم تكن تعني أي شخص تتعرف إليه،
على العكس، لم تكن اتصالاتها تتعدى حفنة قليلة
من الأشخاص الموثوق بهم، لديهم النوايا السرية نفسها،

أو ما يشبهها. ولكن متى ستحل أخيرًا
ساعة الجد، لماذا لا تُسنَد إليها
مهمة ذات وزن؟ متى سيُطرد
«نحاسيو اللون» أولئك ـ مثلما يطلقون على
الجنود الألمان ـ خارج البلاد؟ ولماذا
لم تتغير شوارع رِن منذ فترة طويلة لتبدو
مثل الشوارع الصينية التي هزتها الثورة هزًّا
في رواية «الغزاة»، *Les conquérants*،
لأندريه مالرو مرة أخرى؟ الخصم
نازي ألماني، لكن ذلك أمر ثانوي،
هو في جوهره إمبريالي، ورأسمالي، وقومي.

ولكن، مؤقتًا عليها، للأسف،
أن تنتظر وتقوم برحلات بالدراجة.
مهمة صغيرة جدًّا تقود أنيت إلى قلب
البروتاني، إلى نجع بالقرب من بلدة أوزل،
هو من الصغر والضآلة بحيث لم تعد
تستطيع منذئذ أن تجده على الخريطة. هناك تنتظرها
دراجة في مخزن الغلال، غريبة، إنها تشبه تمامًا
دراجة أبيها... بل إنها دراجته... ها هو
يأتي. إذن هو... أيضًا؟ يُفهِمها أن لا أحد،
ولا حتى الأم، التي تلقَّب بـ«مارت الصغيرة»،

يجب أن يعلم شيئًا عن
لقائهما السري بالمصادفة.
كل شيء جميل وحسن، لكنه
قطعًا يكاد يخلو من المغامرة.
«من اللاإنسانية» (على حد قول أنيت)، أن
تجادل شخصًا قد حسم أمره
على المخاطرة بحياته من أجل مستقبل في علم الغيب،
كلَّا، ليس حتى من أجل مستقبل، بل من أجل
هدف سامٍ، أي من أجل
شيء يتعذر الوصول إليه. في الجامعة تلتقي أخيرًا
تسيه ها، التروتسكي. يرسلها إلى
اجتماع في مدينة برست حيث يهطل المطر،
كما هو متوقَّع. رجال البحرية الحربية يتوحدون
مع الليل بملابسهم الزرقاء والسوداء. تنعطف أنيت
من حارة مظلمة إلى أخرى أكثر ظلامًا،
تطرق بابًا، بدايةً أربع مرات، ثم مرتين،
وتقول: «هنا دينان!». هكذا الاتفاق.
هي «دينان»، جديرة بتجسيد المدينة.
ثم تُجبِر ساعة الحظر الحاضرين
(عددًا من الرجال وثلاث نساء، من بينهن أنيت)
على قضاء بقية الليلة في النقاش. يسفر ذلك عن
نداء بلغة تشبه الألمانية

موجه إلى الجنود «نحاسيي اللون»،
كي يبتعدوا عن ذوي القمصان البنية
والسترات السوداء. ماذا؟ أيريد هؤلاء السهارى
حقًّا أن يقنعوا الجنود الألمان
بالانشقاق؟ بالنكوص عن الولاء لحكومتهم؟
أهناك سذاجة أكبر من تلك؟
في إحدى الحدائق العامة التي يحب الألمان
التنزه فيها، ينبغي لأنيت أن توزع هذه المنشورات،
ولكن، لحسن حظنا ولغضبها الشديد،
راحت تنتظر توريد المنشورات من دون جدوى. وُعودٌ
فارغة! مبادرات هزيلة-جريئة،
غير أنها تؤدي في صيف ١٩٤٢ إلى اعتقالات
في محيطها. يفرض الحذر ـ
وفي بعض الأحيان تصغي إليه أنيت ـ
أن تترك رِن. وهي عمومًا تتشوق
إلى أفعال أكثر جدية، وبدأت منذ وقت طويل
تتطلع إلى الـ*PC*. لا يعني هذا الاختصار
personal computer أو *political correctness*
كما هي الحال اليوم، بل يشير إلى الحزب الشيوعي
الممنوع منذ سبتمبر ١٩٣٩.

«إذا لم يكن للمرء في السادسة عشرة

قناعات قوية» (على حد قول أنيت)، «فهناك
فرص جيدة في ألا تتبلور لديه أبدًا» (هذا
ما لم تقله أنيت). يغلق المرء عينيه
في مواجهة الموتى والإرهاب،
وما ينتج عادة عن الثورات، «المرء يأمل
ويبدأ في الركض» (في تهور: أنيت)،
وتحديدًا في اتجاه مكان ليس له وجود مطلقًا
ولن يكون موجودًا أبدًا، مكان
الحكم فيه للسلام والحرية والإخاء،
بل بالأحرى... مكان يسوده ذلك؟ باريس
ليست مكانًا كهذا، لكنها تحديدًا
هي المدينة التي تستقر فيها
الهاربة الآن، وستعمل فيها قريبًا.

تقع غرفتها في بولفار كيلرمان،
وهو رجل ألزاسي حارب مع دوموريه
وانتصر على البروسيين في فالمي. الآن،
في سبتمبر ١٩٤٢، يقع في الشارع
الذي يفتخر باسم مَن يحمله مصنعٌ ـ
ومقر إقامة أنيت يقابله تقريبًا ـ
اسمه *Gnome et Rhône*، ما يكاد يوحي
بالإخاء، وبالصداقة الألمانية-الفرنسية.

لكن في الحقيقة تُصنَّع هناك
محركات طائرات لسلاح الطيران الألماني،
مثلًا لطراز «مسرشميت ME321».
لم تكن أم أنيت سعيدة تمامًا
بعنوان ابنتها الجديد،
لكن أنيت لن تمكث هناك طويلًا.
تدرس الطب، وحتى الآن تعرفت إلى امرأة
واحدة في باريس، واسمها
«مونا ليزا». للطلبة الباريسيين
لسان سريع أكروباتي،
وعقل مثله، ولذا يبدون دائمًا
كأنهم فهموا أشياء أكثر بكثير
مما تعلموا. وما فهموه يُقطَّع فورًا
إلى فَرضية، وفرضية مضادة، وفرضية توفيقية،
ويشعلون بذلك، وبكثير من حطب الكلمات الأجنبية،
نارًا مستعرة. وبالمناسبة،
لقد ولدوا تقريبًا بكل هذه القدرات، وسيكون من الغباء
أن تقيس نفسها بهم في هذا المجال.
لا تحاول أنيت ذلك مجرد محاولة:
لقد صَبَّ أحدهم لسانها من رصاص.

هل شرع الآن يسير في مساره حقًّا

ما يسمونه: القدر؟ وإذا كانت الإجابة بنعم،
فإننا نعرف أسماء الآلهة
الذين وجهوه حتى هنا، إنهم
جان، و«تيتة»، ومارت الصغيرة،
وأرجينون، وبيت الصيادين، والمد والجزر.
باريس كبيرة! باريس صغيرة. صغيرة جدًّا
إذا كانت تضم فقط أولئك الذين لا يريدون
أن يواصلوا السير في الطريق نفسه،
مثلما فعلوا حتى الآن، القلقون، والـ*pas d'accord*
وهذا الجمع الصغير من المقاومين
لا يُظهر نفسه، ولا يجند الآخرين،
على المرء أن تكون لديه الرغبة في العثور عليهم،
وأن يجدهم.

وأنيت تجدهم. فهي تنطلق على الفور
للصيد ـ *la pêche à pied!* ـ
وتحديدًا في بولفار راسباي، لدى المجموعة
الشبابية الملتفة حول مارك سانيه،
وتظن أنها ستصادف هناك مقاومين.
من يذهب للصيد، يجد! هناك تُقابل
شخصًا تعرفه، وهو يُعرفها بشخص يعرفه.
لا يُترك للمصادفة، أو للقدر، هامش كبير

في هذا اللقاء الأول: في جانب معين
من درج معين في حديقة اللوكسمبور
سيكون مستندًا إلى الدرابزين ومتعمقًا في قراءة كتاب
وقد دس تحت ذراعه اليمنى «سيجنال»،
وهو ما لم يكن آنذاك معجونًا للأسنان،
بل صحيفة دعائية لنشر الفكر النازي
في البلاد المحتلة في أوروبا. عليها
أن تقول له: «يا لجمال هذا اليوم الربيعي!»، وبالطبع
ليس بالألمانية، بل أن تقول:
Quelle belle journée de printemps!
وهي جملة لم تكن مثيرة للشبهات،
لكنها لا تبدو أيضًا عادية أو طبيعية.
أم أن الناس في باريس يتحدثون ربما هكذا؟
من المرجح أن لا أحد قد انتبه لكليهما.
جلسا على مقعد، وهو أمر ليس بالغريب
في حديقة اللوكسمبور. بُهتَ
لصغر سن هذه الفتاة التي أرسلوها إليه،
ولافتقارها إلى الخبرة في المقاومة،
وأنها لا تكاد تعرف المدينة،
وهي كذلك لا تستطيع الكتابة على الآلة الكاتبة. هل
هي على الأقل مستعدة لـ*lâcher* أو *collage*؟
بالتأكيد، هي مستعدة ـ ولكن، ما معنى

lâcher، *collage*؟ يتطلع إليها: أعليَّ أن
أكافح ضد النازيين بهؤلاء الأطفال؟
حسنًا. ربما معهم تحديدًا. المبهج أن الفتاة
تبدو غير مؤذية لنملة، وربما
أقل ألف مرة إيذاءً من قدراتها الحقيقية.
إنه محق في ذلك؛ وبأكثر
من معنى، لكنه يفكر في البداية بالتأكيد
في شيء واحد فقط، وليس في أن
«الاتصال» يعني التلامس. لا يعطيها يده
كي يصافحها، بل إرشادات دقيقة:
«غدًا بعد الظهر، في السادسة، ناصية
شارع دوفرنيه، جادة أورليان. سترتدين
ملابس اليوم نفسها. سيأتي
رجل على رأسه بيريه وسيسألك
عن شارع الأوديون، وستردين:
«بعد غد»». تصغي إليه من دون أن تفكر ـ
مثلما نفعل ربما ـ في الأفلام بالأبيض والأسود،
التي يقول فيها الناس أشياء عبثية مشابهة،
بل تفكر في الغد، وفيه، وفي
يده الرقيقة القلقة. ينهضان، ويسيران،
كل منهما بجانب الآخر، في اتجاه ميدان
دانفير-روشرو، إلى أن يأمرها فجأة: «Traverse!»،

فتعبر الشارع. وينتهي الأمر.

ينتهي الأمر لهذا اليوم. والآن عليها أن تجتاز
امتحانات لا علاقة لها بالطب. في رِن
ثمة جدران ينبغي الكتابة عليها، وطرود
يجب حملها، أثقل من أن تكون ممتلئة بالورق.
تستطيع أنيت أيضًا أن تطبع على الهكتوغراف. الخطوات التالية
هي: *collage*، أي لصق الملصقات في الليل،
و*lâcher*، ولهذا يحتاج المرء إلى جموع من البشر
لكي يختفي وسطها، ثم يلقي بحزمة من المنشورات
في الهواء، فوق الأكتاف، ثلاث أو أربع مرات
أو يتخلص منها (*lâcher* =). وليس للكلمة
أي علاقة بـ*lâche*، أي «جبان»، لكن الكلمة
تحتوي على هذه الصفة، أما الفعل فلا.
ثمة شيء آخر تفعله، لا يصلح
للجبناء، شيء يحدث في السينما،
في نهاية الفيلم تمامًا، عندما ينهض الجميع
ويهمون بالمغادرة، عندئذ عليها بمكبر الصوت
أن توقظ الفرنسيين من غفوتهم: *Français...!*
على المرء عندئذ أن يكون خبيرًا بالمكان،
وينتظر اللحظة المناسبة،
وهي تجيد كلا الأمرين.

مرة واحدة فقط يمسك أحدهم برجليها،
قزم ربما، أو عميل،
لكن، لأن لا أحد يساعده،
ولأن أنيت كانت تحلم بأنها ستصبح لاعبة أكروبات،
فإنها تهرب منه، وسرعان ما تختفي.

بإمكان راعيها أن يكون راضيًا عنها
وهو بالفعل كذلك؛ يقف أمام كشك
وينتظرها خلف صحيفة فردَها أمام وجهه.
ينطلقان، وكأن لا هدف لهما، أو لهما هدف
لا يوجد على خريطة المدينة، ليس عليها
أن تنتقل إلى الجانب الآخر من الشارع. لا
إرشادات. ميدان الكونتريسكارب،
موبير، ضفة السين حتى جسر ماري،
الممتد هناك منذ قرون، وهما؟
يقفان هناك للمرة الأولى. يسود
السكون التام على الجسر، ببطء تدور
الشمس حولهما. عمرهما اليوم معًا أربعون
وغدًا قد لا يكونان على قيد الحياة.

اسمه «رولان». لم يعد هناك
من يحمل اسمه السابق، ولا حتى هو، «راينر

يورستال»، وأصلها: «يورستهال». يهودي
من أصل ألماني، نشأ في سانت وان،
إحدى ضواحي باريس، تُسمى اليوم «الضاحية الشمالية»، أو
Quatre-vingt-treize، أي: ٩٣،
وليس المقصود ١٧٩٣، *la Terreur*،
عام الثورة وعام الإرهاب، بل الرقم البريدي،
الرقم البريدي للعالقين، ومنهم كثيرون
ليسوا فرنسيين، أو على الأقل ليسوا كذلك على نحو كافٍ.
رولان عضو في «الشباب الشيوعي»، أنيت
ستلحقه قريبًا أيضًا، الحالة: مناضل دائم تحت الأرض،
clandestin permanent، وبالفعل، كان لوجودهما
تحت الأرض استمرارية. ما يتغير، هو الأشياء الأخرى كلها:
أماكن العمليات، مقرات الإقامة، الأسماء. قريبًا سيصبح «رولان
فيرن»، ثم «رولان فلوري»، أما هي فتُدعى بدايةً «أوديل»،
ثم «كاريه»، ثم «سوايه». مخابئهما، أو
planques، في بولفار دو بون نوفيل
(بولفار الخبر الجيد) وفي أنيير،
التي تقع خارج حدود المدينة بمسافة محترمة.

واقعان في الغرام هما. يعشق كل منهما الآخر. أمسموح بهذا؟
لم يتوقع الشيوعيون الحب،
أو توقعوه ومنعوه منعًا باتًّا.

ولسبب وجيه: العلاقة الشخصية
حبلى بالمخاطرة. الـ*clandestin permanent* يعرف
دائمًا اثنين آخرين فقط، لا أكثر ولا أقل،
ولا يعرفهما إلا باسمين مستعارَين. فإذا قُبض عليه، لن
يشي بأحد حتى تحت التعذيب. الحبيبان
ينتهكان بكل وضوح نظام الحزب،
لكنهما لا يكترثان، لا سيما أن
ثمة أشياء، كما يعرف كل إنسان، لا يقدر
أي حزب أو حتى أي إنسان أو قانون على منعها.
بالطبع لا يجوز لقادة الحزب أن يعرفوا شيئًا،
لكن: أنَّى لهم؟ إن حياتهما ليست سوى
اختباء، خزانة تزدحم بالأسرار،
وفيها سيقبع مختفيًا من الآن سرٌّ آخر.
من بين أشكال المأوى حيث يقضيان
لياليهما، يفضلان اختيار ما بها
سرير كبير؛ سرير كهذا موجود في أنيير
لدى أنيت، لهذا يجب أن نقول الآتي:
عندما تقابلت أنيت مع رولان
أو عندما أصاب كلًّا منهما سهم من الآخر،
كان رولان وحيدًا على نحو
لا يشبه فيه أي إنسان آخر.
ما يقوله كل منهما للآخر، ما يصمتان عنه،

مدفون في ليل الزمن، غير أن
أنيت تعرف أن رولان، على الرغم من صغر سنه،
قد اضطجع في سرير مثل هذا
كزوج صالح. تزوج في
التاسعة عشرة فتاة صغيرة لم تبلغ
الثامنة عشرة. مع زوجته ووالديها
كان يريد عبور خط الحدود.
تمامًا كالذين يهربون اليوم من الصومال أو إريتريا،
أودعوا كل المال الذي يملكونه لدى مساعد
يعرف، أو ينبغي أن يعرف، أفضل وسيلة
لعبور الحدود. لكن، على غير توقع، كان عليهم
أن يعبروا نهرًا، ربما نهر الكروز أو الشير
مع أن الوالدين لا يستطيعان السباحة مطلقًا.
تخلفا عند الضفة، وأُلقي القبض عليهما،
والزوجة والزوج أيضًا لم يتقدما كثيرًا.
ما كادت صوفي الشابة تضع قدميها في المياه حتى
أصابتها رصاصات أطلقها الحرس،
على ما يبدو الألمان، في حين أن رولان ـ
في البداية تحت الماء؟ ـ استطاع أن ينقذ نفسه
وأن يسبح مسافة في اتجاه التيار، ليجد نفسه
مرة أخرى عند الضفة؛ للأسف الضفة نفسها. ما حكاه
فيما بعد لأنيت هو ما يعرفه عن محاولة الهروب

وعن موت صوفي ووالديها.
ما لن يعرفه ربما أبدًا،
وما سيقرأه بعد سبعين عامًا شخصٌ على موقع
الحكومة الفرنسية، هو أن صوفي يورستال
لم تمت على ضفة نهر، بل
في أوشفيتس. أي أن الطلقة في النهر
قد تكون جرحتها سطحيًّا فحسب، وأنهم سحبوها
حية من المياه ليرسلوها إلى درانسي، ثم
إلى الموت الذي، على ما يبدو،
لم يتكرموا به عليها في المرة الأولى.
هنا، هذا الشاهد الأبيض من ورق،
ينبغي أن يحمل اسمها وبيانات حياتها:

صوفي يورستال، الاسم قبل الزواج: هامر
وارسو ١١/ ١/ ١٩٢١ ـ أوشفيتس ١٩/ ٩/ ١٩٤٢

فترة صمت.

عندما يقاوم المرء، فإن مقاومته
تواجه شيئًا محددًا، في هذه الحالة

الطغيان الألماني وأيديولوجيته
الشريرة. غير أنه قد يميل غالبًا
إلى التساؤل عما إذا كانت هذه القواعد
أو تلك، أو مبادئ السلوك، صحيحة
أو حتى عادلة. فلنرجع إلى الوراء قليلًا: المشاكسان
لم يعانيا الجوع تمامًا بسبب موقفهما بعد، لأن أنيت
تحصل من البيت في كل أسبوع على طرد،
وبالطبع لا يُرسل مباشرة إلى إحدى الـ*planques* الخاصة بها،
ولكن إلى عناوين بالتناوب، حيث يسكن
أصدقاء لوالديها. رائحة زكية تفوح من الطرود؛
رائحة الأطعمة الشهية من يد «تيتة». في أحد أيام يناير ١٩٤٤
تحْضر أنيت أحد طرود المؤونة من
آل «ب.» في مبنى من الطوب الأحمر على مشارف المدينة.
مدام «ب.» اسمها «إليزابيت» وتعمل حارسة لمنزل، ويعمل زوجها
لدى هاشيت في قسم التوزيع، وهناك علم أن *rafle* ستحدث
قريبًا، «كبسة» في الدائرة الثالثة عشرة
من باريس، في حي يُدعى «بوت أو كاي».
تعرف إليزابيت هناك فيكتوريا، هي أيضًا حارسة،
وتخبئ في العُلية عدة أشخاص
استطاعوا في المرة السابقة الهرب في اللحظة الأخيرة.
يقولون إنهم سيفتشون هذه المرة كل المنازل.
لا مهرب. لا بد أن ينتقلوا إلى مكان آخر. لا بد، ولكن

إلى أين؟... «أنيت؟ أنيت، إنك تعرفين
أناسًا، عليك أن تبلغي
رؤساء المقاومة!». تبتسم. تومئ.
وقبل أن تنصرف، تعد بأنها ستفعل ما تستطيع.
ما تستطيع! وماذا تستطيع هي؟ ماذا يستطيع
رؤساؤها؟ يبدو أن إليزابيت هذه تتصور
المقاومة مثل منظمة لإنقاذ اليهود المُلاحقين.
ضائعة في أفكار مضطربة تسير في الشارع،
شارع المولين دو لا بوانت، جادة إيطاليا،
وترى في كل أنحاء البلد، في كل أنحاء
القارة مخابئ متفرقة هنا وهناك،
أقبية، مخازن، وفيها يقبع بشر،
وبوجوه ناحلة ينتظرونها. لا
أفعال فردية، أقسمت للحزب على ذلك. لا
مبادرات. إنها ترس في آلة، وكترس
عليها ألا تفعل شيئًا سوى الدوران. تخاطر
بحياتها في عمليات خطط لها آخرون.
موافقة هي على هذا الخضوع، تريد
ذلك، وترى المغزى. التلقائية زائد الفردية
تساوي: الخطر. تود من كل قلبها أن تساعد،
لكن لا يجوز لها أن تفعل شيئًا، إذا قُبض
عليها في عملية تلقائية، وإذا عُذبت، فستكون

خطرًا على المنظمة. لحظة... ترفع
رأسها... أليس حي البوت أو كاي
قريبًا من هنا؟ ما اسم هذا الشارع
إلى اليسار...؟ «شارع المولينيه»! الشارع الذي
تختبئ فيه، تحت أحد هذه السقوف، عائلة يهودية.
تتريث أنيت. قلبها يخفق بقوة،
وهي تحسب بسرعة فرصها، وتفكر في مخابئ،
ثم تتخلى عنها. تفكر في رولان. ثم تسير
بخطوات واثقة، وتطرق باب بيت الحارسة
ذات الاسم الواثق: «فيكتوريا»[١].
تصعد معها السلم، وخلال ذلك
تحدثها عمن يختبئ في الأعلى:
السيد ليزوبرافسكي، رجل فاضل،
أرمل، لديه ولد وبنت لم يعودا صغيرين،
حتى فترة قصيرة كان يدير مخبزًا
في شارع المولينيه، وهناك أيضًا الزوجة الشابة
للموظف المُرَحَّل الذي يعمل لديه. كلهم مختبئون
منذ أن حُطم المتجر قبل شهور.
ثم ينفتح الباب. يبدو الأب في عينَي أنيت
أكبر من عمر الآباء، والابن والابنة

(١) يعني الاسم اللاتيني «نصر» أو «انتصار». (المترجم).

أطول من أن يكونا في مرحلة الطفولة،
نعم، إنهما أطول من أنيت، مع أنهما أصغر بقليل منها،
هو ربما في الخامسة أو السادسة عشرة، وهي في السابعة عشرة.
الزوجة الشابة شاحبة، وتحمل رضيعًا على ذراعها،
حتى الآن لم يتحدث أحد عنه، وهو أيضًا
يجب أن يُنقذ. خمسة أشخاص! وهي وحدها،
أنيت، بوجهها الذي ما زال طفوليًّا،
عليها أن تتحمل مسؤولية هؤلاء البشر.
تقول للرجل: «من الأفضل لكم أن تأتوا معي،
أنتم هنا في خطر». ينظر إليها الأب مستريبًا: أعليه
فعلًا أن يثق بهذه البرعمة، ويعهد إليها
بأهله؟ تقف أنيت عند الباب وتحاول أن
تتطلع إليهم بتفاؤل، غير أن الرجل يبادلها
نظرات مستريبة، ولا يرد عليها. ويسأل
الحارسة عما إذا كانت تعرف هذه الفتاة.
فيكتوريا ـ التي تعرفت بها قبله بخمس دقائق ـ تقول:
«نعم». يتبادل الأب مع الصبي والصبية كلمات
بنبرة منفعلة، تفيض خوفًا،
لا تفهمها أنيت، كلمات باليديشية، تدور بالتأكيد
حول ما إذا كانوا سيذهبون معها،
ومَن سيتبعها. تبدو الزوجة الشابة بلا إرادة، تنقل نظرات
متسارعة بين الرجل الذي تثق به

وهذه الدخيلة، أنيت، التي يتأملها الفتى
بنظرات نافذة، خلال دقائق
اتخاذ القرار التي لا تريد أن تنتهي.
هو قطعًا يتساءل عن كنه هذه الفتاة الغريبة،
التي ظهرت من اللاشيء، وبلا سبب
أو لأنها إنسان فحسب، وهم أيضًا بشر،
تريد أن تنقذ الجميع. لا يثق
الأب بها، هكذا تظن حتى من دون أن تفهم
الكلمات، ولا تستطيع أن تلومه عندما
تتأمل نفسها بعينيه برهة. لا بد أنه يتساءل
كيف تريد الفتاة أن تؤوي كل هؤلاء.
حتى لو كانت تريد. وهي تريد. يحاول الأب
إقناع ابنه وابنته. يضم ابنته
إلى صدره. ويقول المرة تلو الأخرى: *simre*، *simre*،
لا يستطيع اتخاذ قرار، لكن: لا بد. في النهاية
يترك ابنته وابنه يذهبان معها، ويظل هو،
ومعه الزوجة الشابة مع وليدها.
أيظن ربما أن لفلذتي كبده فرصًا أفضل
في النجاة من دونه؟ من دون الزوجة الشابة
وطفلها؟ وهل كان بمقدوره أن يتركها وحدها،
وهي التي لم يعد لها أحد؟
أهي ربما أكثر من مجرد زوجة

موظفٍ معتقل، وربما حتى مقتول؟
هل هو طاعن في السن ومتعب إلى درجة أنه
لا يستطيع أن يتلمس طريقه في المدينة المحتلة
وهو يسير خائفًا ومرعوبًا خلف الفتاة الشابة،
لكي يختبئ، في مكان ما، في مأوى جديد مثير للشبهات؟
مضت فترة منذ أن انغلق الباب خلف الثلاثة،
وهو ما زال يقف، ويرغب في أن يبكي ويبكي ويبكي،
ونحن، نحن نقف في زمن بعيد، ونقف
ولا نجد جملة أو بيتًا شعريًّا
أو سطرًا يريد شيئًا آخر غير الوقوف معه
والبكاء.

يتخلف ثلاثة أشخاص في العلية،
ثلاثة آخرون في طريقهم لكي يختفوا تحت الأرض،
ونعني بذلك في الأنفاق الأرضية حيث
تسافر القطارات أيضًا. على سلم محطة تولبياك
يقع بصر أنيت على تلك النجمة الصفراء
التي تشبه قرص تصويب ساطعًا معلقًا على
معطف الفتاة، وينبغي نزعه على الفور.
لا الابنة ولا الابن ـ اسمها «سيمون»
وهو دانيال ـ يجرؤان على ذلك في البداية
ثم يفعلانها، يُنزع هذا الشيء بسرعة، ولا يركب الثلاثة

في تلك العربة الأخيرة التي أمرهم
النازيون الألمان بالركوب فيها.
الساعة الثامنة مساء. ينطلق المترو. يبدو
كل شيء على ما يرام، لكنه ليس كذلك في رأس أنيت
الذي يشهد صعود شكوك ومخاوف
تتضخم لتصبح انقباضًا هائلًا في الصدر. مَن
يخبرها بأن هذه الرسالة التي وصلت إليها عن
«الكبسة» الوشيكة رسالة صحيحة؟ مَن
يخبرها بأن الابنة والابن
لم يكونا في ذلك المخبأ في أمان، أكثر
أمانًا على كل حال منهما في عربة المترو؟ ماذا
لو أُلقي القبض عليهما بسبب إغاثتها المتهورة،
أو لقيا حتفيهما؟ في تلك اللحظة اخترق
الهواء الفاسد صفارات الإنذار، ووقف القطار،
وعبر مكبرات الصوت أُمر كل الركاب بالنزول،
والاختفاء من الشوارع في غضون ثلاثين دقيقة كحد أقصى.
لقد بدأت ساعة الحظر مبكرًا، وهو ما لم يكن متوقعًا.
توقف القطار عند محطة هافر-كومارتان، ومن هناك
يمكنهم بالكاد الوصول في نصف ساعة على الأقدام
إلى أطراف المدينة، لكن أمامهم المدة نفسها
حتى يصلوا إلى أنيير. التفكير برهة؛
كلَّا، لا وقت للتفكير الآن،

ولا اختيار أيضًا، عليهم الذهاب
وأن يكونوا تحت رحمة المصادفات؛ عليهم أن يخاطروا
بالوقوع في أيدي الألمان. لا تفكر في «الألمان»، وإن
فعلت، فلا تعنيهم حقًّا، إنها تستطيع التفرقة جيدًا
بين الجندي البائس الذي لم يسأله أحد عن رأيه،
ورجل سلاح «الإس إس». كما أن أسلاف ذلك الرجل،
الذي يتعلق به قلبها وكيانها كله، ألمان؛ فهل يجب أن يكونوا
شيئًا آخر لأن ألمانيا أخرى، عابرة، تريد ذلك؟ تود
أيضًا أن تسير الآن، وألا تفكر،
لكن الكلام سهل، ساعة الحظر قريبة
وأنيير بعيدة. أنيت ـ وهي نفسها ما زالت شبه طفلة ـ
تقود الصبية والصبي في الليل. يصلون
إلى بوابات باريس العتيقة العالية، *portes de Paris*
أو أيضًا حصونها *fortifications*، ولا يعرفون ما إذا
كانت هذه البوابات ستفتح لهم الطريق إلى المستقبل، أو
إلى الموت. الرياح تهب باردة في يناير
في تلك الأحياء الواقعة على أطراف المدينة، حيث
تقل المنازل وتتباعد، لكن الثلاثة يسيرون بسرعة،
بأسرع ما يستطيعون، وهكذا فإن البرد، على الأقل، لا يضايقهم.
يمرقون عبر ميادين خاوية، وشوارع خاوية، معتمة،
ثلاثة أشباح صامتة، أفكارهم تسير في اتجاه واحد، لكنهم
ليسوا على درجة اللياقة نفسها: أنيت لا تتعب سريعًا،

لأنها، بصفتها مناضلة سرية، تذرع المدينة على قدميها
منذ شهور من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق
إلى الغرب، في حين أن الصبية والصبي
ليسا بلياقة الصبيان، ولم يعودا متدربين
على الجري والقفز، فلا مكان
للقفز في المخبأ، ولا مكان أيضًا
للضحك والتعارك. ترسل أنيت إليهما
نظرات جانبية تحثهما على الإسراع، وتبحث
عن كلمات مشجعة تستنهض همتهما، لكنها
هي نفسها خائفة وقلقة، حتى إن كل الكلمات
تفر منها. هل كان حقًّا من مهامها أن
تختطف الفتاة والفتى، أن تنتزعهما
من أبيهما؟ يسرعون في الليل العنيد
الأسود، ينقلون أقدامهم بصعوبة
من دون أن يتقدموا، أو هكذا على الأقل
يبدو لهم الأمر. وفجأة ينشق الظلام الصامت
عن خيال، إنسان، يقترب على دراجة، بحيث يرونه
بوضوح؛ وإنْ لم يرَوا من هو،
فعلى الأقل ما هو. ألماني هو،
يسير بدراجته هنا، في الضاحية،
يتحرك ببديهية فائقة، ولا يبصرهم،
أو ربما يتعمد أن ينساهم على الفور. باطنيًّا تشكر

هذا الرجل، وتشكر الدراجة، وتفكر في أبيها
ثم في مارت الصغيرة، وتعرف
من دون أن تسألهما، أن بإمكانها أن تعهد
بالصبية والصبي إلى والديها، وهذا ما
يهبها الشجاعة مرة أخرى. لكن عليها بدايةً أن تصل
بكليهما إلى البروتاني! وصلوا إلى الانعطافة الكبيرة
التي يتهادى فيها نهر السين
خارجًا من العاصمة، وتفكر أنيت،
وهي ما زالت على الجسر، ما إذا كانت عاقلة،
وتسير وحدها في البداية، كي تتأكد من أن
الأجواء آمنة، ولكي تتناقش مع رولان
حول أفضل السبل التي ينبغي لها أن تسلكها.
ربما يراقبون المنزل. قريبًا جدًّا
تقع نقطة شرطة، تعج ـ مثل كل نقطة شرطة
في البلاد ـ بالجواسيس، والمكلفين
بشيء هو في الحقيقة تقديم المساعدة
في ارتكاب جرائم قتل،
لكنه يُسمى هناك «الشؤون اليهودية». بإمكانها
أن تأخذهما إلى تلك المقبرة المخصصة للكلاب،
حيث يستخدم رولان مقبرة قديمة للكلب فيديل
كمخبأ آمن. غير أنها تقرر:
لا. لن تتركهما وحدهما. المنزل هناك.

وهناك السلم. لا يتركون فرصة
للضباب البارد الذي يتصاعد من النهر
كي يدخل معهم. رولان موجود، وموافق
من دون توجيه أسئلة كثيرة. وفي مكان ما
على الجانب الآخر من البوابات العتيقة، تقريبًا على
الجانب الآخر من الحياة، سيذكر رجل ـ
فترة قصيرة، ساعات، أسابيع؟ ـ
سيمون ودانيال كأنهما ولداه العزيزان.

سيعيش الصغيران، يجب أن يعيشا. بمجرد وصولها
إلى أنيير، تفكر أنيت في الصغير الثالث، الرضيع،
الذي بقي في حضن أمه في شارع المولينيه.
تفكر في أنهم سيعتقلون اليوم كل المختبئين
في المنزل، أي الطفل أيضًا. وتفكر... نعم،
تفكر كذلك في طفل آخر، طفلها
الذي ما زال جنينًا ينام في رحمها.
إنه ممن يطلَق عليه «طفل الحب»
ويجب ألا يولد أبدًا، فالزمن الآن
ليس زمن أطفال، إنه زمن النضال،
هكذا يفكر رولان، وهكذا تفكر هي، أو تريد
أن تفكر هكذا، تريد أن تفكر
مثل رولان وتناضل، وهي تناضل أيضًا في مكان آخر،

تخوض نضالًا مع جسدها، وتقاوم
القرار المشترك. لكن القرار اتُّخِذ.
ربما يمكن مراجعته، لكن المراجعة
لم تعد تفيد، فلديها موعد
مع امرأة للتخلص من الجنين.
وإذا لم تفكر في ذلك، يفكر شيء ما نيابةً عنها
في تلك الأمسية، عندما تتشبث باكية بكتفَي رولان،
قائلة له إن ثمة رضيعًا أيضًا
ما زال في شارع المولينيه، وإنها لمحت
التردد في عينَي أمه. أكان عليها
أن تكون أكثر إلحاحًا ووضوحًا في عرض
مخاطر بقائهما؟ إنها تظن
أنها فعلت ما تستطيع.

الرضيع، المتروك، ما زال معلقًا
بخيط رفيع في عالم الأحياء في تلك الليلة
ولن يعرف ـ إلا بعد سنوات ـ شيئًا
عن هذا الخيط الذي نسجته أنيت
من رأسها إلى رأس رولان.
في الصباح التالي ينطلق رولان
ليحاول مرة أخرى في شارع المولينيه،
مَن يعرف، ربما لم يأتِ الملاحقون بعد،

وقد تكون هناك فرصة، على الأقل، لانتزاع الرضيع
وأمه المترددة من الخطر.
وينجح في ذلك، لحسن حظه يقابل
الجميع: والد دانيال وسيمون،
والأم الشابة وطفلها. أما زالت مترددة
أم أنها ستثق على الفور برولان
الذي ربما يتحدث لغتها الأم، وليس غريبًا تمامًا
بالنسبة إليها، وهي تعرف صديقته؟
على كل حال، بعد دقائق يسير الشاب،
والرضيع على ذراعه، في شارع المولينيه.
في الليلة التالية، وفي غبش الفجر،
يُعتقَل اللذان ظلّا وحدهما بالأعلى، تحت السقف،
والمصير: القتل.

لكن شيئًا قد حدث، ولن يستطيع أحد
أن ينتزعه منهم بالتعذيب أو بالقتل:
لأن الأم الشابة لم تقدر على الانفصال
عن طفلها في الأمسية الأولى، عندما
دخلت أنيت فجأة من الباب؛ ولأنها ضمته إلى صدرها
ولم تستطع الافتراق عنه، يذهب رولان إليهما
في الصباح التالي وهكذا يعرف والد دانيال وسيمون
أنهم نجحوا في عبور باريس،

وأن هناك أملًا لصغيريه. في أي شيء؟
في الرياح ربما والشمس، في البهجة والحزن،
والمطر، في كل ما سوف يُسلَب منه؛
الأحلام، والأفعال، والشغف، والألعاب ـ الحياة.

بعد دقائق يسير الشاب إذن
والطفل على ذراعه على امتداد
شارع المولينيه. يُحضره بدايةً إلى أنيير،
إلى أحضان أنيت التي تصبح له أمًّا
بضع ساعات، وشقيقة كبيرة.
لكن لا يمكن أن يبقى هناك، وهكذا يحمله
إلى أناس يعرفهم، ويعرف أنهم مشغولون
طيلة الوقت بمنح مأوى
للأطفال اليهود. يتم إنقاذه. في هذا اليوم
ينقذ رولان وأنيت طفلًا. ويفقدان
في اليوم ذاته طفلًا آخر،
طفلهما الذي لا يزال يسبح من دون وعي
في رحم الأم. فلكل شيء وقت حقًّا،
إنجاب الأطفال والمقاومة،
ولا يمكن الجمع بين كليهما في آنٍ واحد.
في يوم الإنقاذ هذا تحفر أنيت
في قلبها قبرًا للطفل. تترك ـ

هي التي لا تؤمن بإله أو ملاك -
حياته الصغيرة، وتكوينه الضئيل المقوس
لإحدى النساء اللائي يملأن السماء
بالملائكة[1].

يحدث هذا في الصباح. بعد الظهيرة، ما تكاد
تترك المرأةَ وتخرج من الباب، وبدلًا من أن تستريح
في البداية قليلًا، تأخذ أنيت قطارًا إلى البيت،
أي إلى بيت والديها اللذين سيوفران المأوى
فترةً لمن هما في حمايتها، سيمون ودانيال.
وحتى لا يراها أحد، لا تصل إلا
بعد حلول الظلام، وفي حالة أن أحدًا رآها مع ذلك،
أو تعرف عليها، فقد ارتدت احتياطًا معطف ممرضة،
لكن الاحتياطات كافة لا تفيد، إذا كان هناك،
مع كل ظروف تلك الفترة، وشاية أيضًا.
لا يلاحظ الموشَى بهم بدايةً شيئًا. ونعم،
صحيح، هي محققة، لا تردد ولا
شكوك في عيون الوالدين عندما تظهر
فجأة في الليل ثم تحتضنهما وتقبلهما.
في اليوم التالي يذهب والد أنيت معها

(١) المقصود النساء اللاتي يجهضن مَن لا ترغب في استمرار الحمل. (المترجم).

حتى يدبر في باريس الأوراق المزورة،
وتذاكر القطار المزورة. لليلة قصيرة
غابت أنيت، وفي هذه الليلة تحديدًا، في
الصباح الباكر، تصعد في أنيير فرقة
من رجال «الإس إس» السلم بخطى ثقيلة،
وحوش بأقدام كثيرة، تبحث عن فريسة جديدة
وتجدها. وبدءًا من الآن تحدث أشياء
قد نطلق عليها «العناية الإلهية»: كأن
أحدًا ـ لم يعد إنسان يؤمن به حقًّا ـ
قد دفع ذراع التحويلة قليلًا،
ليتحول المسار في الثانية الأخيرة الشهيرة.

حتى الآن كان المسار يقضي بأن يختبئ
أربعة أشخاص في الغرفة في أنيير:
دانيال وسيمون ورولان، وأنيت، لكنها
قضت، استثناءً، تلك الليلة في مكان آخر،
لدى والديها في دينان. كان ينبغي إذن،
أو من الممكن، القبض على هؤلاء الأربعة.
والآن يأتي التغيير البسيط في المسار: في اليوم السابق،
وغير بعيد عن الـ*planque* الخاصة بها، تصطدم أنيت
وهي تعدو بامرأة، مارسيل، جاءت من الناصية
مثل مجنونة، وأرادت في البداية

أن تواصل ركضها، ثم تعرفت على أنيت التي
قابلتها قبل عامين في مكان ما، فتحكي لها
مقطوعة الأنفاس عن الشرطة، الفرنسية، التي
أتت لتعتقل أباها، وتحكي عن أمها
وابنها الصغير اللذين يشاهدان ما يحدث
من حديقة الجار، وتحكي عن زوجها، برنار،
الذي لا بد أن يُحذره أحد في محطة مونبارناس
حتى لا يأتي إلى المنزل بالمؤونة التي
اصطحبها معه، وتحكي عن آلاف الأشياء الأخرى.
كانتا قد وصلتا إلى البيت، فمن الطبيعي -
طبيعي؟ - أن تستقبل أنيت لديها المرأة المُلاحَقة،
وفي اليوم التالي زوجها أيضًا، الذي تلقى تحذيرًا.
أي أنهم كانوا ستة أشخاص في الغرفة الصغيرة
حيث ينبغي ألا يعرف أحد شيئًا عن وجودهم. تريد
المصادفة، أو مَن حوَّل المسار، أن يكون عيد زواج
الأخيرين اللذين جاءا إلى المخبأ، العيد الرابع
في ذلك اليوم تحديدًا، عندما وقفت فرقة «الإس إس»
أمام الباب، ولم تكن أنيت هناك؛ وأن
رولان بهذه المناسبة قد استعار
مفتاحًا لغرفة تحتهم بطابق،
يستخدمها أحد زملائه لطبع
صحف ومنشورات ممنوعة.

وحتى لا يقتسم الزوجان الشابان الغرفة في تلك الليلة
مع ثلاثة آخرين، فقد ذهب رولان
مع الابنة والابن الكبيرين إلى الطابق السفلي.
وهناك يسمعون في الخامسة صباحًا رجال «الإس إس»
يصعدون الدرج في ضجيج، ويطرقون بعنف باب الغرفة
التي تعلوهم بطابق؛ لكنهم غير موجودين في تلك الليلة.
بدلًا منهم يجدون الزوجين في فراش الزوجية، فيعتقلونهما.
يستطيع الثلاثة بالأسفل ـ بالقفز من النافذة
على سطح دار سينما، ثم فوق هوة صغيرة ـ
أن ينقذوا أنفسهم في حديقة، حيث يختبئون ساعاتٍ
في كوخ صغير بها. «اخرجوا! اخرجوا!»، هكذا يسمعون
مَن يصرخ مِن المنزل. ليس على أجسادهم سوى
البيجامات. كيف يغادرون مخبأهم في كوخ الحديقة
من دون أن يلاحظهم أحد؟ على مسمار في الكوخ
معطف معلق، معطف صغير جدًّا
لا يناسب سوى الفتاة الصغيرة،
وأيضًا زوج من الأحذية على مقاس
رولان. تستطيع الفتاة بالأحرى أن ترتديهما معًا،
المعطف والحذاء، وهكذا يرسلها رولان وحدها، لتسير
على قدميها إلى صديقة في المدينة وتحضر شيئًا
يرتدونه. أحيانًا يحالف الحظ الناس.
الفتاة البالغة ثلاثة عشر عامًا تقطع المدينة،

وتعود بلفة من الملابس للثلاثة معًا.
المرأة التي تجَهز في دقائق ملابس ملائمة
لرجل ويافعين، هي نفسها التي تعرف كيف تنهي الحمل.
وهي أيضًا التي وفرت من قبل
معطف الممرضة لكي تتخفى أنيت؛
امرأة شابة، وحيدة، بلا طفل أو زوج ـ واحدة
من كثيرات، وإحدى القليلات ـ تساعد على الفور
حيثما تستطيع، واليوم، نسي الجميع اسمها.

الشيء الجنوني الذي لم يكن باستطاعة أحد أن يعرفه، هو أن
اللذين انضما إليهم، الزوجين الشابين
اللذين كانا يبحثان عن مأوى، ووجداه لدى أنيت،
قد تحولا، من دون أن يقصدا، إلى منقذين لمنقذيهما،
وذلك بوجودهما عبر تداخل ظروف كثيرة غريبة
في التوقيت الخطأ في المكان الخطأ.
الثلاثة في كوخ الحديقة يختفون عن الأنظار
في مخبأ آخر، هو أيضًا قدر محدود من الأمان.
أنيت تتلقى إنذارًا من رولان: يتصل بوالديها
ويغيِّر من صوته ويُفهمها أن عليها،
عند وصولها إلى باريس، ألا تذهب بأي حال من الأحوال
إلى أنيير، إلى البيت المراقَب الآن، ويخبرها
إلى أين عليها أن تذهب. يشفِّر أسماء كل الأماكن

والأشخاص تحسبًا لتنصت أحدهم
عليهما في التلفون، وحتى لا تقع أنيت
وجان ـ والدها الذي سيسافر معها
إلى باريس ليعتني بالأطفال المختبئين ـ
في المصيدة، ويستطيعا الذهاب إلى ملجأهما الجديد.
يعرف جان أين عليه أن يحصل على
أوراق مزورة وتذاكر إلى رِن، ومن بعده عليه
أن يرجع إلى دينان قبل أن تجهز الوثائق.
وهكذا يصعد دانيال وسيمون وحدهما إلى القطار، لكنهما
يعرفان تمامًا إلى أين عليهما التوجه في رِن؛
تحديدًا إلى مقهى خلف المحطة مباشرة، حيث
سيكونان في أمان، إذ إن والدي أنيت يعرفان أصحابه.
وهناك سيحضرهما بالسيارة والد أنيت،
هذه هي الخطة على كل حال، وهما يعثران أيضًا
على المكان، لكن جان غير موجود. في حجرة خلفية
يجلسان ساعاتٍ وينتظران، أصحاب
المقهى قلقون، أما هما فيشعران بكم هائل
من الخوف حتى لم يتبقَّ خوف لديهما.
إلى أن يأتي شخص لإحضارهما.
هذا الشخص هو مارت الصغيرة، التي سافرت بالقطار
لأنها لا تستطيع قيادة السيارة، ولأن الألمان
استدعوا جان بمجرد عودته من باريس.

عليه الحضور إلى مكان
يكفي اسمه لإدخال الرهبة إلى النفوس:
مقر القيادة. وهناك يُحتجز ويُسأل عن ابنته:
أين كانت، وماذا يعرف عنها،
ومتى سمع آخر مرة أخبارها؟
يبحثون عن أنيت، التي يعرفونها باسم
«ريموند»، ولا يعلمون أنهم اصطادوا
في شخص الأب، جان، سمكة
أكبر بكثير. إذ إن جان ـ وهذا ما لا يعلمه
أحد سوى ربما مارت الصغيرة، وإلى أن
اصطاده الألمان، كلّا، بل فترة أطول من ذلك،
حتى وفاته، فجان ليس من أولئك
الذين يفعلون ما يفعلونه كي يتفاخروا لاحقًا
بأفعالهم ـ ناشط في «المكتب المركزي للاستطلاع والعمليات»[١]،
وعمل في هذا الإطار لصالح المنظمة السرية «جاليا»
التي تجسست على الجيش الألماني لصالح لندن
ومقاتلات الحلفاء. هذا هو سبب عدم بقائه
في باريس كي ينتظر الصبية والصبي
والأوراق: لديه شيء من الصعب جدًّا الحصول عليه

(١) كان هذا المكتب هو جهاز استخبارات فرنسا الحرة في لندن من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٣. (المترجم).

في هذا الشتاء ١٩٤٣-١٩٤٤: تصريح بالمرور
إلى المنطقة المحظورة، *zone interdite*،
أي ذلك الشريط الساحلي العريض الممنوع
منعًا باتًّا دخوله، حتى على السكان المحليين.
تصريح المرور هذا لا يصلح إلا
من «الساعة كذا» إلى «الساعة كذا». لكن في ذلك اليوم،
«من الساعة كذا إلى الساعة كذا»، لن يستطلع شيئًا،
ولن يُحضر أيضًا الصبية والصبي.
بدلًا من ذلك يستجوبون جان ساعات
في فيلًّا «لا كاليتا» أو مقر القيادة
ليس ـ كما كان يُخشى ـ بسبب
نشاطه التجسسي، بل بسبب أنيت.
يقول: «آه، نعم، أنا نفسي أود أن أعلم
ما تفعل وأين تقيم! منذ فترة طويلة
لم يصل إلينا خبر عن الابنة التي في المعتاد
تكتب دائمًا، وتتصل أحيانًا بالتلفون. إننا
نشعر بالقلق!». سمع الألمان آخرين يتحدثون هكذا،
ولا يصدقون كلمة مما يقول، ويستخدمون وسائلهم المعهودة
لإدخال الخوف إلى قلبه. لكنه يظل هادئًا. ويظهر بمظهر
البروتوني الشجاع الصادق، وهو في الحقيقة كذلك. الألمان ـ
أي هذه الحفنة القليلة التي تتاح لها الفرصة
لكي تتباهى بنفسها ـ يصدقونه في الختام.

أو ربما لا يصدقونه، لكنهم يطلقون
سراحه. وعلى كل حال سوف يبقونه
تحت المراقبة.

لم يكن الوضع مثاليًّا لتوفير المخبأ
ليهوديَّين صغيرَين. لكنهم يفعلون ذلك.
وربما يفكرون: في أوضاع مثالية لن تظهر
حاجة إلى إخفاء أحد. ينتظرون بضعة أيام،
وعندما تهدأ الأجواء، أو يقل الحذر،
يحضرون الصبية والصبي من عند الفلاحين،
حيث أودعتهما مارت الصغيرة مؤقتًا. سيمون
أصبحت من اليوم قريبة لهم من الشمال،
وتساعد في «مقهى الرياضة» الذي يديره
جان مع مارت الصغيرة. الوضع مع الكبير،
دانيال، أكثر خطورة، يخبئونه في حجرة تحت السقف،
ولا يُسمح له بالخروج بين الحين والآخر من المنزل
إلا في الفجر. بالطبع هم بحاجة إلى الحظ. لكنْ هناك شيء آخر:
ça sent déjà la fin، بمقدور المرء أن يشم رائحة نهاية
السيادة الألمانية شيئًا فشيئًا. كلما اقترب زحف الحلفاء،
تقلص عدد العملاء والواشين، وزاد عدد
الـ*résistants de la dernière heure*
أي أولئك الذين يريدون الانضمام إليهم،

حيث لم يعد الأمر بحاجة إلى شجاعة أو قناعة،
أو ربما قناعة أنهم سيكونون قريبًا في وضع خطير،
إذا لم يغيروا المسار بسرعة. لا أحد من الجيران
يشي بدانيال وسيمون. يستطيع
دانيال في مخبئه تعلم دروسه المدرسية
بفضل الناظر الذي تربطه صداقة مع جان،
والذي يوفر له الكتب والجدول الدراسي.

هذه هي دينان، وهذا هو جان مع مارت الصغيرة،
وهذان هما دانيال وسيمون. لكن ماذا يحدث في هذه الأيام
في باريس لرولان وأنيت؟ هما في الحزب
الذي يتسم بصرامة لا تلين. وهما لا ينالان
مديحًا، ناهيك عن مكافأة لشجاعتهما،
بل يعاقَبان ويُنقلان نقلًا إجباريًّا إذا جاز القول. لقد
أنقذا نفسيهما، وعرَّضا آخرين للخطر. استعدادهما
للتضحية، من هذا المنظور، ليس سوى مقاومة للمقاومة،
ومقاومة لنظامها الصارم. يرسَلان إلى ليون
حيث سيعطيهما فلان (اسم مستعار) إرشادات أخرى،
لكن فلانًا لا يظهر في ليون في المكان المحدد
ولا حتى في اليوم التالي فيما يُسمى
rendez-vous de repêchage،
الفرصة التالية أو الموعد التالي،

المحدد دائمًا ـ وهناك حتى
الموعد الثالث والرابع ـ في الحالة التي ليس من النادر أن تحدث
عندما يأتي شخص بعد فوات الأوان أو لا يستطيع المجيء.
في اليوم الثالث على أقصى تقدير يكون واضحًا: لن
يجيء أحد بعد ذلك. تخلى عنا الباريسيون. والآن؟
والآن قد يسأل كل منهما نفسه ما إذا
كانا قد قاوما بما فيه الكفاية. لكنهما لا يطرحان السؤال.
صلتهما الوحيدة بليون هي فلان
الذي ربما لا وجود له مطلقًا، غير أن رولان
يعرف في كليرمون–فيران شخصًا آخر
في المقاومة. ينطلق إلى هناك ـ كليرمون
على بعد ١٦٠ كيلومترًا ـ ويعثر عليه.
يتصل الشاب بمنظمة سرية تُدعى
Jeunes Laïcs Combattants،
وهي منظمة شبابية من دائرة أنصار ديجول.
هناك يمكن أن يحتاجوا إلى كليهما، على أن يكون أحدهما
في ليون والآخر في كليرمون–فيران. ينفصلان. كيف
ستسير الأمور؟ تسير. هل لدى كليهما شيء
أهم من الحب؟ لا يفكران هكذا في تلك اللحظات،
لكنهما يتصرفان هكذا، ولذا تسير الأمور.
ينفصلان في ليون، في حديقة «لا تيت دور» العامة
تحت شجرة من فصيلة *charme*،

شجرة زان، واسمها اللاتيني «كارمينوس»،
ربما ليس مشتقًّا من «كارمن»، لكنه
يعني أيضًا السحر والفتنة. يرى كل منهما الآخر
للمرة الأخيرة تحت هذه الشجرة. من يهتم بالجذور،
يستطيع أن يعرف بسهولة أن بين الجذور المتنوعة
الموجودة في الطبيعة، المقطع العرضي
لجذور شجرة الزان يشبه القلب، ولذا
تُسمى أيضًا «جذور القلب».

عندما ينفصلان، لا يظنان أنه انفصال أبدي،
ومَن يظن ذلك؟ صحيح أنهما
يعرفان جيدًا خطورة ما يفعلانه.
يعيشان مع الخوف مثل مروِّض الحيوانات في السيرك،
الذي يعيش كل يوم مع قطة شرسة، أو لنقل
مع نمر يعرفه جيدًا، وتظل عيناه دائمًا عليه.
كل منهما يتميز بالمهارة،
والحظ حليفهما ـ أو كان كذلك حتى الآن.

في مطلع صيف ١٩٤٤، قبل أن تغادر
القوات الألمانية كليرمون بشهرين،
يُلقى القبض على راينر يورستال، واسمه المستعار «رولان»،
في ميدان دوليل. في اليوم التالي ينجح

في الهرب، لكنهم يقبضون عليه
مع اثنين آخرين ينتميان، مثله، إلى
الـ*Francs-Tireurs et Partisans français*
على الهضاب البركانية في محيط
كليرمون، في نجع اسمه «سرفيير».
أحد الرعاة ـ قد يظن المرء
أنه رجل التأمل السلمي ـ رأى الهاربين الثلاثة
عندما غادروا الكوخ في الغابة، حيث اختبأوا
في طريقهم إلى مناضلي المقاومة الفرنسية. الراعي،
وهو ليس راعيًا روحيًّا للبشر، يخبر فلاحًا من جيرانه بالأمر،
شخصًا اسمه «م.» فيستدعي الأخير كل
أفراد عائلته الرجال. يأتون مسلحين
بالبنادق والعصي. يضربون الغرباء الثلاثة
ويعذبونهم، شاعرين بالرضا لأنهم استطاعوا
مرة الانغماس في وحشيتهم من دون عقاب، وعندما
يحاول أحد «البارتيزان» أو المقاومين الشبان، بول بيركيز، الهرب،
يحطم ابن الفلاح «م.» مفصل ذراعه برصاصة.
«البارتيزان» الثالث يُدعى «ريمون نيكولا ستورا».
عمدة بلدية أورسيفال، حيث هم،
يحاول من دون جدوى تهدئة آل «م.» الدمويين،
لكن الأشياء هنا، مثلما هي في أماكن أخرى، في يد
الميليشيا التي تعمل بحماسة في خدمة الألمان. من دون جدوى

يحتج العمدة. لكننا نريد على الأقل في هذا الموضع،
لأننا نستطيع أن نستوقف سير الأشياء، ونحن نوجه
أبصارنا عليها من زمننا البعيد الآخر، أن ننطق
بأسمائهم، بلا صوت، في فضاء الأبدية الرحب:
«بول بيركيز». «ريمون ستورا». «راينر يورستال».

اتسم آل «م.» بالشحوب والتفاهة، حتى إن التاريخ ـ
سواء تاريخنا أو التاريخ الكبير أيضًا ـ
لم يحتفظ من ذكراهم إلا بحرف الميم (من: «الميليشيا الفرنسية»).
ينقل آل «م.» أسراهم عدة كيلومترات
إلى مكان قفر، حيث يقتلونهم برصاصة في الرقبة،
وبعد ذلك يهيلون عليهم التراب بالقرب من بحيرة
تقع اليوم في حيازة شركة «ميشلان» التي تدير
هناك حق صيد الأسماك للعاملين لديها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في العام ذاته، ١٩٤٤ ـ وقد فرَّ الألمان ـ
يُخرجون مرة أخرى الجثمانَ المشوه
لراينر يورستال، واسمه المستعار «رولان»، ثم
يدفنونه في المدافن الباردة في سوزيه لو فروا،
على مرتفع، يقع بين سلسلة الجبال البركانية وصخور مون دور،
وهذه المرة على نحو احتفالي، أو رسمي على كل حال.
وبعد سنوات يحفرون قبره ويدفنون ثانيةً

ما تبقى من ذلك الكيان النحيل الجذاب،
تلك الغلالة البائسة التي لم تعد تغطي شيئًا. لا يجد مستقره
الأخير إلا في عام ١٩٤٩ في المربع العسكري
من مقابر سانتوان، تلك الضاحية الباريسية حيث كان،
قبل فترة ليست بالطويلة، تلميذًا في مدرسة «جان جوريس».
تمنحه وزارة المحاربين القدماء لاحقًا
رتبة نقيب، نقيب مات من أجل الوطن، ويبدو أنهم نسَوا
أن الوسام الوحيد الذي منحه إياه الوطن،
حتى تلك الساعة، كان نجمة صفراء؛ وأن هذا الوطن سلبه
كل الحقوق، ولاحقه سنواتٍ بهدف
ترحيله إلى معسكر انتقالي، إلى أن تنقله
قطارات الوطن إلى الشرق، إلى الموت.
Mort pour la France?
مات من أجل الوطن؟ ألم يمت رولان
بالأحرى من أجل بلد أكبر لا يشبه بلده إلا قليلًا جدًّا،
بلد كبير وبعيد جدًّا ليس اسمه «فرنسا» بل، مثلًا، «الأخوة»؟

بعد أن انسحبت القوات الألمانية، يحاكَم
أعضاء عائلة «م.» الذين شاركوا في الضرب والقتل.
ويصدر الحكم: الموت بالمقصلة؛ لكن الحكم لا ينفَّذ،
بل يحوَّل إلى عقوبة بالسجن، مع الأشغال الشاقة
في البداية، وحتى إلغائها بدءًا من ١٩٦٠.

ربما ـ على الأرجح ـ يُخلى سبيلهم
قبل انقضاء المدة؛ على الأقل من هذا الكتاب،
إذ لا يوجد حبر طباعة أسود يكفي
لإعطاء انطباع عن سواد أرواحهم.

أنيت وحدها في ليون. رحلَ رولان. ومن والديها
كانت تحصل على رسائل أحيانًا
على نحو غير مباشر، لكن ذلك انتهى الآن.
وكما تريد المقاومة، وكما يفرض الحذر أيضًا،
فقد قطعت نهائيًّا كل الجسور التي تربطها بالماضي
وبالمستقبل. التعليمات تقول إن عليها
الانعزال. يجب أن تكون خرساء مثل سمكة صغيرة
في تيار المقاومة الكبير ـ وهي بالفعل كذلك ـ وألا
يكون لها مطلقًا معارف، ناهيك عن أشخاص مقربين. وإذا
حاول أحدهم الحديث معها، أو سألها شيئًا، فإنها بأدب
تعطي إجابة مراوغة، وتبدو مشغولة، ثم تنسحب.
لا تعرف من القلائل الذين تختلط بهم،
سوى منظرهم والاسم المستعار؛
وممنوع أن تتبادل معهم شيئًا آخر
سوى بعض المعلومات المفيدة. وهكذا
تنزلق أكثر فأكثر في وحدتها، بعيدًا عن المجتمع
الذي بسببه ابتعدت عن دراستها وأصدقائها

وأقاربها، وانفصلت، أو كانت على استعداد
لأن تنفصل عن حبيبها، وحتى عن حياتها.
وفي حين أنها تتظاهر بأنها مثل باقي البشر،
أي أنها ترتدي ملابسها كل صباح وتغادر البيت،
أو بالأحرى البيوت التي تسكن فيها، مرة
بهذا الاسم، ومرة بذاك، لتعود في المساء
وكأنها عائدة من العمل، في حين أنها إذن تتظاهر
بأنها كائن اجتماعي، كانت تعيش بمفردها، وحيدة
كأنها على القمر، وهي بعد في سنواتها العشرين.
ومثل أوديسيوس الذي مات رفقاؤه خلال الرحلة الطويلة
واحدًا في إثر الآخر، فقد انفصلت عن أصلها وتاريخها:
من بين أولئك الذين تقاطعت طرقهم في تلك الأيام معها
لا أحد يعرف اسمها الحقيقي، ماضيها ـ
لا تكاد هي نفسها تتذكرهما. تسكن
ظلها. ومثل أوديسيوس بمقدورها،
إذا سُئلت عن اسمها، أن تقول: «اسمي لا أحد»،
ليس فقط بدافع من الدهاء، بل لأن ذلك يطابق الحقيقة.

تسير في شوارع ليون وكأن أحدًا يحركها عن بعد،
من دون أن تعرف ما فائدة الخدمات التي تقدمها. كعسكري
صغير على الرقعة الكبيرة لشطرنج المقاومة الوطنية
تحصل على تعليمات مَصوغة عن عمد على نحو

يجعلها لا تُدرك، في كثير من الأحيان،
لماذا تفعل هذا أو ذاك. تتخلى عن
إرادتها الحرة، على الأقل إلى أن تتولى
مسؤولية قيادة بضعة عساكر لا إرادة لهم.
ماذا تفعل؟ ماذا يدفعها إلى ذلك؟ لماذا
تخلت، بين عشية وضحاها،
عن حياتها الخاصة؛ الحياة الوحيدة
التي كانت تعيشها ذات يوم، تخلت عنها
قبل أن تبدأ حقًّا؟ هل تعرف هي نفسها ذلك؟ هل يعرف
المرء في النهاية لماذا يفعل شيئًا؟ بالطبع لا تنقصها
الأسباب: من يحب أن يقبل طغيان
الألمان، لا سيما إذا لم يكن ألمانيًّا؟
ضد القمع، من أجل العدالة، ضد
السيادة الأجنبية: ألا يكفي هذا سببًا للنضال؟
يكفي جدًّا، لكنه لم يعد، منذ فترة طويلة،
السبب الوحيد، أم أنه كذلك؟
قد تكون، هي المناضلة في الظل، مقتنعة
بما تريده من الحياة. إذا كان الأمر
مثلما يفكر البعض أننا، أمام ذواتنا
وأمام الآخرين، نؤدي دورًا، فهي تؤدي دورًا
مكتوبًا لها، ولذا فهو لا يكاد يكون دورًا،
أو إذا كان كذلك، فهو دورها الخاص. وهناك

شيء ثالث؛ كل شيء في حياتها الجديدة
معكوس: ما كان سيئًا في الماضي ـ الكذب،
التجسس، السرقة ـ أصبح الآن جيدًا، لا لشيء
سوى لأن الغاية التي ينشدها المرء جيدة. وعمومًا
فإن الغاية تميل إلى التباهي، وإلى إلحاق الضرر بالوسيلة.
تحيا أنيت في خوف وحماسة، في عالم
من الأدغال المجهولة، حيث يتربص بها في كل مكان
مفترسون ومخاطر، وهي لا تعتمد سوى على نفسها.
إنها جاذبية غير المتوقع. الغريب هو أن
حياة المغامرات الموازية هذه
لا تعني معظم الوقت سوى الانتظار، والسفر ساعاتٍ
في قطارات مكتظة سيئة التهوية، والتجول أو قيادة الدراجة
مئات الكيلومترات، والجوع والملل.
ليالٍ في حجرات بائسة بلا تدفئة. فإذا كانت
حفنة من المقاومين، بالمال الذي يأتي من لندن،
تحب أن تمثل دور المترفين الذين يعيشون على حافة البركان،
فإن أغلبية المقاومين يعيشون على الكفاف.
وهكذا أيضًا أنيت، التي لا يعرفها أحد، والتي تُدعى «لا أحد»،
ولا تكاد تكون في تلك الأيام شخصًا محددًا.

كل شيء يزداد تعقيدًا في ليون. حركات
المقاومة على اختلافها تفكر كلها فيما بعد،

فيما سيحدث بعد التحرير، وتتخذ إجراءات
حتى تستطيع أن تفرض نفسها بشكل أفضل في الفوضى
التي بدأت ترتسم في الأفق. أخيرًا تقابل أنيت
أحد رجال الاتصال بالحزب، وهو يعمل
رسميًّا مع الديجوليين، وتحديدًا في
«حركات المقاومة الموحدة»، وبذا في رابطة
تُدعى «حركة التحرير القومي»
التي تنتمي إلى منظمات «القتال»،
و«القناص» و«الجنوب-التحرير»، أي
إلى المنظمات الكبيرة غير الشيوعية للمقاومة
في منطقة الجنوب. كما قلنا: الوضع معقد.
رجل الاتصال الذي تعرفه أنيت شيوعي. ماذا
يفعل هذا الشيوعي في مكان
ليس مكانه؟ إنه يتجسس. ويجنِّد
أنيت جاسوسةً، مع أنه لا أحد يتحدث
عن الجاسوسية، بل يقولون: «غواصة». تعتقد
أن الحزب يؤدي عملًا جيدًا، وتفعل هي
ما يُطلب منها. سيان. أليست المقاومة
هي المهمة؟ وهي تقاوم. يرسلونها إلى
رجل من الحزب يُدعى «بورت». عليها أن تجتاز
هذه البوابة الضيقة، فهي تريد من جديد أن تكسب ود
المنظمة بعد أن تجاوزت القواعد الأساسية للحذر.

تفعل ذلك بلا مسرة، لكنها تفعل. تكليفها هو
أن تكون ممثلة لرابطتها في الحركة الشبابية
«القوة المتحدة للشباب الوطنيين»، وأن
تصعد سلم الترقي هناك بقدر الإمكان. من دون أن يعرفها أحد،
كما يحدث في أفضل الأحوال مع الغواصات، عليها
أن تسايرهم، وأن تفتح عينيها، وفي الاجتماعات
عليها أن تصوت دائمًا، لتقوية مركز الحزب،
مثل الشيوعي الرسمي الموجود
هناك أيضًا. وهكذا تؤيد كل الاقتراحات
التي يقدمها ممثل «الجبهة الوطنية»
التي لم تكن آنذاك فضيحة يمينية متطرفة، بل
اسم حركة من حركات المقاومة الشيوعية.
يبدو كل هذا غريبًا بعض الشيء، وهو أيضًا كذلك،
لكن الغرابة تقل ربما عندما يلاحظ المرء
أن الأمر لا يدور حول السلطة فحسب، بل
حول نضال تؤيده هي:
كيف سيبدو البلد عندما يحكم الفرنسيون
قريبًا أنفسهم مرة أخرى؟ يناضلون
من أجل مستقبل ينبغي أن يكون زاهرًا وعادلًا بقدر الإمكان،
من أجل مستقبل يخلو من النازيين، ليس هذا فحسب
بل أيضًا من دون رأس مال أو «عمل ميت»،
مثلما يطلق عليه ماركس. اسمها «لا أحد»، لكنْ لديها

هدف، وهذا الهدف ليس إلا ـ مَن يتعجب من ذلك؟ ـ
مكانًا غير موجود، وإذا كان موجودًا، فبوصفه هدفًا
فقط: يوتوبيا، مثال سامٍ. في طريقها
إلى اللامكان هذا تتساءل أحيانًا، ما إذا كانت
في رحلتها مساعدة لـ«البارتيزان» الشيوعي
أو أنها بالأحرى تاجر متجول لبيع
بضائع شارل ديجول. الديجوليون هم الذين
يدفعون أجرتها، وهو ما تلاحظه لأنها
تحصل على نقود أكثر مما حصلت عليه يومًا
من الشيوعيين، مبلغ متواضع، صحيح،
لكن من غيره لا تستطيع «موظفة بدوام كامل» مثلها
أن تعيش؛ على كل حال فالنقود أكثر
بشكل واضح عن ذي قبل. إيمانها بالقضية العادلة
يصل بها إلى حد دفع فارق المبلغ إلى الحزب
وهكذا يدعم ديجول ـ على الأقل في هذه الحالة ـ
الشيوعيين من دون علمه.

من واجباتها أن تحافظ على الصلة مع
منطقة «الماكي»، أي المناطق الجبلية
الوعرة، حيث يعيش «البارتيزان»
حياة عادية تمامًا، حين لا يكونون في مهمة،
حياة تبدو لها، مقارنة بحياتها،

عادية جدًّا وحافلة بالأُنس. الأحداث كثيرة
في هذه الجبال، لا سيما أن صفوف الوافدين
عن قناعة حقيقية ينضم إليها منذ عام
أولئك الهاربون أساسًا من أعمال السُّخرة
في ألمانيا. يجب إطعام كل هؤلاء الرجال.
ولأن أشياء أخرى أيضًا تنقص «البارتيزان»،
أشياء يملكها خصومهم بوفرة أحيانًا،
تتجه أنيت، عَرَضًا، إلى السطو والسرقة،
مثلما حدث في تلك الليلة في ليون
عندما كانت برفقة رجل من رومانيا،
أو بلغاريا، اسمه المستعار «ميلو»،
ويعني: «ذو الشعر المنفوش»،
واقتحمت مخزنًا، ليس بعيدًا عن
محطة السكك الحديدية، يخزن فيه العملاء الشبان
أكداسًا من أحذية الجبال. لا يمكنهما دخول
المحل إلا إذا كان أتباع الجنرال بيتان هناك،
هذه هي الصعوبة. لدى ميلو هراوة
ليستخدمها إن رآهما أحد، لكن
كلَّا: يُقفل الباب عليهما من دون أن يلاحظهما أحد.
حفظا المكان جيدًا من قبل، كأنهما
جاءا لسرقة بنك؛ يضيئان الطريق
حتى الدرج حيث يُحفَظ المفتاح الاحتياطي. عليهما

عندئذ أن ينتظرا اتصالًا تلفونيًّا يعطيهما
الإشارة في قلب الليل بأن أتباعهم
ينتظرون خارجًا، وبأن عليهما أن يفتحا الباب. الليل
طويل، ويزداد طولًا، لا سيما أن هناك أصواتًا
غريبة، وعندما رن الجرس أخيرًا، وعندما أرادا
أن يفتحا الطريق، اتضح لهما أن أحدًا آخر
لا بد أن يكون في المكان، وأن هذا «الأحد»
ليس قطة. وإنما؟
بائس مسكين اختبأ مثلهما
ويريد، مثلهما، أن يخفف من حمولة
أتباع الجنرال بيتان من الأحذية، مع أنه
ينتمي إليهم ـ ولكن من غير اقتناع. لا يفعل ذلك
لمنحها لآخرين، بل كي يحولها إلى نقود.
في سن العشرين تأسر أنيت إذن، بالاشتراك مع ميلو،
شخصًا، لأول مرة في حياتها، ومنه يعرفان
بوجود مخزن آخر، وهناك لن يظفرا
بأحذية، بل بأغطية ثقيلة. كان ذلك درسًا
بالنسبة إلى المقبوض عليه، ولأن معلميه
طيبون، فقد أصبح البائس المسكين
على الأرجح «بطلًا كبيرًا
من أبطال المقاومة» (على حد قول أنيت).

وهكذا تُنفذ مئات من العمليات الصغيرة والكبيرة.
لكن أنيت تقضي معظم الوقت في الشوارع،
أو السكك الحديدية، أو الطرق، سيرًا على الأقدام،
أو في الباصات أو القطارات.
وكأن المقاومة كلها لم تكن بالنسبة إلى أمثالها،
أي بالنسبة إلى التروس الكثيرة الصغيرة
في ماكينة الاحتلال، سوى رحلة واحدة، طويلة ومنهكة،
وهكذا نصل مرة أخرى إلى أوديسيوس.
تجوب الجنوب بأكمله، وفي كل الاتجاهات،
مثلما جابت من قبل باريس كلها والبروتاني.
في محطة القطارات في فالانس انتظرت ساعات
قطارًا إلى ليون، وعندما جاء أخيرًا، لم يكن به
سوى مسافرين ألمان وعربة بها عملاء.
تجمدت خوفًا من الموت، لكنها في النهاية سافرت معهم،
بعد أن كاد ملاحظ المحطة يدفعها دفعًا
هامسًا في أذنها أن هذا هو القطار الأخير على هذا الخط
ليومين على الأقل، لأنه سيخرج عن القضبان بعد ليون.
وقد أخبر الملاحظ السادة ـ بالطبع
ليس أن القطار سيخرج عن القضبان، بل
أن الفتاة تريد السفر إلى ليون حيث
«ستقضي فترة تدريب» كما قال.
تجلس في هذا القطار مثل فأر

في جحر الأفاعي، حيث ترتدي الأفاعي
قبعات من اللباد ومعاطف من الجلد. يبادرها
أحد الثعابين بالكلام، وهكذا تجد نفسها مجبرة على
تجاذب أطراف الحديث معه. متى تأتي ليون أخيرًا؟
هل سيعوقها أحد عن النزول؟ تنتابها حمى
من الخوف، وكأنها في الجحيم. بأصابع ملتهبة
تمسك بيد الأفعى الباردة التي يمدها
الألماني، لمساعدتها في النزول من القطار الذي
سيخرج عن القضبان، حسب الخطة،
بعد نحو ثلاثين كيلومترًا، بعد فيلفرانش بقليل.
مثل هذه العمليات وأشباهها تُسمى: «معركة القضبان»، أو
la bataille du rail. (في الوقت ذاته تنقل
السكك الحديدية الفرنسية المرَحَّلين، من دون عوائق،
في عربات الماشية في اتجاه الشرق).

تتعجب. تسري، في حياتها الجديدة
«غواصةً» عند الديجوليين، قواعدُ أهون بكثير
مما لدى الشيوعيين حيث لا يعرف المقاوم
سوى اثنين آخرين، وبأسماء
مستعارة. الآن يبدو الأمر مختلفًا: في أماكن أخرى
لا يضع المرء نفسه في الهرم المألوف.
النظام الصارم ـ الذي لا تخضع له دائمًا ـ

له بالطبع فوائده: المرء يشعر
بأمان أكبر على حياته. أما الآن فإن عشرة أفراد
يجتمعون أحيانًا، وهو ما تجده بعيدًا تمامًا عن الحذر،
كأنها قد انتقلت من الماركسيين إلى
الطائشين. ذات مرة يطلبون منها ومن سبعة آخرين
الحضور إلى شقة في ميدان بوفيه دو شافان
في ليون. عليهم أن يصلوا إلى هناك
في أوقات مختلفة، وأن يسير دائمًا
كل شخصين معًا، ولا يعرف العنوان الصحيح
إلا أربعة من ثمانية، وهو ما يبدو لها
الحد الأدنى من التدابير الاحترازية. عندما تصل
مع شاب، كان عليها أن ترافقه، إلى هذا الميدان
النائم في قيظ الظهيرة، يثير ريبتها
هناك، على مقعد ظليل، قارئو صحف،
لا سيما أنهم لا ينظرون إلى صحفهم
بقدر نظرهم إلى الباب الذي تريد أنيت ومرافقها
الاختفاء خلفه، وعمومًا فهم يظهرون
بمظهر يختلف تمامًا عن الرجال المسنين الذين
يستريحون في وسط النهار على مقاعد ظليلة.
بسبب قارئي الصحف هؤلاء تفضل أن تدير ظهرها
للمكان المتفق عليه. مع الشاب الذي تسحبه خلفها
تتجول في الأزقة المجاورة كي تُحذر،

إذا استطاعت، أولئك الذين ربما
يصلون بعدها إلى مكان اللقاء. لا تجد أحدًا.
ثم ترى اثنين آخرين، توجسا خيفة هما أيضًا
وقررا البقاء بعيدًا عن المكان.
يعتقل قارئو الصحف الأربعة الآخرين،
المجتمعين في الشقة بالأعلى. أحدهم يموت
تحت التعذيب في السجن الألماني في ليون،
«سجن مونلوك»، حيث حُبس من قبله مارك بلوخ
وجان مولين، وكثيرون آخرون.

تقطف أنيت المشمش. قد يسير كل شيء سيرًا حسنًا.
وقد لا يسير. الموت. التعذيب. المشمش. وبينها:
لا شيء. شَعرة أقل من اليقظة والحظ،
وستكون أنيت الآن في مونلوك أو في مكان آخر،
لتلاقي التعذيب والموت. بدلًا من ذلك يرسلونها
«إلى الخُضرة»، تقع العبارة على الأذن
كأنها ذاهبة إلى مصيف،
وبالمقارنة مع عملها في ليون فالأمر
تقريبًا كذلك. في الوقت نفسه يفحصون
في الجهة المسؤولة ما إذا كانت
لها علاقة بالاعتقالات. فللوهلة الأولى
يبدو الأمر مريبًا، عندما لا يظهر شخص

في الموعد المتفق عليه، الذي يتحول
إلى عملية اعتقال. في يونيو ١٩٤٤ ترسَل
أنيت إذن إلى منطقة البروفانس. كانت هي تقطف المشمش،
في حين يقضي أربعة آخرون وقتهم في زنازين مونلوك،
وفي حين يجتاح الحلفاء النورماندي
وتقتل وحدات من فرقة «الرايخ» المدرعة،
التابعة إلى سلاح «الإس إس»، ٦٤٢ إنسانًا
في قرية أورادور-سور-جلان.
يزدهر الخُزامى، وتتأرجح حبات الكرز
المكتنزة بلونها الأحمر القاني على
غصونها الصغيرة. كل هذا يحدث في الوقت ذاته
وفي العالم نفسه، بمقدور المرء أن يعرف ذلك، نعم،
المرء يعرف ذلك، لكن من دون علم،
فكل حقيقة بعيدة هي غير مؤكدة، وكالحلم
لا يمكن إدراكها. لا تسفر التحقيقات عن شيء.
بعد عدة أيام تنتهي إقامة عمل
أنيت في ملكوت سماوات المشمش؛ يأتي رسول
حاملًا إرشادات جديدة،
وتذكرة قطار إلى مارسيليا.

شيئًا فشيئًا جابت ربوع البلد كله،
والآن وصلت إلى الجانب الآخر.

ولدت على ساحل الأطلسي، أو
إذا أردنا الدقة، ساحل المانش، والآن لأول مرة
ترى بعينيها الزرقاوين الجديدتين
البحر المتوسط القديم، الأزرق زرقة لانهائية،
أو على الأقل كانت ستراه، لو لم تكن المدينة
في هذا المساء مشبعة بالمطر كأنها البروتاني.
عندما تخرج أنيت من المحطة، تجد أن الليل «هبط» فجأة،
كما هو معتاد في فرنسا. يعج المكان
بجنود الميليشيات المقيتين الذين يستهلكون طموحهم كله
في أن يتفوقوا بقدر الإمكان على رجال «الإس إس» و«الجستابو».
من الصعب العثور على محل مستلزمات الحِدادة
حيث ينبغي لها، تبعًا للتعليمات، أن تقابل
رجلًا بمعطف رمادي. وعندما تعثر على الرجل أخيرًا،
وبصعوبة، لا تفهمه إلا بصعوبة أكبر، لأنه يتحدث بلغة
غامضة صاخبة لا تُستخدم إلا في مارسيليا،
تشبه حديدًا ساخنًا بفعل الشمس. ومرة أخرى:
حجرة جديدة. اسم جديد. شوارع جديدة.
وهذه المرة أيضًا: لغة جديدة. بحر جديد.
وحيوانات صغيرة جديدة مجهولة، هي في حقيقة الأمر
بَقٌّ قارص. في الباحة مصنع صابون.
حرارة. أغسطس. عفونة. البحر المتوسط
شقيقة جميلة، مبهرجة، للبحر الآخر الذي تعرفه.

مارسيليا! هنا ستنتهي الحرب ـ حربها ـ
هنا لن تعود أخيرًا «لا أحد». وهنا
ستعرف فور وصولها، عبر امرأة شقراء
طويلة ولطيفة، بموت رولان. وهذا الموت،
وهذا الحب، سيحتاجان إلى عقود، أكثر من
سبعة، حتى يتغلغلا تمامًا في وعيها،
ويستقرا هناك كحب عظيم
سيغرق في وقت ما في سُبات طفل ميت.

إنها الأيام الأخيرة قبل تحرير هذه المدينة
وتحرير ذاتها: بعد أن لامسها الموت، تستشعر هنا ثانية
الحياة، هذا إذا كانت الحياة تعني أيضًا القرب
والمشاركة والمودة، إذ باعتبارها ساعية، أو رسولة أيضًا،
يضعون إلى جانبها فتاة من عمرها ـ ما زالت
في العشرين ـ وهي فتاة يُوثق بها إلى أقصى حد
وبريئة، كانت تعمل في البريد فيما سبق
(أي أنها بمعنى من المعاني «ساعية» أيضًا) في قرية
بإقليم الأرديش. تُدعى الفتاة «شوفيتيه»،
وهو اسم تعرفه شبكة الإنترنت العالمية هائلة الاتساع
اسمَ عائلة من نبلاء القرن التاسع عشر، ومع ذلك
فإن هذه الفتاة من السيفين تحمل الاسم ببساطة. لم يكن بمقدور شوفيتيه
البقاء في السيفين: كما حدث في كل مكان، فقد أدخل الألمان الرقابة

في مكتب البريد الصغير الذي تعمل فيه، وكلفوا شوفيتيه تحديدًا
بها، هي التي لا تستطيع التفرقة بين روزفلت وستالين
أو تشرشل، وترى في فيليب هنريو بطلًا من أبطال المقاومة،
وتشعر بالحزن على هذا العميل المخيف الذي قُتل لتوه
في باريس على يد حركة التحرير الوطنية.
استطراد قصير: فيليب هنريو، المعروف بلقب
«جوبلز الفرنسيين»، الكاره لليهود
وللماسونيين والشيوعيين، كان يعشق
الفراشات. ويعرض متحف التاريخ الطبيعي في كارلسروه اليوم
موضوعات عشقه مثبتة بالدبابيس. انتهى الاستطراد.
لم تكن شوفيتيه الصغيرة مهيأة للعمل في مجال الرقابة،
ولذا لم تستطع أن تصمد طويلًا، لا سيما أنها
قرب نهاية الحرب ـ بصرف النظر عن قلة مهارتها
أو التماس العذر لها ـ كانت في وضع يهدد حياتها. وهكذا
أصبحت الآن في المقاومة، خاضعةً «بلا شروط» ـ مثلما يقال ـ
لرئيسها المناظر لها في العمر. حسنًا، هي ليست بالمنظِّرة العظيمة.
وربما ليست على درجة عالية من الذكاء. لكنها ليست مصادفة
عندما تجد نفسها في صف أولئك
الذين نعرف اليوم أنهم كانوا على صواب. من يتميز بالطيبة
ولا تحركه أهواؤه، فإن رأسه ـ مهما كان خاويًا ـ
لن ينحرف سريعًا عن جادة الصواب.
عن طريق شوفيتيه تعيد أنيت على كل حال

التواصل مع حياتها الإنسانية الدافئة. للأسف،
لا تمر فترة طويلة حتى ترسلها
في أول قطار إلى تولون حيث يجب عليها
أن تسلم طردًا في مغسلة. في تولون لا تظهر شوفيتيه
أبدًا. بدلًا من ذلك ـ هذا ما يتضح فيما بعد ـ
تتوجه إلى أفينيون. لماذا؟ في هذا اليوم
لا يوجد سوى قطار واحد، هو الأول والأخير
في آنٍ معًا. وهو ينطلق إلى أفينيون. المعجزة
هي عثور شوفيتيه في أفينيون على الشارع
مع المغسلة الموجود في تولون، لنقل:
شارع بالاسم نفسه أو باسم مشابه، وفيه
مغسلة، أو امرأة تكوي الملابس. تسلم تلك المرأة
الطرد، وتحصل منها على ما يسد رمقها.
هذه هي شوفيتيه. بعد عشرة أعوام يكون قد نما لها شارب
وتعيش في أفريقيا كراهبة بين مرضى الجذام.

لكن في البداية لا بد أن يحدث شيء آخر:
بعد أن وصلت قوات الحلفاء إلى النورماندي في يونيو،
تهاجم الجبهة الجنوبية في ١٥ و١٦
أغسطس من عام ١٩٤٤. بالمظلات
يهبط، بخفة كما في الحلم، آلاف الجنود
على المنطقة الساحلية، جراد يأتي بالبركات،

انتظرته الأغلبية هنا على أحر من الجمر.
آلاف السفن تقترب من الضفاف، ما بين
سان رافائيل وبورم-لي-ميموزا.
مئات الآلاف من الجنود ينزلون من السفن،
نصفهم من جيش ديجول، أي يُحسبون على الفرنسيين، مع
أن معظمهم من الجزائريين والمغاربة،
ومن السنغال ومن جزيرة لا ريونيون، أي من المستعمرات،
وليسوا بأي حال من الأحوال مواطنين فرنسيين.
والحقيقة الأخيرة لها أهميتها في تاريخ
البلاد، وربما أهمية أكبر في حياة أنيت.
مزيدٌ من ذلك فيما بعد. فقط:
عديدون من الفرنسيين غير الفرنسيين
الذين حاربوا في الحرب العالمية ماتوا
في الأسر، أو قُتل بعضهم ببساطة هناك،
لأن الألمان كانوا يعتبرونهم في درجة أدنى
من الدرجة التي وضعهم فيها الفرنسيون أنفسهم.

والآن مارسيليا. في ٢٠ و٢١ أغسطس يشن
الفرنسيون، أي قوات المقاومة المسلحة، هجومًا
على المحتلين، من الخارج والداخل في آنٍ واحد.
يجاهرون بالإضراب العام. يعلنون الانتفاضة.
الألمان ـ القادة منهم ـ لا يريدون

الاستسلام سريعًا، مع أنهم انهزموا في كل مكان،
أو ربما بسبب ذلك تحديدًا. تستمر المعارك.
من شخص مجهول تحصل أنيت على مسدس
في ساحة كاستيلان، التي يتربع في قلبها تمثال منحوت
من رخام كرارة يرمز إلى مارسيليا. وبالمسدس تطلق النار أيضًا
في وقت ما، لكن من دون أن تقتل، أو حتى تصيب أحدًا،
فضرورة القتل، أولًا: هي بالأحرى
ضرورة نظرية، وثانيًا: لأنها لا تستطيع التصويب،
وثالثًا: ليس بالمسدس سوى طلقتين.
ليس للمقاومة مقاتلون بالآلاف في المدينة،
وتسليحهم أيضًا ليس جيدًا، لكن
لديهم العزيمة، ويصوبون على نحو أفضل.
على مبنى الإدارة الحكومية يرفرف
العلم الفرنسي بألوانه: الأزرق والأبيض والأحمر،
وذلك منذ اليوم الحادي والعشرين، لكن المعارك تستمر،
لا ينسحب الألمان، ولا يعترفون بهزيمتهم إلا بفضل
جنرال ممطوط الاسم، جوزيف دو جوالار دو مونسابير،
(للمقارنة فحسب: قائد الألمان هو الفريق
هانز شِفر)، وعلى وجه الخصوص بفضل
جنود المشاة الجزائريين والمغاربة والسنغاليين.
بعرفان جميل، وإعجاب، وبشيء آخر لا تجد
له اسمًا، تتطلع أنيت إلى البربر الذين يمرون بها،

غير مكترثين، في جلابيبهم الطويلة، المقلمة
تقليمًا جميلًا، والتي ليست زيًّا عسكريًّا، فكل جلباب
يختلف عن الآخر؛ رجال أتوا من جبال بعيدة، هبطوا
من الأطلس الكبير والمتوسط، وعبروا البحر المتوسط،
كي يطردوا المحتل من حصونه الأخيرة
التي دافع عنها بضراوة على هضاب نوتر دام دو لا جار.
وفي الثامن والعشرين يستسلم أخيرًا.

انتهت الحرب، على الأقل في تولون ومارسيليا.
لكن السلام شيء آخر؛ في تلك الأيام تندلع في البداية
حرب بين الفرنسيين. مَنساير التيار طوال تلك السنوات،
بل مَن ربح من وراء ذلك؟ ومَن خاطر خلال ذلك
بحياته؟ بعض أعضاء المقاومة كانت له
طريقته الخاصة. حتى في زمن الاحتلال
لم يكن من النادر أن تتم تصفية العملاء؛ فما بالك
بالآن؟ غير أن بقية السكان أصبحوا يشعرون
بأن لديهم أيضًا تفويضًا بمحاسبة الخونة والمتعاونين
وقتلهم من دون محاكمة، حتى اكتظت الأقبية والعلالي
بالمختفين من جديد. تواصل أنيت
حياة «الغواصة»، وهي تختلف تمامًا عن حياة الأقبية.
ينتخبها اتحاد حركة الشبيبة داخل المقاومة، حيث يقبع
كثر من الشيوعيين الذين يعيشون حياة «الغواصة»،

نائبةً في لجنة تطهير منطقة
بوش دو رون. في العشرين هي (ما زالت!
حتى شهر أكتوبر)، وامرأة تبدو كفتاة صغيرة. مع ستة آخرين،
كلهم أكبر منها، ومعظمهم رجال، تُكلَّف بعملية تطهير
يجب أن تكون أخلاقية وليست عرقية
مثل العملية السابقة، أي يجب أن تُفرق
بين العملاء وغير العملاء. لكن هدف اللجنة
في الأساس هو حماية الناس من أنفسهم، إذ إن
البعض يستغل الفوضى العامة بوصفها فرصة فريدة
للتخلص بسهولة من عشيق الزوجة،
أو من المنافس التجاري، أو من أي شخص لا يحتمله المرء.
في أثناء الاحتلال، أو بعده بقليل، تتم، على يد بعضهم،
التصفية السريعة لنحو ثمانية آلاف إنسان.
في حين لا يصل عدد الذين تُصدر المحكمة
حكمًا بإعدامهم إلى ثمانمائة. تحاول أنيت
مع لجنتها منع انتشار ما يُسمى بالـ*épuration sauvage*
أو التطهير الوحشي، والاغتيالات المتخفية
في صورة تطهير، والأعمال الثأرية الفردية.
ليس على اللجنة إلا أن تقرر، مَن مِن
الأشخاص الشاحبين الذين يعيشون في الأقبية
تنبغي إحالته فيما بعد لمحكمة تستمع إلى أقواله
ومَن بالأحرى لا. الصعوبة الأولى تكمن في

العثور على العملاء المزعومين والحقيقيين،
ونقلهم من أقبيتهم إلى أقبية أخرى،
أي إلى أقبية الإدارة الحكومية حيث يتمتعون ـ
بدايةً ـ بالأمان. المشكلة الثانية:
أي الشائعات تتضمن قدرًا من الصحة؟ وما هي، تحديدًا،
العمالة مع العدو؟ إذا كان لشخص ـ مثل صاحب مصنع المربى
الذي تنظر في حالته ـ علاقات جيدة مع ألمان حتى
يحصل على السكر الذي يحتاج إليه
لصنع أنواع المربى الممتازة، هل هذه عمالة؟
هذا بالتأكيد ليس شيئًا يتباهى به، لكن القانون
لا يعاقب على ذلك أيضًا. والأمر لا يتعلق به،
بل بابنه، الذي كانت له كذلك علاقات مع ضباط
ألمان، غير أن «سكَّره» كان له مظهر آخر:
قد كان معجبًا بالوحوش الشُّقر
الصارمين. يطلقون على ذلك، إذا فعلتها النساء،
«العمالة الأفقية». أمام محكمة أنيت الصغيرة
يُستدعى كلاهما، الأب والابن. الأب الذي كان
حتى الآن يستجدي ويتوسل كي يتركوا
ابنه الشاب المسكين في سلام، يدرك فجأة ـ تقريبًا
في الوقت نفسه مع أنيت ـ ما كان يفعله الشاب.
وبهامة مرفوعة يخرج مستاء
من القاعة. «أن يكون الابن نازيًّا أو عميلًا،

هذا ممكن، لكن: شاذًّا!» (على حد قول أنيت
لما قرأته على وجه «مسيو مربى» من أفكار).

يعمل أعضاء اللجنة في فرق ثنائية: أحدهما
يمثل دور المدعي، والآخر المحامي. تفحص أنيت
كل ملف بدقة متناهية، تستدعي الشهود، تسأل عن الخلفيات،
وتفعل ذلك بإتقان أكبر، لأنها تعلم أن عمرها،
وجنسها على نحو الخصوص، لا يمنحانها أي ميزة.
في حركة المقاومة كان الوضع معكوسًا، لا سيما أنها
تبدو أصغر من سنها، ربما في السادسة عشرة أو السابعة عشرة،
وليس لدى رجل من رجال «الإس إس» أو «الجستابو»
ما يكفي من الخيال لكي يخمن أن هذه الفتاة
الحلوة ذات الوجنتين المستديرتين تخفي داخلها
مجرمة شديدة الخطورة. وبصرف النظر
عن الاستثناءات، كانت المهام الموكلة للنساء
«تحت الأرض»، كما في الحياة عمومًا،
مهامَّ ثانوية. وكأن من حقها فحسب
أن تُعتقل وتُقتل بالرصاص أو تُرحل. هذا
نوع من المساواة أيضًا. لكنها لا تستفيد في نهاية الأمر
من تلك المساواة، أو لا تستفيد تلك منها. تجلس الآن
بين رجال كثيرين وتعمل بالطبع
أكثر، وعلى نحو أدق بكثير، حتى تُعوض كل

ما هي ليست مسؤولة عنه، ومنها قامتها غير المهيبة تمامًا،
والتي لا تتعدى المتر والستين. في الخامس عشر من سبتمبر،
ولم يمر عليها في منصبها الجديد أكثر من أربعة عشر يومًا،
يأتي أحدهم إلى مارسيليا، لا يفوقها هي فحسب في القامة،
بل يفوق كل الآخرين أيضًا، وذلك، وفِق رأي
عدد ليس بالقليل، بأكثر من معنى: نعني
الجنرال ديجول، حرفيًّا: «جنرال بلاد الغال»
التي كانت يومًا فرنسا تحت قيادة فرسنجتوريكس؛
اسم يبدو مخترعًا ومختلقًا، لكنه اسم العائلة الحقيقي
ورتبته الرتبة العسكرية التقريبية. رنين الصوت الوطني لهذا الرجل
يملأ الآذان منذ أربعة أعوام عبر أثير «البي بي سي». والآن يتضخم
هذا الصوت تضخمًا هائلًا بفعل قامته. يقف الأعضاء السبعة للجنة،
كأنهم في مراسم استقبال، في إحدى قاعات الإدارة الحكومية
في انتظار أن ينتهي ديجول من خطابه ومن استعراض
الفرق العسكرية، وأن يأتي إلى القاعة لفحص الوحدة المدنية.
في بلاد الغال الشابة التي يحكمها ديجول هناك بعض التأخير.
ينتظر المدنيون. ثم تأتي اللحظة التي ينفتح فيها الباب
وتدخل زمرة من الرجال، ومنها يبرز ـ كتمثال لذاته ـ
الرجل الطويل الصلب كأن الآخرين يحملونه. قامته
التي تبلغ المترين زادت بمقدار قبعة، أو
بهذا الشيء الذي يفرض الاحترام تسميته بـ«القبعة»،
لكنه في الحقيقة يحمل اسمًا مضحكًا، وهو «كاب».

تتطلع أنيت إلى هذا العملاق بنظرة ملؤها التوقع،
وبجانبه يبدو ريمون أوبراك [١]ـ الذي ألقى رجال كلاوس باربي[٢]
القبض عليه، لكنه نجح في الفرار بمساعدة
زوجته الجَسور لوسي ـ صغيرًا مثل الآخرين.
الرجل الطويل ـ وهي تأمل في أن تقدَّم إليه ـ
يومئ من بعيد جدًّا، مرة إلى اليمين، ومرة إلى اليسار،
ثم يختفي في الأفق مع تابعيه.
من مركز «الغواصة» الخاص بها تراه بخطواته العملاقة،
يجرُّ فرنسا وراءه، ثم يسرع مغادرًا، ولا تستطيع
إلا أن تنظر نظرة عبادة إلى هذا البرجوازي الورع العملاق ـ
وليذهب الصراع الطبقي إلى الجحيم ـ أو تنحني أمامه،
بالطبع خِفية، ومن دون أن تعترف أمام
الرفاق، ربما ولا حتى أمام نفسها.
لم يدعُهم أحد إلى مأدبة الغداء.
أو كما نظمت أنيت:
«ما كدتُ أسترق نظرة إليه،
حتى ارتد على عقبيه،
في صمت ثقيل الوطأة

---

(١) كان ريمون أوبراك (١٩١٤-٢٠١٢) أحد قادة المقاومة الفرنسية. (المترجم).
(٢) نيكولاس (كلاوس) باربي (١٩١٣-١٩٩١) أحد مجرمي الحرب النازيين. أُطلق عليه لقب «جزار ليون» بسبب الفظائع التي ارتكبها في تلك المدينة بين ١٩٤٢ و١٩٤٤ حين كان رئيس «الجستابو» فيها. (المترجم).

كأننا أمام كارثة».

لم تعد أنيت «لا أحد»، بل رسميًّا
«أحد»، وذلك بين عشية وضحاها.
ومنذ ذلك اليوم، كل ما كان جزءًا منها
عاد ليحيط بها؛ الهواء الناعم البارد
للبحر، للبحر الآخر، الذي ولدت بجواره،
اللسان البري البارز في سان جاكو، الجوزة الحلوة الصلبة
في قلب محارة فينوس. هذا كله، وأكثر من هذا،
فترة الطفولة القصيرة بأكملها التي تستمر العمر كله،
مثل أي طفولة، مع أنها انتهت منذ زمن بعيد،
على الرغم من سنواتها العشرين. وفجأة يحضر أيضًا:
الأب، جان، «تيتة»، والأم، مارت الصغيرة. كيف
حالهم؟ هل ما زالوا أحياء؟ تنهال القنابل على البروتاني.
المعارك ما زالت مستعرة حول سان مالو. منذ فترة طويلة
يعيش الأب في خطر. والناجون،
هل ما زالوا ناجين؟ طوال شهور ـ أم أنها كانت
سنوات؟ ـ لم تفكر، هي «اللا أحد»، في أحد؛
والآن، يعود المفقودون عودة كاسحة.
في نبرة أبوية يتحدث إليها رجل من أتباع
عملاق بلاد الغال: لقد ظنها شخصًا آخر. لكن،
لأنه هناك، وربما يعرف شيئًا، فباستطاعتها

أن تسأله: هل هناك ربما طريقة
كي يعرف والداها في دينان أنها ما زالت على قيد الحياة؟
ينتزع من دفتر قطعة ورق، وعليها
تشخبط بعض كلمات ـ «أنا بخير، أعيش في مارسيليا،
كيف حالكما؟» ـ وعندما تصل الورقة بالفعل إلى دينان
بعد شهور، أي في وقت يعرفان فيه منذ أمد بعيد،
ما كانا يودان معرفته، وذلك عبر
رسالة من العملاق، أو من «دارِه»، مثلما تُطلق
حاشيتُه على نفسها، ما يشبه أولئك
الذين يديرون بيت الرب، أو في زمن ما قبل الثورة
«دار الملك». لفترة طويلة لم تسمع شيئًا عن والديها،
لكنها تعرف بعد عدة أسابيع أسماء
الذين أصابتهم القنابل في دينان. ولم يكونا بينهم.

رَحى الحرب لا تزال دائرة في كل ربوع
أوروبا، بينما كان الناس في باريس ومارسيليا
يتقابلون، منذ فترة طويلة، في حفلات الاستقبال،
واللجان مشغولة بعمليات التنظيف. أنيت مشغولة للغاية،
الأقبية لا تلفظ شاغليها إلا ببطء تام، ولكن، وبقدر أهمية
هذا التقسيم بين العملاء الحقيقيين والمزيفين،
بين الأشرار والذين لا يتسمون بشر كبير،
فإن رغبة تجتاحها كي تؤدي عملًا آخر،

أو بالتحديد: كي تحارب، نعم تحارب،
الآن، فورًا، وقبل أن يفوت الأوان نهائيًّا، أو مؤقتًا
لفعل شيء كهذا. لم تعد تريد أن تقود دراجتها، وتنتظر،
وتمشي، وتنظم، وتنقل، وتقسِّم، كلَّا، إنها تريد أن تحارب
مثل محارب حقيقي، بسلاح في اليد.
كما قلنا، طولها لا يزيد على مائة وستين، ووزنها ـ
لنقل ـ خمسين كيلو، لكن ماذا يعني ذلك؟ منذ أمد بعيد
لم يعد المرء يحارب بالحربة في مواجهة حربة، وبالتأكيد
ليس صعبًا جدًّا استخدام بندقية من نوع «ستن» أو
بندقية رشاشة. إنها تريد ذلك! بكل جوارحها. ولم تعد
تفكر في شيء آخر، لا سيما أن كتيبة جديدة تتشكل
من فدائيي «الماكي» كي يشنوا هجماتهم
في إقليم اللورين. يسمحون لها بالدخول إلى الطبيب
بعد إلحاح طويل. طبيب من كورسيكا
ذو شارب صلب الشعر، يقول لها بعد نظرة قصيرة:
«عجفاء! لسنا بحاجة إليك». الآن ليس لديها
سوى الغضب. كل هذه المخاطر، والجهد، مائة يوم من الألم،
ولم ينظروا إليها بجدية بعد، من المرجح
ألا ينظروا إليها بجدية أبدًا. تريد أن تحارب، بكل جوارحها،
وتريد في الوقت نفسه أن تنفجر في البكاء، وتهرب
إلى أحضان والديها، مثلما يفعل المحاربون أحيانًا أيضًا،
وإنْ كانوا لا يحكون ذلك لأحد. والآن

ها هو تشن مرة أخرى، هذا الشيوعي من شانغهاي
في رواية أندريه مالرو، الذي يأمره أحد المسؤولين
الذين يتلقون تعليماتهم من موسكو بتسليم
الأسلحة. لتلقي هذا الأمر كان عليه
أن يسافر سفرًا شاقًّا استغرق ستة أيام
إلى مدينة كبيرة تُدعى «هانكو»، وهي اليوم ليست سوى
حي من مدينة أكبر... ولكن سيان، لا يفكر تشن
في تنفيذ أوامر المسؤول المتحجر. ثم يموت
موتًا حتميًّا ومشتهى، وفي الوقت نفسه موتًا
عبثيًّا وغبيًّا؛ وفي أنيت أيضًا
شيء يريد التضحية بالنفس
والموت، وشيء يقاوم
ولا يريد الموت لها. كم عدد
الذين يموتون شبانًا من دون
رغبة منهم في الموت؟ ستصبح أنيت
عجوزًا، عجوزًا طاعنة في السن، بهذه الرغبة الملحة
أو عبر هذه الرغبة في أن تعيش من أجل الآخرين
أو أن تتخلى عن حياتها من أجلهم أيضًا.

ما لا تعرفه، ومن الصعب أن تستطيع معرفته،
ولربما زاد من غضبها لو عرفته، هو أن
اللواء الذي شُكل والذي تريد بإصرار

أن تحارب فيه، يقوده «كولونيل برجيه»،
وهو اسم حركي للمُقدَّم أندريه مالرو
الذي انضم متأخرًا إلى حركة المقاومة.
لا تريدون حياتي؟ ليس بهذه السرعة
تسمح لهم بإحباطها. تستمد أملًا جديدًا
عندما تنحل اللجنة في نوفمبر ١٩٤٤
ويعيدها الحزب إلى باريس. ألا يمكن
أن يستعين بها «الكولونيل فابيان» المشهور،
واسمه الحقيقي «بيير جورج»، الذي
حارب في إسبانيا مثل مالرو؟
ألم يرأس مع ألبير أوزولياس محاربين
لم يبلغوا العشرين بعد، في «كتائب الشبيبة»؟
تنسى أن هؤلاء الشباب كلهم رجال أو
فتية. ما لا تنساه، بل يزيد حماستها
ويُرعبها، هو أن معظمهم يُلقى القبض عليه
في ربيع ١٩٤٢ ويُقتَل بالرصاص على سفح جبل
فالريان أو في مكان آخر. حتى رولان،
صديقها رولان، لقي مصرعه. وهي أيضًا ستموت. لكن
القصور الإنساني يتضمن في أفضل حالاته حرية
القرار الذاتي بشأن متى يموت المرء وربما أيضًا
من أجل ماذا. تريد أن تموت على النحو الذي يروق لها.

بدلًا من ذلك يعرض عليها الحزب في باريس
أن تعمل في مجلته، *Filles de France*
على تعليم الناخبات المنضمات حديثًا إلى الحزب
كيف تطبخ الفتاة بدون أي شيء، أو تحوِّل
البلوفر القديم المثقوب إلى زوج جديد من القفازات.
وعندما تعتبر هذا التكليف المهم
شيئًا لا لزوم له ـ «مجلة نسائية؟
أليس هدفنا هو المساواة بين الجنسين؟» ـ
يعلنون أنها ليست أهلًا للشيوعية.

يتجلى أمامها فجأة، ما اتضح لها ببطء منذ
أن غادرت بلاد الـ«لا أحد». فترة طويلة جدًّا
لم يكن يرافقها سوى الخوف والإرهاق والوحدة.
لم تعد تحتمل. في حديقة مونسو العامة
لا تجد الراحة التي تبحث عنها، بل
ضيقًا في الصدر لم تشعر به من قبل. لا أحد
في هذه المدينة الكبيرة التي جابت أطرافها
بخطوات صغيرة طوال شهور، هذه المدينة
التي تعرف كل ركن فيها، وكل حي على أطرافها،
لا أحد يهتم بها أقل اهتمام، أو يسألها
أو يفكر فيها ربما، لا شيء،
لا أحد ـ خواء. أليس للشيوعية

علاقة بالاشتراك في شيء؟ عندما كانت تبادر بالفعل
وتؤدي أشياء ذات معنى ـ أشياء كانت تأمل
أنها ذات معنى ـ كانت الأمور تسير.
والآن؟ حولها وحول حديقة مونسو تخرس
الفيلَّات المهيبة. تخيل دوق أورليان
الحديقة «أرضًا متوهَّمة»، نصفها صيني، ونصفها
إنجليزي، نوعًا من بلد الفانتازيا من القرن الثامن عشر،
فيه معبد على الطراز الهندوسي، وهرم، وأطلال
قديمة قدمًا زائفًا، مثلما تنتج المصانع اليوم
سراويل جينز بالية. لا تفكر في الدوق
ولا فينا، بل في بلد الفانتازيا الآخر ذاك
الذي كان وما زال وطنها، وحيث شرعت
بعض الأشياء حاليًّا تتداعى مثل أطلال.

تقضي كل يوم ساعات في فندق «لوتيسيا»،
حيث ما زال يعيش أفراد
المخابرات العسكرية الألمانية وقوات «الإس إس»
وحيث تصل في كل يوم من المعسكرات المحررة والسجون
أعداد متزايدة من أشخاص أصبحوا جلدًا على عظم ويقفون
بصعوبة شديدة على أقدامهم. رولان مات. لكن من يعلم،
فالفوضى عظيمة؛ ألا يمكن أن تكون الحسناء الشقراء
مخطئة؟ بالنسبة إلى كثيرين، مثلها، فإن

فندق «لوتيسيا» هو الأمل الأخير.
تحت الثريات الكريستالية تتأرجح
هياكل بشرية حية، تعبر البهو الواسع الفخم
المصمم على طراز «آر ديكو»،
وتعبر الزمن الجميل، البعيد النائي
أو ما يطلق عليه *Belle Époque*.
عديد من الأقارب يأتون مثل أنيت
بلا جدوى. ينتظرون، يتطلعون كل يوم في آلاف
من الوجوه الضامرة، ولكن ما تخفيه
محاجر العيون، وما لا يمكن حتى الحدس به،
لا معنى له أو اسم.

فترة صمت.

فترة صمت.

فترة صمت.

ولقاء ـ ليس مع الشخص المرتقَب
بأمل. في ذلك اليوم، بعد أن شعرت في حديقة مونسو
بثقل كل الأطلال على كتفيها، وبضعفها
من الإرهاق والوحدة، تذهب إلى منزلها،

إلى دينان. الرحلة طويلة، وتطول أكثر فأكثر،
لأنها لا تستهدف الموت، بل
تعود إلى الميلاد. في وقت ما يدخل المرء
إلى عمق الخراب، إلى طبيعة من أطلال
ليست اصطناعية. هي، التي تتجنب كل ما هو ديني،
ولا تعترف بإله سوى إلهها، تتطلع إلى
الأبراج المبتورة للكنائس يمينًا ويسارًا، كأن أحدًا
قد قطع فخذها هي. ترقد القرى ساكنة في المطر.
مهدَّمة مثل المصانع. من الجسر الجرانيتي
تنظر من بُعد شاهق إلى طفولتها،
بعد كثير من المحطات والطرق الملتوية،
كأنها تنظر من كوكب آخر، كأنها قد أمست
عجوزًا، وهو ما ستصبحه في القرن المقبل. والآن
تأتي فترة صمت من نوع آخر، ليست جمودًا
أو رعبًا، بل مجرد إشاحة النظر
للحظات، لأنها، وهي تقترب من البيت في الظلام
سيرًا على قدميها، في الضوء المخروطي لعمود الإنارة،
ترى ملامح سائق دراجة يرتدي سروال لاعبي الجولف
وجوربين بالمربعات الأسكتلندية، وأبوها جان
لديه كلاهما. (سروال الجولف يرتديه مثل تان تان،
تان تان وكلبه ميلو من المجلة المعروفة،
من دون أن يكون قد لعب الجولف

في حياته، لكن لأنه عملي
في أثناء قيادة الدراجة). نشيح بنظرنا قليلًا من جديد،
في حين تصل أنيت مرة أخرى إلى بيتها
بعد تيه طويل، وهناك لا تجد أي ميلو،
بل «تيتة» ومارت الصغيرة.

بعد ذلك ينهزم الألمان هزيمة نهائية.
لا أمل في أن تخوض أنيت حربًا بعد الآن. أضحى
النفوذ والبروباجندا هما المهمين الآن في الحزب.
تستأنف أنيت في جامعة رِن، بدون رغبة كبيرة،
دراسة الطب التي لم تكد تشرع فيها.
تدرس. وتحفظ أشياء كثيرة عن ظهر قلب، كسابق عهدها،
لكن لم يعد الأمر يدور هنا حول أسماء مزورة، ونواصي الشوارع
والتوقيت وعلامة التعرف على الآخر، بل
حول الغدد الليمفاوية والأوعية الدموية والأعصاب والعظام. ليست
سعيدة. تفتقد رولان. وشيئًا فشيئًا تدرك
أنها لا تزال تفتقد نفسها. صحيح أنها
لم تعد «لا أحد»، لكنها لم تصبح بعد
«أحدًا» من جديد، مثلما توقعت
ببديهية. لقد تغير شيء في رأسها. وفي بعض الأحيان
تتساءل مرعوبة عما إذا كانت
ستظل تتأرجح بلا سند

في هذا «البين بين» الضبابي.
تتعلم وتتعلم، ولا تعرف كيف تدخل
إلى أعماق نفسها أو تخرج منها. ثم تأتي رسالة.
روبير من مارسيليا. نعم، تتذكر. شاب
موهوب فنيًّا، حافظ على وداعته
في المقاومة. ماذا يكتب؟ يكتب أنه سيذهب
إلى الهند الصينية، أنه حصل على وظيفة هناك، وأنه
يحب أنيت، ويرجوها من قلبه أن تصبح زوجته. «نعم».
تقول: «نعم». الحب ولى؛ كان اسمه «رولان». الزواج
ممكن، لِم لا؟ إذا كان الرجل بهذه الطيبة
والوداعة مثله. لا سيما أن الهند الصينية تلوح في الأفق.
هناك ستمضي الأمور إلى الأمام، هناك
سيندلع الكفاح أخيرًا، أو لعله ما زال مستمرًّا!
بالنسبة إليها هو كفاح آخر، والكفاح نفسه في آنٍ واحد،
ثمة احتلال وقمع، ويُمارَس هذه المرة
باسم فرنسا، أي باسمها هي، أنيت. الجنرال نفسه
الذي قاوم الألمان مع ديجول ـ
جان دو لاتر دو تاسينيي، اسم طويل مرة أخرى ـ
هو نفسه الذي حرر تولون ومارسيليا ـ
أو بالأحرى جنوده الأفارقة ـ
يحارب الآن أهلَ فيتنام الأصليين، الذين يطلق عليهم الفرنسيون
«الأناميت». يبدو أن السادة الجنرالات

يرون أن احتلال البلاد الأجنبية أمر مشروع،
ما داموا هم المحتلين. بعد بضعة أيام
تصل أنيت إلى مارسيليا، وبعد بضعة أسابيع تصبح زوجةً.
وبعدها بفترة قصيرة تطلَق. لكن الطلاق نفسه
يستغرق الفترة الأطول. الزواج، الهند الصينية، الكفاح،
وداعًا! ماذا حدث؟ ما حدث هو أن
الوظيفة التي كان يجب أن يحصل عليها روبير،
وظيفة حكومية. وأن الدولة التي تحارب في الشرق الأقصى
حركات الاستقلال والشيوعيين، تمانع دخول امرأة شيوعية البلاد.
وهكذا فقد روبير الزوجة والوظيفة معًا. بعد
عدة أسابيع من الحياة الزوجية لم تعد تتحمل
الحياة معه، مهما كان وديعًا، فالذي جذبها
على نحو حاسم هو بالأحرى
اتحاد «الفيت مين»[١] غير الوديع. ماذا تريد
من زوج ليس رولان، ولا هو حتى شيوعيًّا؟

بسبب زواجها السريع عادت إلى مارسيليا.
لم تغادر بعد البلد الوهمي للحزب،
لكنها تصطدم في بعض الأحيان بحدوده.
يأتيها، مثلًا، ذات يوم قليل الجمال

(١) اختصار لـ«اتحاد استقلال فيتنام»، الذي تأسس عام ١٩٤١. (المترجم).

أحد قياديي الحزب الشيوعي، وهو يعرف أنها
كانت تعمل تحت الأرض وتحت المياه،
ويكلفها باختراق آل «ب.» المثيرين للشبهات
والتجسس عليهم. ثمة دعوى على آل «ب.»
بسبب اختلافهم. الأمر سيئ حقًّا:
للرجل لحية ويدخن السيجار من هافانا،
حيث لن يصبح النظام شيوعيًّا إلا بعد فترة طويلة.
يضم آل «ب.»: بوبو ـ أهذا
اسم لرجل في الخمسين من عمره؟ ـ وكليكلي ـ
هذه أيضًا مزحة، «كليكلي» اسم لسيدة كهذه
تأتي دومًا من عند مزيِّن الشعر بأظافر
مُعتنى بها. ولماذا يسكنون في
فيلَّا؟ إنهم يتبرعون بسخاء، هذا صحيح.
لكن من أين لهم هذا؟ أهم
شيوعيون حقًّا؟ الأب وأحد الابنين يتاجران
في الموز. هذا مقبول إلى حدٍّ ما. لكنهما
يبيعان الموز إلى الألمان! فليقل أحد عندئذ
إن آل «ب.» ليسوا من المشتبه بهم!
لا تستطيع أنيت مقاومة شعورها بالإعجاب بهم.
ألم يوفروا لها مكانًا للإقامة عندما
كانت ذات يوم في عراء الشارع؟ والآن عليها
أن تتجسس عليهم؟ تتذكر أباها جان

وقوله إن نصف الشيوعيين مشغولون دائمًا
بالتجسس على النصف الآخر. والآن، عليها
أن تنتقل هي نفسها إلى النصف المتجسِّس. تفكر
في أناس تجسست عليهم في الماضي، لكنهم
لم يكونوا شيوعيين. آنذاك كانت ترى إلى حدٍّ ما
ضرورة التجسس، حتى وإن لم تكن مشاركتها
في الماضي مثارًا للفخر بالنسبة إليها.
والآن آل «ب.» اللطفاء؟ في داخلها،
داخل أنيت، التي أصبحت في الحادية والعشرين من عمرها،
تعيش عدة أرواح أو عدة أشخاص، مثل كل إنسان أيضًا،
ومن بينهم شخصان بالتحديد. هناك
أنيت ابنة جان ومارت الصغيرة،
التي تعرف بدون تفكير طويل،
في مواقف حياتية معينة تتطلب
أن يقرر المرء ما إذا كان سيفعل هذا أو ذاك،
ما الذي يجب عليها فعله،
وما الصائب. نوع من الغريزة
التي ورثتها أو زُرعت داخلها.
ثم هناك أنيت الثانية، وهذه الثانية
هي في المقام الأول شيوعية. هذه أيضًا
لا تحتاج إلى تفكير طويل، لكنها لا تتبع
إرشادات باطنية، بل خارجية. إنها

تفعل شيئًا تعلمته في المقاومة، وهو شيء
ضروري هناك ولا نجاة بدونه، لكنه ليس على الإطلاق
شيئًا تحبه: الطاعة.
وتفعل ذلك بخضوع أكبر وعلى نحو أفضل
عندما تنكر ذاتها، وتظل في الحقيقة
«لا أحد». تنقصها الركيزة، ولهذا تحديدًا
تحتاج إلى الحزب احتياجًا ماسًّا، لأنه يَعِد،
من بين وعوده، بالتكاتف، وبالمستقبل الزاهر.
وهكذا تربح في قضية «التجسس على آل ب.»
أنيت الثانية، وتخسر الأولى
التي تقاوم: تفعل المطلوب منها. لا تشعر
بالراحة خلال مراقبة الرفاق، لكن، أليست صفقة الموز
مع ألمانيا مثيرة للشبهات بحق؟ قد تكون الحرب
انتهت فعلًا، لكن الجبهات الجديدة واضحة:
لقد أصبحت ألمانيا بلدًا رأسماليًّا مُتأمْرِكًا. مَن
يعقد الصفقات مع دولة مدعومة من الأمريكان،
لم يعد ربما يتعاون مع الفاشيين، لكن
مع الرأسماليين، ما لا يختلف كثيرًا من وجهة نظر الحزب. إذن:

حتى تتمكن من دخول غرفة معيشة آل «ب.»،
تغوي بيير، أحد الابنين،
وهو ما أثار في نفسها، مع النفور،

ربما أيضًا السرور: أن تلعب قليلًا دور
الجاسوسة المغوية. بعد اقتحام عرين الشر،
تجد أن المرح هناك سائد: كليكلي،
الأم الأنيقة، تحب أن تصدح بأغنيات
من أوبرا «لا ترافياتا» ويرافقها بيير على البيانو
بحماسة هادئة، في حين يُعلِّم شقيقُه كلود
أنيت قبضات خاصة في الجودو قد تستخدمها
فيما بعد. ابنه الصغير
يصرخ أيضًا بأغنيات الأوبرا
على نحو يهز الوجدان هزًّا. أهكذا ربما
يبدو الخونة؟ تكتشف شيئًا آخر:
بوبو، الذي كان يومًا تاجر فحم فقيرًا
من الأوفيرن يبحث عن مستقبل
ليس بالضرورة مشرقًا، لكنه ليس
أسود كالفحم، سافر إلى باريس، ثم
إلى لندن حيث تقابل مع كليكلي،
أو بالأحرى في البداية مع أخيها في
إحدى الحانات. منذ تلك اللحظة أصبح المستقبل
يُدعى «كليكلي»، ويُدعى أيضًا: «الموز». ما العيب
في ذلك؟ تتعمق أنيت، بدقة وبنصف اقتناع في الوقت ذاته،
في صفقات آل «ب.» في الاستيراد والتصدير وما أشبه،
غير أنها لا تكتشف في كل مكان سوى

عائلة مرحة. لكن قادة الحزب لا يكفون عن ملاحقتهم:
«إنهم خونة، أعداء الطبقة العاملة!». تشعر
أنيت بضغط هائل إلى درجة أنها
تعترف لبوبو بكل شيء. يا لخجلها من نفسها! تبكي.
يعيد بوبو إشعال السيجار المنطفئ.
يقول: «آه»، ثم يعزيها. لقد خَبِرَ الرجل
أشياء أخرى تمامًا. شحن سفنًا بالأسلحة
خلال الحرب الأهلية في إسبانيا. لعنَ الحزب
في عام ١٩٣٩ عندما عقد الإخوة السوفييت
تحالفًا مع الشيطان[1]. بقي شيوعيًّا
من دون سند أو إطار سوى ذلك
المستمَد من بضع كتابات، وذلك المستمَد من
قلبه. يريدون الإمساك بخناقه. هكذا.
يجلس ويتنفس عميقًا محركًا كتفيه.

تعلَّمَت شيئًا مرة أخرى. الخجل
معلم جيد، أحد أفضل المعلمين. وشيئًا فشيئًا
تمر بخيبات أمل أخرى، وعام ١٩٥٦ لم
يكن بحاجة قَطُّ إلى خروتشوف. لكن

---

(١) المقصود «الاتفاق الألماني-السوفيتي»، أو معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي، التي وقعت في موسكو بتاريخ الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٣٩، عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

الغضب والخجل لم يصلا بعد إلى نهايتهما.
بالنسبة إلى سكان الأرض المقبلين، وإليهم ستنتمي
أنيت يومًا ما، فإن الأمر ملغز بعض الشيء:
كيف تحولت الأيديولوجية التي يديرها الحزب
وتوجهها موسكو إلى عقيدة،
إلى إيمان، حتى بالنسبة إليها، وهي
لا تعرف معنى للأديان أو ميلًا لها،
التي هي، إلى ذلك، أفيون الشعوب. ولكن هكذا هو الأمر،
أو هكذا كان: بالنسبة إلى هذا النوع من الانصياع والخضوع
الأعمى لقوة عليا، لا تبدو لها كلمة أخرى
مناسبة للوصف أكثر من كلمة «الإيمان».
الأمر يشبه ما يحدث مع ما يُسمى بـ«الحب الكبير»: لا يرى
المرء هذا الشيء أو ذاك الذي قد
يراه بعين يقظة. كم يبدو حقيقيًّا
أكثر من الحقيقة في بعض الأحيان
الإنسان في الحلم، أو الهدف، أو المكان المستقبلي!

في الثالثة والعشرين تتزوج أنيت
مرة ثانية. كل شيء مناسب هذه المرة: ليس فقط
لأن جو ـ واسمه الكامل «جوزيف روجيه» ـ
شيوعي حرر باريس بصفته «القائد داركور»
في أغسطس ١٩٤٤. ليس وحده، هذا صحيح.

ولكن في ميدان الجمهورية ـ حيث ينهض
تمثال برونزي يرمز إلى تلك الجمهورية
ويطل على الميدان، وحيث ربضت،
وما زالت تربض، أضخم ثكنات العاصمة،
ثكنة الأمير أوجين ـ نجح مع فرقته،
ومات كثير منهم خلال ذلك، في صد هجوم
نحو ٥٠٠ جندي ألماني، وردهم إلى ثكنتهم الحصينة
التي أضحت بالنسبة إليهم فخًا. شيوعي إذن،
ومن المقاومة، وأيضًا، مثل أنيت، طبيب.
الظروف مهيأة جدًا، على الأقل، إذا كان المرء
لا يعتبر الزواج شأنًا عاطفيًا، أو ليس فقط،
بل رباطًا بين شخصين متفاهمَين.
إلى ذلك فهي حامل. جو صديق، ورفيق،
وعشيق، وبطل. ماذا يريد المرء أكثر من ذلك؟
يريد المرء زوجًا حقيقيًا:
ها هو.

معًا يتخلصان من الأوهام. هل في ذلك
عزاء؟ نتحدث هنا عن أوهام البشرية،
لا الأوهام الزوجية؛ ويتقاسمان أيضًا
فقدان الأوهام مع الآلاف. البعض
سبقهما قليلًا على طريق التخلي

عن الأوهام، والبعض يعرج خلفهما.
أنيت وجو، في مجموعة نصف الطريق،
ينفصلان عن الحزب في ١٩٥٦.
قبل ذلك تحدث أشياء، سياسية
في المقام الأول، نقاشات، رحلات، وارسو، لايبتسج،
براغ، أربعة أشهر في موسكو، إقامة لأغراض بحثية،
الهدف منها معرفة أهمية النوم
للذاكرة. تراقَب معظم الوقت، وبغرض الاحتواء
يقابلها كثيرون، لكنها تُثبِت أن رؤيتها واضحة،
ولا تقبل الاحتواء بأي حال من الأحوال.
بعد العودة إلى فرنسا تنشق هي وجو.

الحب بينها وبين جو ـ وهو، على الأقل
بالقدر نفسه، صداقة ـ متشابك تشابكًا
لا ينفصم عن حكاية أخرى:
حكاية الحزب الشيوعي.
يريدان معًا أن يؤمنا به،
ومعًا يتخليان عن إيمانهما. هل هذه بداية
النهاية؟ بداية تآكُل الحزب،
وربما تآكُل حبهما أيضًا؟

إلى جانب ذلك تصبح أنيت طبيبة،

طبيبة أعصاب، وأمًّا لابنين. تعمل في مستشفى
في مارسيليا، وتقضي أوقاتًا طويلة
في أماكن أخرى ومع أشياء أخرى. الكلام، النقاش،
نعم، جيد، لكن السياسة تعني بالنسبة إليها الفعل.
يوافقها أن التفكير شأن من شؤون الرجال. ما زال هكذا.
حتى لو كانت طبيبة وتحمل لقب «دكتورة»،
عندما يُعقد اجتماع مع منشقين آخرين، يجلس
الرجال ويتناقشون بلا نهاية، في حين أن النساء
بجوارهم ينتهين من طي آلاف المنشورات
وكتابة العناوين على الأظرف. عقل
أنيت النشيط وكذلك لسانها بحاجة إلى
العمل؛ عبر الحركة والفعل فحسب
تدرك النظريات أيضًا. الكلام بلا أفعال
أمر غريب عليها تمامًا، مثلما تكون الصلاة الدائمة
بلا أي مشاركة أو مساعدة أمرًا غريبًا على
المسيحي الحق. وبمناسبة المشاركة والمساعدة:
كلا الأمرين ليس وصية تتبعها أنيت، بقدر ما هي غريزة،
أو رد فعل انعكاسي، على كل حال سلوك ليست بحاجة
إلى التفكير فيه، فهي ـ من فضلكم لا تقولوا
لها هذا ـ لا بد أن تكون مسيحية بحق،
من دون أن تريد ذلك، أو حتى أن تعرفه. سنأتي
لاحقًا للحديث عن هذه النقطة، التي هي بالأحرى

ليست نقطة، بل فضاء جميل
في كرم الضيافة وحب المساعدة.

منذ زواجها تعيش على نحو مختلف كل الاختلاف
عن السابق، وفي الوقت نفسه مثله تمامًا. لم تعد وحيدة
ولا فقيرة، وهذا فارق مهم.
الإطار برجوازي، هذا شيء يأتي من تلقاء نفسه،
ما على المرء إلا أن ينظر بعيدًا لبرهة، حتى يسمع:
Monsieur le docteur، و*Madame la doctoresse*.
الشقة كبيرة، حتى إن أنيت تكاد تتوه فيها؛
كان المنزل مِلكًا لإحدى شقيقات نابليون،
هكذا تزعم الشائعات على كل حال، والآن يملكه
حمواها. والد جو طبيب أيضًا، وصاحب مكانة مرموقة
في مارسيليا كلها حتى، وهو
يحب زوجة ابنه الجديدة كثيرًا. إلى أي حدٍّ
تعيش مع ذلك مثل السابق؟ إنها مثلًا
ما زالت تعامل الجميع معاملة متساوية، بالأحرى
تعامل كلًّا على قدر درجة الصداقة
أو التعاطف معه، لكنها لا تعامل أحدًا باحترام
وتحرم الآخر منه؛ رئيس الأطباء مثلًا
والممرضات، والحموان،
والرجل والمرأة اللذان يعيشان جزئيًّا لديهما، ويعتنيان

بالطفلين إذا لم يكن أحد في الدار، كلهم
سواسية في عينيها كأسنان المشط.

وهي تفتح شقتها دائمًا، كمثال آخر،
لكل مَن يحتاج إلى مبيت أو
طعام. ظلت نبرتها في التعامل،
وسلوكها، بسيطين، وهو ما قد يكون مرتبطًا
بـ«تيتة» التي تبقى معها دائمًا،
ناظرة من فوق كتفيها، حتى وإنْ كانت
غير حاضرة بالجسد.

عما قريب سيكون والدها أيضًا، جان،
غير حاضر بالجسد ومع ذلك باقيًا معها.
يموت ويترك مارت الصغيرة وحدها في مطعمها
في دينان. تذهب أنيت أحيانًا إلى هناك، وذات يوم سبت
تنطلق بالسيارة عبر تل موحش،
مثلما تكون التلال أحيانًا،
مارةً باثنين يقفان هناك لعطل
في سيارتهما. لن تكون أنيت هي أنيت، إذا
لم تتوقف وتسأل ما إذا كانت تستطيع المساعدة،
وهي تستطيع. بعد ظهر يوم السبت
لا تكون ورش تصليح السيارات

مفتوحة، يحتاج الاثنان إلى مأوى إذن،
وأنيت مستعدة لتوفيره لهما.
الأمر في غاية البساطة: مَن يعرف أنيت، فقد
عرف المأوى أيضًا. تشرع في
اصطحاب الاثنين - زوجين ألمانيين -
إلى منزلها، وتسمع الرجل بجوارها
يقول شيئًا لزوجته بالألمانية،
بنبرة حيوية ومتفاخرة، وهو يشير من الشباك.
تتطلع إليه، ويكرر الرجل ما قاله
بلغةٍ تفهمها: هناك، على الجانب الآخر، عند
مخزن الغلال، ألقى القبض خلال الحرب
على شخصين. تضغط أنيت على الفرامل،
وتطردهما من السيارة. وتواصل القيادة.
يا له من أحمق! الاثنان اللذان ألقى القبض
عليهما، كانا بالطبع من المقاومة، كان من الممكن
أن تكون هي أو صديقها رولان. تقود السيارة
بضع مئات من الأمتار. ثم ترجع.
وتدعوهما للركوب مرة أخرى. ولا تتبادل
مع الزوجين كلمة بعد ذلك. أمام أحد الفنادق تتوقف لينزلا.
على الأرجح لا يعرف الزوجان حتى اليوم، لماذا
تصرفت هذه الفرنسية على هذا النحو الغريب. إن مَن
يحتاج إلى شرح في بعض المواقف،

لا يستحق في الحقيقة شرحًا.
تصرف النظر.

حياتها الجديدة كلها جميلة وحسنة
وتسير في المسار الصحيح. تحب الطفلين
كأعظم ما يكون الحب، وتحب بهجتهما،
والرجل أيضًا لا يعيبه شيء مطلقًا، والزواج كذلك،
بما فيه من ذرى وسفوح، كما يقولون وكما
تميل الزيجات دومًا إلى أن تكون، والعمل يثير اهتمامها،
حتى وإن كانت المهنة التي تحلم بها ربما مهنة أخرى،
لكن أي مهنة؟ مُغامِرة؟ زعيمة انقلاب؟
مشارِكة في حرب الشوارع؟ لا يخطر
على بال المرء سوى مهن للرجال،
إلى ذلك فهي ليست مهنًا إطلاقًا. في منتصف الخمسينيات
كانت أنيت في مطلع الثلاثين، وتتطلع إلى استمرار
حياتها البرجوازية اللطيفة،
على الأقل إذا لم يقف في طريقها
شيء لا تعرف عنه شيئًا،
ولا تعرف أنها في الحقيقة ترجوه. لكن ربما
الأمر مختلف تمامًا، أي على النقيض: الحياة
الزوجية والعائلية ومهنة الطب تشكل معًا
كُلًّا مبهجًا تجد فيه دفئًا

ونوعًا من التحقق. إنها بخير.
الأحداث التي تأتي، والتي تدخل التاريخ
أيضًا كأحداث مهمة، تثير ضجيجًا عظيمًا
وفي وقت لا يناسب سعادتها المهنية والعائلية الجميلة.
نعم، هذا محتمل. الحقيقة هي أننا
لا نعرف الحقيقة مطلقًا، لكنْ لدينا سبب وجيه
يحملنا على الاعتقاد بأنها تضم بعض التناقضات
وعلى الأقل رؤيتين للأمر نفسه.

أي أحداث؟ بعد أربعة عقود، في عام ١٩٩٩،
تحصل تلك الأحداث على اسمها الرسمي:
«حرب». حتى ذلك العام كان الحديث عن «أحداث»،
عن «الأحداث الجزائرية» إن شئنا الدقة، وهو أمر
غريب بعض الشيء، وتحديدًا لأن
الأحداث قد امتدت إلى كل ربوع فرنسا،
ولأن الجزائر ليست «مستعمرة» أو «محمية»،
بل ببساطة جزء من فرنسا، وتتكون من
ثلاثة أقاليم، مثلها مثل البوش دو رون،
والسين ماريتيم ومورت إيه موزيل.
(نتحدث هنا عن ذلك الجزء الصغير من الجزائر
الذي ليس بصحراء. الجزء الصحراوي فرنسي أيضًا،
لكنه خاضع للجيش). هكذا تبدو الأمور عام ١٩٥٤،

وهكذا تبدأ «الأحداث». ليس بدون وجه حق
يتساءل سكان هذه الأقاليم الثلاثة ـ
معظمهم، تسعون في المائة منهم ـ لماذا
يسكنون في فرنسا، وهم ليسوا مطلقًا
من الفرنسيين. الفرنسيون في الجزائر هم بالطبع
الفرنسيون، أي الذين هاجروا يومًا ما
من فرنسا، وأولئك أيضًا ـ أو أسلافهم
المتحدرون من بلاد أوروبية أخرى ـ الذين استقروا هنا.
غير الفرنسيين، وبذا لا يحق لهم الانتخاب، هم
الباقون، أي ما يُطلق عليهم «السكان الأصليون»، أو
indigènes. وفي الحقيقة فإن تسعة أعشار
الجزائريين يطرحون الأسئلة نفسها التي طرحها
إيمانويل جوزيف سياس عام ١٧٨٩ باسم أكثر من
تسعة أعشار الفرنسيين: «ما الطبقة الثالثة؟ كل شيء.
ماذا مثلت حتى الآن في الوضع السياسي؟
لا شيء. ماذا تطلب؟ أن تكون شيئًا». هذا هو في الواقع
كل شيء. سُلبوا كل الأراضي الخصبة
وهم بلا عمل ـ لا وجود للصناعة هنا تقريبًا ـ
هؤلاء الفرنسيون من غير الفرنسيين يعيشون
جماعات غفيرة، مثلًا في نانتير،
في أحياء بائسة، تُدعى *bidonvilles*، وهي تعني بالأحرى
أحياء عشوائية بائسة *favelas*، أكثر منها ضواحي للمدن *banlieues*.

ليست الأحياء مبنية بالحجر، إنها عشش واطئة السقف، مبنية من
الصفيح والكرتون والخشب، حيث تنتشر الأمراض بسرعة
ويموت أطفال ويولد أطفال بلا عدد،
في حين يمضي الفرنسيون متأنقين إلى السينما
في قلب الجزائر العاصمة ووهران، ويقودون
سيارات سريعة، ويجلسون على شرفات البارات
أمام كؤوس بها مشروب أصفر حليبي من اليانسون،
متوهمين أنهم في مدينة أوروبية كبيرة. منذ ١٨٣٠
تظن الأمة الفرنسية في الجزائر أنها تؤدي
مهمة حضارية (*Bonjour*، توكفيل!).
بعد ما يزيد على مائة عام نجحت، وفق ما تقوله
جيرمين تيليون[١]، في تعليم ستة من بين كل مائة رجل،
واثنتين من بين كل مائة امرأة، بالتمام والكمال،
أن يقرأوا ويكتبوا، وألا يستخدموا أبدًا
المبادئ الفرنسية: *liberté égalité fraternité*[٢].

١٩٥٤ إذن. ما كادت حرب الهند الصينية تنتهي،
وتفقد فرنسا (من دون مساعدة من أنيت)

---

(١) جيرمين تيليون (١٩٠٧-٢٠٠٨)، عالمة إثنولوجية فرنسية ومن أعضاء حركة المقاومة. (المترجم).
(٢) الحرية والمساواة والأخوة. (المترجم).

مستعمرةً، حتى بدأت «الأحداث»
في مكان آخر. في الحقيقة لقد بدأت
قبلها، عام ١٩٤٥ في سطيف ومنطقة القبائل،
مظاهرة، انتفاضة، آلاف القتلى،
ومن بينهم مئات الفرنسيين. كل شيء يبدأ دائمًا
مبكرًا جدًّا. المقاتلون أو الجنود الجزائريون،
الذين حاربوا في عام ١٩٤٤، ومات كثر منهم -
هم أنفسهم الذين رأتهم أنيت يدخلون مارسيليا -
جُندوا، على الرغم من أنهم ليسوا مواطنين
في فرنسا. كان عليهم أن يقضوا في الخدمة العسكرية
سنتين، لا عشرة شهور مثل
الفرنسيين، ومقابل راتب منخفض.
كلما رجع المرء ببصره إلى الخلف، ازداد الأمر
سوءًا: ولا حتى «الجبهة الشعبية»[١] نجحت عام ١٩٣٦
في تحسين الوضع ولو قليلًا، وفي عام ١٩٥٤
لم يكن بيير منديس فرانس وفرانسوا ميتران،
وزيرا الخارجية والداخلية، من أنصار استقلال الجزائر
بأي حال من الأحوال.

---

(١) تحالف لأحزاب اليسار الفرنسي. وصلت الجبهة إلى الحكم في الجمهورية الثالثة في عام ١٩٦٣. (المترجم).

ترحل أنيت عام ١٩٥٤ إلى الجزائر، لكن ليس
للكفاح، بل: لقضاء عطلة! تذهب إلى أصدقاء.
نلاحظ مع شعور بالراحة أنها تستطيع أيضًا
الاستمتاع بالصيف والإجازة. «الأحداث»،
الأولى منها، تحدث بعدها بعدة أشهر،
في عيد جميع القديسين. (تسعة أعشار السكان
مسلمون، لكن الأعياد الرسمية كاثوليكية:
هل هذا هو السبب لاندلاع «الأحداث» في هذا التاريخ؟)
دعاها أصدقاء يملكون مزرعة
برتقال في ريف الجزائر. تسير الأمور بسرعة:
الجدة أيضًا، «تيتة»، لم تكن أكثر ثراء
من العاملين في هذه المزرعة
هنا؛ على كل حال، لم يتوفر
مشرف على العمال. قفزت الحفيدة قفزةً
إلى عالم آخر؛ بصفتها طبيبة تُخالط أطباء ومحامين
وأساتذة جامعيين، ومُلاك مزارع تقدميين.
الأصدقاء مُلاك المزرعة من الـ*Pieds Noirs*
أو «الأقدام السوداء»، مثلما سُمي ـ لاحقًا
وعلى نحو غامض إلى حدٍّ ما ـ الفرنسيون
المقيمون في الجزائر. يتحدثون
عن أهل البلد باعتبارهم إخوتهم
الذين يحتاجون إلى الذهاب إلى المدرسة قليلًا فحسب،

ليصبحوا أندادًا لهم، لا رعايا مثلما هم الآن؛
وفي الوقت نفسه يوظفون مشرفين، وإداريين في المزارع
ليس العاملون بالنسبة إليهم إخوة مطلقًا.
لا يعرف الأصدقاء شيئًا عن
«الأحداث» التي تشعر أنيت بمجيئها،
والتي تحوم في الهواء منذ فترة بالتأكيد، لكن
الهواء مشبع بشذا زهور التين واللقلقي
والبرتقال، لذا فهو يغطي
على رائحة الثورة المتنامية بالنسبة إلى الذين
لا يريدون أن يشموا شيئًا غيره. وهل بإمكان
المرء أن يعرف قدرَ الوقت الذي يحتاج البشر إليه
حتى لا يعودوا يستطيعون تحمل
البؤس والهوان والقمع؟
في شانغهاي، وفي رواية مالرو «قدر الإنسان»
هناك العامل البلجيكي هِملريش الذي لا يثور
ولا يناضل مخاطرًا بحياته، إلا عندما يذبح
أتباع الثورة المضادة ابنَه الصغير وزوجته.
أشياءُ أخرى غير الجبن، وعلى الأرجح
ليس فقط في الروايات،
تدفع المرء إلى هوة اللافعل.

تخجل أنيت، خلال زيارتها للجانب الآخر من البحر المتوسط

من أن تُعد في عداد أولئك الـ*petits blancs*
أو الـ*colons* الذين يُنظر إليهم بكراهية
شبه علنية. ليست معتادة أن تظهر في مظهر
المهيمنة أو السيدة، ولا تنوي أن تعتاد
ذلك في أي بلد كان، وخاصة
في بلدها، إذ يبدو أن هذا البلد الغريب أيضًا
جزء منه. تتطلع إلى الخدم الذين
يصبون الشاي في فندق «ترانس أتلانتيك»
كأنهم يقدمون السم لضيوفهم. لم تشعر
بالراحة قَطُّ وشخص آخر يخدمها، فهناك
أشخاص يفضلون أن يفعلوا كل شيء بأنفسهم،
ما ليس سهلًا بالطبع في الفنادق والمطاعم،
لكن ما يحدث هنا شيء آخر،
هنا تشعر بأن الخدم يكرهونهم؛
لا يكرهونها هي، أنيت، بل
هي، الفرنسية، التي تجسد الظلم
الذي يعانونه كل يوم. لا تستطيع تحمل ذلك.
وتعود من السفر، بحدس قوي بأن
شيئًا يختمر، وبأن فرنسا
ستفقد قريبًا مستعمرة
أخرى.

من حينها فصاعدًا تبدأ، مثلما فعلت يومًا،
في العمل في المقاومة، ببطء وعلى نحو غير ملحوظ،
لكنها هذه المرة لا تقاوم عدوًّا خارجيًّا،
بل بلدها، وحكومتها، أي تقاوم نفسها
بشكل من الأشكال. لا تزال في عام ١٩٥٤
عضوًا في الحزب الشيوعي. وهناك
لا يهتمون كثيرًا بتلك التطلعات الجزائرية
من أجل الاستقلال (ولكن اهتمامهم بالطبع يفوق
اهتمام أي حزب آخر). فالشعار يقول: «يا عمال
العالم، اتحدوا»، وليس مثلًا:
«انقسموا إلى قوميات جديدة».
«نحن أمة المقموعين العملاقة،
لسنا بحاجة إلى أمة أخرى»: هذا هو تقريبًا
الشعار الذي لم يعد كثيرون، مثل أنيت،
يوافقون عليه.
إنها تريد أن تشجع الجزائريات القليلات
اللاتي يجلسن في ركن خلال أحد الاجتماعات
على المشاركة في الكلام والأفعال، فهذا أمر معقول،
وإنْ كان ساذجًا بعض الشيء؛ لكنْ أنها
تتحدث عن الفلاحين الجزائريين
كأن الدفاع عنهم شأن من شؤون

الحزب مثل الدفاع عن عمال «رينو» أو
مصافي تكرير البترول التابعة لـ«توتال» و«شل»
بالقرب من مارسيليا، فهذا أمر يستوجب
من الحزب أن يوجه لها تحذيرًا.

في الجزائر، أي في فرنسا، لا يمر وقت طويل
حتى تنفجر قنابل، وتندلع حرائق؛
بالفأس والبلطة يهاجم الفلاحون في بعض الأماكن
سادتهم المستعمِرين. تبدأ «الأحداث»،
ولا تتوقف. يُمنع الحزب الشيوعي ـ
في فرنسا حزبان شيوعيان ـ أو على نحو أدق
الحزب الشيوعي في الجزائر،
لأنه يناهض الاستعمار، ويتحالف
مع حركة استقلال الجزائر، أو بالأحرى مع
«جبهة التحرير الوطني»، في حين يظل الحزب الفرنسي الشقيق
يناور طويلًا، وفي مارس ١٩٥٦ يوافق حتى على قرار
حكومة جي موليه، وبحسبه يحكم الجيش الجزائر
من الآن فصاعدًا.

تخرج أنيت من الحزب.

ليست بحاجة إلى انتظار المجر عام ١٩٥٦[1]. كفى.
لكن: ماذا تفعل؟ تتأمل فيما يحدث
عن بعد، الجزائر قريبة، لا يفصلها عن مارسيليا
سوى بحر يعبره عدد متزايد من المجندين،
ليسوا بالضرورة من السادة المستعمِرين،
بل مجرد مساكين. المحظوظ فيهم، أي مَن لديه علاقات،
يعيَّن في الإدارة في مكان ما. يجب
على الآخرين أن يفعلوا أشياء، أو على الأقل أن يعايشوها،
أشياء يفضلون ألا يفعلوها أو يروها، وسيرويها فيما بعد
شهود عيان أو ضحايا، وسيدونونها. لم يعد البرلمان
يستطيع محاسبة الجيش، الذي يفعل
ما يراه صحيحًا: يمارس التعذيب. ويظن
أنه يستطيع بهذه الطريقة السيطرة على الانتفاضة.
تقرأ أنيت عن ذلك في الصحف، ولا
تصدق أنهم باسمها،
أي باسم فرنسا، يعذبون الناس
كي يكشفوا عن أسماء آخرين. لكن ما يحسم أمرها
جملة من كتاب، «ضد التعذيب»، صدر

(١) إشارة إلى الاحتجاجات الطلابية التي اندلعت في بودابست عام ١٩٥٦، وتحولت بسرعة إلى انتفاضة شعبية ضد النظام الشيوعي في المجر، استدعت تدخل القوات السوفيتية التي قمعت الاحتجاجات. (المترجم).

عن دار النشر الكاثوليكية «لو سوي» (وعمومًا
تتصالح أنيت هذه الأيام مرة أخرى مع
الكاثوليكيين، إذ إنهم الوحيدون،
مع بعض المنشقين من الحزب الشيوعي، الذين يساعدون
الجزائريين). تقول الجملة إن هتلر سيكون قد هَزم
الفرنسيين، أي **هزمنا**، هزيمة نهائية إذا سمحنا بحدوث التعذيب
والظلم والمهانة للآخرين في بلادنا
من دون احتجاج. أتكون ربما قد خاطرت
بحياتها من أجل هذا البلد، لكي يستخدم
بعد عدة سنوات طرق «الإس إس»؟
مرارة وغضب. زوجها جو يفكر
تفكيرًا شبيهًا، غير أنه عمومًا أقل اندفاعًا منها،
وحاد البصيرة أيضًا، والصفة الأولى
ترتبط على الأرجح بالثانية. إنه يخشى
أن يهيمن الدين على هذا الصراع، إن آجلًا أو عاجلًا،
وتحديدًا ذلك النوع من الدين
الذي يعتبر نفسه دينًا، لكنه في الحقيقة
وسيلة للوصول إلى السلطة. تتجاهل أنيت
تحذيره، فيذهب أدراج الرياح التي
تُسمى في مارسيليا «ميسترال»
وتهب هبوبًا قويًا. شيئًا فشيئًا
تعتبر الدين أمرًا جيدًا، مثلًا عندما

تفكر في الكهنة العمال أو الـ*prêtres ouvriers* الذين
تقابلهم أحيانًا في المظاهرات، أو الذين يعملون
في المصنع، مثل الماويين الفرنسيين فيما بعد، أو
شعراء ألمانيا الشرقية في اجتماعهم
في أحد مصانع بيترفلد. مَن كان يصدق
أن قدمها ستنزلق إلى شيء يشبه مقاومة جديدة
عن طريق كاهن؟ كما حدث آنذاك،
كانت خطوة صغيرة، ظرف هنا أو هناك،
تحمله معها، مثلما كان يحدث سابقًا،
وبداخله هذه المرة عدة أوراق نقدية. هكذا
يساعدون عائلات المقبوض عليهم
من الجزائريين. ثم تأتي الخطوة التالية.

بعد سنوات أو عقود، يثبت لها
ولنا، أن هذه اللفتات الصغيرة لم تكن صغيرة،
بل إن كل واحدة منها كانت ذات مغزى مهم، وأنها
قادت حياتها من دون أن تشعر إلى حياة أخرى،
لم تكن تريدها بشكل صريح، أو لم تكن اختارتها،
لكنها أضحت في يوم ما حياتها، ولم يعد ممكنًا
أن تستبدل بها حياتها القديمة. عندما تسترجع حياتها
ترى أنها اختارت، وهذا الاختيار بقي خافيًا عليها
وهي تتطلع إلى الأمام، مثلما يتحسس المرء طريقه

في الظلام بخطوات صغيرة، جسيمة العواقب،
لأنه لا يستطيع أن يبقى واقفًا، بل
عليه أن يواصل الحركة. في النهاية فقدت كثيرًا
مما كان مهمًّا بالنسبة إليها. يقولون عندئذ:
«المرء لا يأخذ كل شيء».
لكن بإمكان المرء ألا يأخذ أي شيء.
أيها المثال الأعلى، والأمنية، والهدف، يا بلد المستقبل المبتغى الذي
لا وجود له، هل ما زال لك وجود، هل ما زلت هنا؟
«هنا أنا، هنا!»، هكذا يجيب صوت هامس، مخلص
مثل شعلة أبدية تومض على بعد غير مرئي.

تتحدث المدن العتيقة عن الأخوة،
وفق ما يقوله المؤرخ ميشليه، لكنها تتحدث
عن مواطنين فحسب، عن بشر؛ أما العبد فهو شيء.
ليست الجرائم التي ارتكبها هتلر بحق البشر
هي التي لا يغفرها له في القرن العشرين
البرجوازي المسيحي الإنساني، الراقي للغاية؛
بل جريمته هي أنه وسع المعاملة التي كانت مقصورة
حتى ذلك الحين على الزنوج والعرب والعمال المأجورين،
لتشمل أوروبيين. هذا ما كتبه إيمي سيزير عام ١٩٥٠
في جزر الأنتيل. من الممكن أن نتجادل بشأن
صحة المقولة. في عام ٢٠٠٦ ساد الجدل على كل حال

عما إذا كانت للاستعمار حسنات أيضًا؛ ثم صدر قانون
يُلزم الأطفال بتعلم ذلك في فرنسا، قبل أن يُلغى
في العام التالي. (من الضفة الأخرى لنهر الراين
تتصاعد أصوات مَن يقول إن هتلر قد بنى
الطرق السريعة على كل حال
ووفر فرص عمل كثيرة). الناس
أحرار ومتساوون في الحقوق، وسيظلون كذلك:
أليس هذا اختراعًا فرنسيًّا قديمًا؟
وبين الأطفال الذين يتعلمون في المدرسة
هذا المبدأ، بعض الجزائريين أيضًا،
وهؤلاء يتعجبون يومًا ما بشأن هذا
المبدأ الذي يفتخر به البلد أيما افتخار،
لكنه لا يبني عليه أي بناء. حتى إن الاستعمار
قد تكون له حسنات، وهذا صحيح: عندما
يعلِّم بنفسه أسبابَ منعِه. فلنغلق القوس.

والآن، تشرع أنيت مرة أخرى في شيء
يشبه مقاومة سلطة الدولة، لكن الدولة الآن
ليست محتلة، بل إنها مرة أخرى سلطة احتلال
ومنذ وقت طويل في الجزائر، منذ ١٨٣٠،
صحيح، لكن أحدًا لم يهتم بذلك حتى الآن،
كان لا بد من ثورة أهل البلد أولًا.

تنضم إلى مجموعة من الفرنسيين الذين يقدمون
مساعدة عملية إلى حركة الاستقلال
الجزائرية، المسماة «جبهة التحرير الوطني».
التوقيع على الالتماسات لم يُثر يومًا اهتمامها،
هذا شيء يؤديه آخرون على نحو أفضل،
سارتر بوفوار بروتون ساروت دوراس
فرانسواز ساجان بلانشو تروفو، إلى آخره،
كل المشاهير والشخصيات المهمة، ولكن
إلى أن يستجمع كل هؤلاء قواهم، ويوقعوا أخيرًا
في سبتمبر ١٩٦٠ على التماس، تكون أنيت... لكن
ليس بهذه السرعة، وإلا تلاشى منحنى التشويق والإثارة.
وبمناسبة الإثارة: أليست هذه هي
المحفز بالنسبة إلى أنيت؟ ليس الوحيد
بالتأكيد، لكن، أليس عاملًا من العوامل؟ إن الكيفية
التي يحكم بها الفرنسيون في الجزائر تثير فزعها،
هذا واضح، وهو في الحقيقة سبب كافٍ.
ولكن، ألا توجد أسباب أخرى؟ أسباب
لا تعرف ربما عنها شيئًا؟ وقد نعرفها
نحن؟ كلَّا. كل شيء حسن:
الزوج، الطفلان، الوظيفة. صحيح أن الزوج يخونها
قليلًا في بعض الأحيان، لكن في مثل هذه الحالات
يمكن الانفصال أيضًا. فضلًا عن ذلك، فقد تغلبا

على مشكلاتهما حتى الآن دائمًا. كل شيء تقريبًا حسن،
ومع ذلك... أن تكون مرة أخرى فاعلة مع جماهير
غير مرئية، وذات تصميم، وأن تشعر بالتوحد معهم، مرة أخرى
العمل من أجل هدف كبير في سياق أكبر، مرة أخرى
تحت الأرض، أن تكون في خطر، أن تختفي. مرة أخرى
وضع الرهان كله على ورقة واحدة؟ مرة أخرى
أن تشعر بالخوف وتتحلى بالشجاعة ويحالفك الحظ،
الحياة مرة أخرى. هي في الخامسة والثلاثين.
كل شيء آخر هو مجرد فرضيات.

في ١٩٥٨ تكون «الأحداث» مستمرة منذ أربع سنوات،
ولأن لا شيء يتحسن، فعلى أحدهم أن يساعد،
وهو قد ساعد من قبل ـ ديجول ـ وأن ينقذ فرنسا
في مأزقها، وينقذ الجزائر الفرنسية. في الجزائر العاصمة
يرفع ذراعيه الطويلتين في الهواء،
كأنه يهم بفعل شيء، لكنه يصيح
من شرفة الحكومة العامة بجملته الشهيرة:
«فهمتكم!»، *Je vous ai compris!*
وهي جملة من الصعب فهمها، أو على الأقل
من الممكن أن يُساء فهمها. الجملة الثانية
التي نطق بها بعد يومين كانت أكثر وضوحًا،
ولا تقل عن الأولى شهرة:

Vive l'Algérie Française!
«تحيا الجزائر الفرنسية!». لا تنتظر أنيت
الجملة الثالثة، وتبادر بالخطوة القادمة التي تقودها
إلى مجموعة صغيرة من الفرنسيين
دخلت التاريخ منذئذ تحت اسم
«حاملو الحقائب»، أو «شبكة جانسون»
réseau Jeanson. في هذه الحقائب
أوراق مالية، نقود، ضريبة الثورة التي تجبيها
جبهة التحرير الوطني لنضالها ضد الدولة
وضد المحتلين عمومًا. يجمع جزائريون الأموال
من جزائريين، ولكن حتى تصل بأمان إلى باريس،
ثم إلى الخارج، أي ـ كما هو معتاد في الأمور المالية ـ
إلى سويسرا، هناك أنيت ومسافرون فرنسيون
آخرون يحملون الحقائب. وفي هذه الحقائب
ملايين تحتاج إليها جبهة التحرير الوطني
حتى تواصل دعم شبكتها التي أضحت واسعة النفوذ
وكذلك هياكلها العسكرية. بين الأشياء الكثيرة
التي لا تعرفها أنيت في هذا السياق
والتي لا يعلمها في تلك الأيام سوى قليلين،
أن الملايين المودعة في سويسرا هي
في حسابات البنك التجاري العربي
الذي أسسه وأداره فرانسوا جنو

الذي كان مُعجبًا بهتلر، ومساعدًا للنازيين،
وناشر مذكرات جوبلز. لدى هذا الرجل دافع
لتقديم المساعدة للمسلمين أيضًا، اسمه:
«كراهية اليهود». هل كل شيء تفعله جبهة التحرير الوطني،
بالملايين التي جمعتها أو بغيرها، جيد؟ بالتأكيد لا. أليس
هدف الاستقلال، أهم ما تسعى إليه الجبهة، حتى
إن خالفت القوانين السائدة، هو بالرغم من ذلك
هدفًا صائبًا وعادلًا؟ بلى. وهل يستحق هذا الهدف
التضحية بالنفس في سبيله؟ مرة أخرى تجيب أنيت بـ«نعم».
عليها أن تغض البصر عدة مرات خلال ذلك،
مثلًا، كي لا ترى أشلاء الأطفال
الذين يُقتلون في الاعتداءات على البارات والترام
في الجزائر العاصمة وأماكن أخرى. هل هناك طرق
أكثر سلمية لبلوغ الاستقلال؟ هل تبدي فرنسا استعدادًا،
مجرد استعداد، للاستجابة
لمطالب الاستقلال؟ كلَّا. في النهاية يعترفون للبعض
بحق الانتخاب، ويوافقون على بناء بضع مدارس،
وهذا هو كل شيء. بالرجاءات والتوسلات
لا يربح المرء شيئًا. تواصل أنيت حمل
حقائبها التي تُدفع منها أيضًا رواتب
جبهة التحرير الوطني ورواتب حاملي الحقائب.
عن نفسها، رفضت تلقي الأجر.

لقد حصلت على إجازة من وظيفتها في المستشفى
في مارسيليا، لكن زوجها يكسب كطبيب ما يكفي
لشخصين، وهو موافق على ما تفعله.
تسافر كثيرًا: يجب إحضار الحقائب بدايةً
من المناطق الريفية إلى العاصمة. خلال ذلك
يعتني بولديها الصغيرين، إليز ولوسيان،
زوجان صديقان، يؤويان كذلك شخصيات مختلفة
من جبهة التحرير الوطني، ويسكنان الآن لدى جو وأنيت.
ولكن، بالعودة مرة أخرى إلى الحقائب: الضرائب
واجبة على الجزائريين، وتحديدًا داخل الجزائر
وأيضًا في «المتروبول»، مثلما يطلقون
على فرنسا الأصلية، الحقيقية، أو أيضًا «الوطن الأم»
mère patrie، كأن فرنسا بالنسبة إلى
عمال مصانعها ووقود مدافعها ليست فقط
أبًا صارمًا ولكن عادلًا، بل أيضًا
أمٌّ تعتني بأطفالها. من عامل المناجم
الذي يهبط يومًا بعد يوم في مناجم الفحم بإقليم لورين،
مرورًا بالعامل في مصانع «بيجو» أو التاجر
من وهران، وصولًا إلى البدوي في سهوب
غرب الجزائر، على كل شخص يسمي نفسه
«وطنيًّا» ـ كما على الآخرين أيضًا ـ أن يساهم في تكاليف
الانتفاضة أو الحرب. وإلا فإنه يواجه تهديدًا

بالقتل في بعض الأحيان، إذا امتنع عن الدفع،
أو دفع للشخص الخطأ؛ فهناك المنظمة الأقدم،
والأكثر اعتدالًا، «الحركة الوطنية الجزائرية»
التي لا بد أيضًا أن يكون لها مورد كي تعيش،
وكي تناضل على وجه الخصوص. الأمر يدور هنا
حول أموال كثيرة، وحول النفوذ
في الجزائر عندما تستقل فيما بعد.
هذا هو الوضع. هل يمكن أن يكون مختلفًا؟
«الثورة تأكل أبناءها»، هذه بالتقريب
إحدى الجمل الشهيرة التي نطق بها عام ١٧٩٣
فِرنيو، أحد زعماء الجيرونديين في الثورة الفرنسية،
وبعد أربعين عامًا أدخلها جيورج بوشنر
في إحدى مسرحياته. وما الجملة التي
تسبقها؟ إنها تقول: «إنه مبدأ غريب،
يقولون لنا: «أنتم أحرار، ما دمتم
تفكرون مثلنا، فإذا لم تفعلوا فهناك
ما نطلق عليه «انتقام الشعب»»!» (الاقتباس والترجمة
بتصرف). الثورة تأكل أبناءها مثل الإله ساتورن،
هذا صحيح، لكن بخلاف ساتورن فإنها لا تلفظهم أحياء
بعد مرور سنوات، بل تبصق عددًا متزايدًا من القتلى
هم أبناؤها وأحفادها. وهؤلاء القتلى ليسوا
الأعداء الحقيقيين، إنهم أنداد، أو، ببساطة،

مجرد عابرين. أنصار حزب الجبل[1] ضد الجيرونديين،
جبهة التحرير الوطني ضد الحركة الوطنية الجزائرية،
حروب أهلية دموية، قتلى فوق قتلى.
في ثماني سنوات تقتل جبهة التحرير الوطني
تسعة عشر ألف مدني تقريبًا، منهم أكثر من
ستة عشر ألف جزائري. مَن يشاهَد وهو
يحتسي الخمر، عليه أن يدفع أيضًا،
راتب شهر أو شهرين، هذا ما يقوله الشهود
على كل حال. جبهة التحرير الوطني تريد الاستقلال،
وتريد أيضًا الاشتراكية والإسلام، لكن الأخير
ليس واضحًا للجميع في البداية. لماذا تشاركين
في ذلك يا أنيت، لماذا تخاطرين بحياتك
من أجل هؤلاء الناس؟ ستقولين: «ليس
من أجل هؤلاء الناس، بل من أجل الجميع، من أجل
البشرية، من أجل مبدأ المساواة والعدل،
من أجل غاية». أنيت! الغاية مجرد
تخاريف كبيرة جميلة، لكنها ليست تقديسًا
للوسيلة. ماذا تريدين؟ الحرب دائرة، ثورة،
وحش، آلة ضخمة لم يعد بالإمكان إيقافها،

(١) معظم أعضاء «حزب الجبل» كانوا من اليعاقبة، ومن زعمائه مارا ودانتون وروبسبيير. (المترجم).

ماكينة حصاد تزن ربما عشرين طنًّا، مَن لا
يقفز بسرعة جانبًا... وهي أيضًا لا تعرف
ما نعرفه نحن، وما تعرفه هي الآن؛ لا أحد
كان يعلم آنذاك الأرقام المذكورة. تعلم فحسب
أن بعض الأشياء تسير في الطريق الخطأ،
لكن أليس ذلك أمرًا لا يمكن تجنبه؟
اتجاه السير تعرفه، ليست بحاجة إلى بوصلة
ولا إلى نصيحة، لكن على الطريق يحيد أحدهم
مرة بعد أخرى عن الهدف، أو يحول دون أن يصل آخر قبله،
هذا هو الوضع؛ هو هكذا دائمًا ولا يمكن تغييره.
تتقبل ذلك. هدف الرحلة
ما زال بعيدًا. تحمل الحقائب. في سورين، إحدى
ضواحي باريس، يلعب مطبخٌ
دور المصرف في خدمة بلد لا وجود له: هنا،
عند الممثل جاك ريسبال وزوجته إيفون،
تتكوم كل المدخرات الجزائرية.
ذات مرة تقع أنيت في حبائل أحد المحتالين
الذي ينجح بمهارة في الاستيلاء على كمية
من هذه الكنوز، لكن ذلك أيضًا لا يمكن تجنبه،
المرء يغضب غضبًا لانهائيًّا، ثم يهز كتفيه.
كان ريسبال في السابق، مثل أنيت، في المقاومة،

كلاهما ساعد يهودًا ملاحَقين؛ والآن يساعدان مسلمين.
في عيونهما فإن الأمر متواصل ببساطة. بالطبع
هناك اختلافات، لكنهما يريان أيضًا القاسم المشترك
ويُعدان مساعدتهما لجبهة التحرير الوطني دَينًا وواجبًا.
ما أهون نقل بعض الأوراق المالية إذن.

لا يمر وقت حتى تخطو أنيت خطوة أخرى إلى الأمام.
المجموعة الصغيرة حول فرانسيس جانسون
تتسم بعدم الانضباط في رأيها. هذا
التهاون لا يعجبها؛ قواعد الحيطة التي سادت
لدى المقاومة السرية ما زالت تجري في عروقها. لكنْ
هناك شيء آخر. ما يفعلونه صائب،
هذا أمر واضح، وجانسون شخص جيد، لكن،
أيحتاج فعلًا إلى «مرسيدس» كـ«سيارة عمل»؟
وأشياء أخرى، ليست متأكدة، لكن
الطريقة التي يلوح بها للخادمة بورقة مالية
كي تحضر له زجاجة ويسكي، بالتأكيد
ليست أمرًا سيئًا، لا شيء غير معتاد،
لكن شيئًا كهذا يثير الضيق في نفس أنيت. غير مهم
أيضًا. هناك مبادئ/ أفكار عظيمة، وهناك خصال البشر
وأفعالهم. في أفضل الأحوال يتلاقى الأمران. لكن

في معظم الأحيان، أو في بعضها، لا يتلاقيان.
ربما تكون أنيت حساسة أكثر من اللازم.

إلى ذلك: لماذا يجب على المرء أن يظل بين الفرنسيين، إذا كان يريد مساعدة الجزائريين المناضلين؟ توافق على تجنيدها على يد رجل من جبهة التحرير الوطني وتكلَّف بأن تصبح اليد اليمنى، أو رسولة، لأحد المسؤولين عن منطقة جنوب فرنسا أو «ولاية الجنوب»، واسمه المستعار «جورج» ـ بدلًا من «محمد»، كما ستعرف لاحقًا ـ وهي وظيفة تعرفها جيدًا من أيام المقاومة. (الولاية تشبه الإقليم. بذلك يتعامل الجزائريون إداريًّا بالمثل، فيقسمون فرنسا إلى وحدات إدارية جزائرية، كأن الأمة الجزائرية ـ التي لم تتكون بعد ـ ضمتها، كما قسم الفرنسيون من ناحيتهم الجزائر إلى أقاليم فرنسية). تنظم أنيت المأوى لعدد كبير من الأشخاص. على رئيس جبهة التحرير الوطني في جنوب فرنسا أن ينام كل ليلة في مكان مختلف، ناشطون آخرون يتحتم عليهم الاختفاء، ولا بد من إمكانية اللقاء السري في أماكن آمنة.
بعد فترة وجيزة تجد أنيت نفسها تحمل معها

سلاسل مفاتيح ثقيلة، كأنها المشرفة على
مدرسة كبيرة. عبر أصدقاء وزملاء ورفاق
سابقين تحصل على مفاتيح عديدة لشقق ثانوية،
أو أكواخ مبنية على البحر، أو عربات تخييم.
المخاطرة التي يتحملها أصحاب المفاتيح هي في حدها الأدنى،
لأنهم في النهاية سيزعمون أنهم لم يكونوا يعرفون،
كيف كانت أنيت تستخدم أماكن السكن، لكنها
مخاطرة، وهي تبين، حتى إن لم يكن المرء يريد
أن يخاطر بحياته من أجل الجزائر،
أن التضامن سمة لدى عديد من الناس في دوائر معينة.
فيما عدا ذلك ينحصر دور أنيت في توصيل
جورج بالسيارة، وأحيانًا أعضاء آخرين أيضًا
في جبهة التحرير الوطني، إلى هذا المكان أو ذاك. أهذا
هو كل شيء؟ المخاطرة ليست كبيرة جدًّا
عندما يوفر المرء السكن للبعض أو يوصلهم بالسيارة.
قد يظن المرء ذلك. لكن هؤلاء الناس
إرهابيون، أو يُنظَر إليهم على أنهم كذلك.

في عهد ديجول، الرئيس الجديد القديم للجمهورية،
ومثلما كان يحدث في عهد سلفه،
يعذَّب عدد غير قليل منهم بعد اعتقالهم.
أندريه مالرو، بطل أنيت في صباها، ومبدع

شخصية الإرهابي الشاب تشن، يصبح عام ١٩٥٨
وزيرًا في حكومة ديجول، في وزارة الإعلام،
ثم في وزارة تُنشأ خصوصًا له كي يمارس فيها هوايته:
الثقافة. يقول: «لا تعذيب بعد اليوم»،
لكن التعذيب ما زال يمارَس، ليس فقط في الجزائر،
حيث لا يراه أحد، وحيث يؤديه الجيش،
بل أيضًا في أقسام الشرطة الفرنسية،
وفي المخابرات، مثلًا في باريس
في شارع دي سوسيه، رقم ١١، حيث كان،
في زمن ليس بالبعيد، يمارَس التعذيب أيضًا، وتحديدًا
عندما كانت البناية أحد مقرات الجستابو.

بإمكان الدولة التي تستخدم طرق الجستابو
أن تحظى بوزراء مثل مالرو كما تحب:
أنيت لا تدين لها بالطاعة مطلقًا.
إنها تطيع وصية العصيان، وهذا ما
يقودها في عام ١٩٥٩ إلى الطرق الزراعية
أو *routes départementales* في جنوب فرنسا. خلافًا
لعملها في المقاومة، فإن أحدًا يجلس بجوارها
دائمًا الآن، يتحدث معها، ويشرح لها نشأة
جبهة التحرير الوطني وأهدافها، نعم،
معه تستطيع أن تتحدث عن كل ذلك،

وعن أشياء أخرى. ما دام جورج وهي
يسافران في هذه الشوارع الضيقة، فهما إلى حدٍّ ما
في أمان، لكن بمجرد أن يترجلا ـ وهو أمر لا مفر منه
في بعض الأحيان ـ يكونان عرضة للمخاطر، ولهذا فإن أنيت
ليست فحسب رسولة وسائقة ويدًا يمنى، لكنها أصبحت أيضًا
باحثة اجتماعية، وتهتم بمجال بحث خاص: الملابس.
باستخدام كل فنون الإقناع تحاول أن تجعل
رجال جبهة التحرير الوطني الذين تتعامل معهم،
والذين وصلوا إلى فرنسا من مدة ليست بعيدة،
يتخلون عن ارتداء ملابس كالتي يرتديها القوادون،
وتصفيف شعرهم إلى الخلف، وانتعال أحذية لامعة
ولبس السترات الضيقة على الصدر، اللامعة، المصنوعة من
الحرير الاصطناعي. لقد تركوا ملابسهم على
الضفة الأخرى من البحر المتوسط، ويظنون أنهم
يبدون في مظهرهم الجديد مثل الفرنسيين، في حين أنهم
لن يكونوا سوى فريسة سهلة للشرطة.
من يريد، أو بالأحرى من يقبل،
تحوله أنيت إلى كائن لا يلفت الانتباه كثيرًا.
مثل هذه الصعوبات واجهتها مرة
مع رئيسها الذي تقود السيارة له: كان عليها
أن ترافقه إلى سان تروبيه، حيث تلتقي باريس كلها،
أي بريجيت باردو وسارتر. من أجل ذلك، يحتاج جورج

إلى سروال جديد، وتيشيرت مخطط
بلا أكمام وفق الموضة الحالية، وقد أبدى استعداده،
بعد إقناع طويل، لأن يرتديه أيضًا
ولكن تحت القميص في أحسن الأحوال،
أي على خلاف الموضة تمامًا، وبذراعيه البيضاوين
اللتين تنتهيان بيدين داكنتين تثيران الشبهات،
وقد كان محقًّا في نهاية المطاف في شكوكه. مثلما يحدث كثيرًا
فإن كل شيء يبدو في الحقيقة مضحكًا فيما بعد،
وبالتأكيد الأمر لا يخلو من ألعاب وبراءة،
إذا كان من الممكن التحدث في هذا السياق
عن ذلك. لا يفكرون في كل لحظة
في الخطر المحدق بهم، مثلًا هنا في سان تروبيه ـ
مَن صاحب فكرة أن يتواعدوا تحديدًا في مكان
تتوجه إليه الأبصار نهارًا وليلًا؛ أبصار
المصورين والشرطة والصحفيين، وكل
عيون فرنسا؟ لكن ربما يتمتعون هنا
تحديدًا بالأمان، أو بأمان أكثر من أي مكان آخر،
لأنه لن يخطر على بال أحد، هنا، حيث
يظهر بشكل دائم أشخاص لا يبحث عنهم أحد، أن يختبئ
أحد الذين تبحث عنهم الشرطة. كل شيء ينتهي بخير.
(كيف ينجح جورج من دون قصد في إثارة إعجاب
أنيت: في رأيه فإن ملابس القيصر الجديدة

ليست سخيفة فحسب، بل أيضًا غالية جدًّا).

في السادس عشر من سبتمبر ١٩٥٩ يتغير مسار
التاريخ. بعد مائة وثلاثين عامًا من الاحتلال
وخمس سنوات من الحرب، يعلن شارل ديجول عبر
موجات الراديو والتلفزيون أن الوقت قد حان
لسؤال الجزائريين ما إذا كانوا يفضلون
أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم
أو أن يظلوا تحت حكم فرنسا.
تثور ثائرة الـ*Pieds Noirs*، أو الفرنسيين
في الجزائر: أليست النتيجة واضحة،
عندما يُسأل تسعة أعشار
السكان ما إذا كان على العُشر الباقي
أن يستمر في تقرير مصيرهم؟ أيجب على المرء
أن يسأل من الأساس؟ لكن رويدًا رويدًا.
لم نصل بعد إلى هذه النقطة قَطُّ.
استفتاء حق تقرير المصير لن يُجرى
إلا عندما يسود السلام ثانية،
بالأحرى: بعد أربعة أعوام من ذلك على أقصى تقدير.
والسلام يسود، وفق ديجول، عندما لا يلقى
أكثر من مائتي شخص في العام حتفهم
في الاعتداءات أو الكمائن.

أي أن ذلك ما زال في علم الغيب،
لكن لأول مرة يتحدث أحدهم عن:
«حق تقرير المصير». في الوقت نفسه يخوض ديجول،
أو بالأحرى تخوض قواته تحت قيادة الجنرال شال،
حربًا أقسى من أي وقت مضى، حتى يكون بمقدورهم،
عندما يحين الوقت ويكون الاستقلال على الأبواب ـ
ما سيحدث حتمًا، عاجلًا أو آجلًا ـ التفاوض
بشكل أفضل؛ الأمر يدور حول تجارب نووية
وبترول في الصحراء. في هذا العام وحده
يُهجَّر مئات الآلاف من الجزائريين؛ عائلات، أطفال،
قرى بأكملها، ويُسجنون في معسكرات،
ويُفصلون عن أرضهم ـ وعن «البارتيزان»،
وهذا هو الهدف ـ ويموت المئات
جوعًا في كل يوم. يتحدث ديجول عن
السلام وتقرير المصير. يبدو كلامه مستهزِئًا،
وهو أيضًا مستهزئ، لكنه في الوقت نفسه يعني تقدمًا.

كل هذا وأكثر يدور حوله الحديث بين
أنيت وجورج خلال رحلاتهما عبر الريف.
تثق بالرجل وبالحركة، أي
بجبهة التحرير الوطني، لكنها لا تعلم عنها

سوى الفرع الفرنسي الجزائري. غير أنهم
شكلوا بالفعل حكومة جزائرية مؤقتة،
مقرها تونس، مثلما كان ديجول آنذاك
يستقر في لندن، وهذا ما يولد صراعات من كل نوع،
يتناقشون ويتجادلون بحدة، وهو ما يثير غالبًا
تعجب أنيت، لأنها لا تعرف من الحركات السرية
إلا الطاعة الصامتة في معظم الأحيان. «سوف تكون
(على حد قول أنيت) دولة حديثة، ديمقراطية،
ثورية!». هي وجورج في رحلة بالسيارة
على طريق منحدر، حافل بالحُفر
ويكاد يكون ضيقًا بالنسبة إلى عربتهما؛
ليست هذه صورة بلاغية، لكنها ببساطة
وصف لهذا الطريق الذي قد يَصدم فيه رجلٌ طويل
رأسَه بسقف العربة بسهولة. ينكمش
جورج قليلًا، ويدندن لحنًا يكاد يخلو
من الهموم والأفكار، ثم يلاحظ فجأة أنها
أغنية كان يجب عليه أن ينشدها في قسنطينة
وهو صبي في المدرسة في أثناء وقوفه مشدود القامة
أمام العلم الفرنسي: *Maréchal, nous voilà!*
«ها نحن، أيها المارشال (بيتان)، يا منقذ فرنسا»،
إلى آخره. ما أكثر ما لقنوه!

لكن أنيت تأتي الآن بسيارتها
وتهز كل شيء لتُخرجه من رأسه ثانية.

أحد العضوين الآخرين في جبهة التحرير الوطني،
اللذين يجب عليها أن ترافقهما إلى هذا المكان أو ذاك،
اسمه المستعار «بول» (والحقيقي «يونسي»)،
وهي ترتاب فيه منذ الثانية الأولى.
في فترة العمل السري بالمقاومة
تكوَّن لديها مبكرًا إحساس
ينبئها بصورة مؤكدة إلى حدٍّ ما،
بمَن تثق، وبصورة خاصة بمَن **لا** تثق.
لا تثق ببول. تراه بنظرة الطبيبة
الباردة المتفحصة، ويتضح لها أنه
شخص لديه مشكلات ستنتقل سريعًا
إليها. في بعض المواقف في آرل،
وفي أفينيون، وفي نيم، يسلك سلوكًا
أكثر من غريب، لذا تحاول بحذر
أن تلفت انتباه جورج إلى أن
شيئًا ما غير مضبوط في بول، لكنه
لا يصغي إلى تحذيراتها، بل ينتابه بالأحرى
الغضب، وربما يزيد غضبه عندما
تتولد لديه بعض الشكوك بخصوص صدق

بول، لكنه لا يجد أدلة ملموسة. وهكذا
يسير كل شيء في مساره، يسير في مساره فيما بعد
مرة تلو أخرى، وفي معظم الأحيان ببطء،
وبعدسة مكبرة مصوبة على التفاصيل التي لم تعد
الآن تفاصيل، بل ما يمكن اعتباره
يد القدر الذي يستخدم شخصًا ما
اسمه «باول»، مثلما يستخدم شخصًا اسمه «بول»، أو «مارك»
أو «ماتيو»، لأنه ينوي شيئًا محددًا،
وللوصول إلى غايته فكل شيء مباح، الوسائل والرجال؛
إنه بارع، ويجيد استخدام كل الحيل، ومع ذلك
فقد كان عليها أن تكشفه،
وكان بمقدورها ذلك، ولو كانت أكثر حيطة
أو لو لم تكن أنيت، لكان باستطاعتها
ربما أن تهرب من ذلك القدر.

تقود السيارة مثلما يطلبون منها،
وبها يونسي، واسمه المستعار «بول»،
إلى أليس في نواحي مونبلييه، وفي الطريق
إلى هناك تتوقف ثلاث مرات، ما يثير لديه
قلقًا لا يكاد يخفيه؛ تتوقف لأنها، ببساطة،
تشعر بالغثيان. لا يبدو مهتمًّا بصحة
سائقته قدر اهتمامه بشيء آخر:

ماذا يحدث إذا لم تعد تستطيع القيادة، إذا
أخفقت المهمة؟ لكنه عندما يعلم أنها
ليست مريضة، بل حبلى فحسب،
يهدئ ذلك من مخاوفه. تريد أن
توصله حسب الاتفاق، ثم تواصل القيادة، لكن عليها
أن تنتظره طويلًا في منزل ناءٍ، لدى عائلة
يدَّعي أنها عائلته.
يعود برسالة إلى جورج،
عليها أن تسلمها له في الأمسية ذاتها،
وتلاحظ، مثلما فعلت أكثر من مرة،
أن يونسي يحاول أن يعرف منها كيف،
بمعنى: عبر أي طريق، ستقود جورج
إلى العاصمة في الصباح التالي. هل هذا الرجل
مشبوه فعلًا، أم أنه ببساطة يثير اشمئزازها فحسب؟
تتظاهر بأن الطريق لم يُحدَّد بعد.

وهل حُدد؟ هل
قررت في أي اتجاه
ستسير في اليوم التالي؟
تقف على حافة عالية في تلك اللحظات،
من دون أن تعلم، لأن تلك الحافة
يلفها ضباب لن ينقشع إلا متأخرًا جدًّا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نراها واقفة ترنو إلى الأمام
من دون أن يهتز لها جفن. ترى الابنين
الصغيرين، جيلو وجان-ري، وترى البنت،
التي لم تحصل على اسم بعد، وتنام جنينًا
تحت قلبها مثل الأميرة النائمة، ترى
زُرقة البحر المتوسط القوية، وجو،
أبَ أطفالها. ثم تُظلم الدنيا.

في الصباح التالي تنطلق مع جورج بالسيارة
على الـ*Nationale Sept*، الطريق السريع رقم ٧
الواصل بين باريس وكوت دازور. وهو
أمر مدهش جدًّا لأنها منذ ما يزيد على
نصف عام تسافر بطول فرنسا وعرضها، ودائمًا
في أصغر الطرق. حتى الآن كان جورج
يترك لأنيت أن تحدد أي الطرق هي الأكثر أمانًا
للوصول إلى مكان ما. في هذا الصباح
يذكر لها لأول مرة الطريق،
ومن الواضح ـ عند النظر إلى الأمر لاحقًا ـ
أن لذلك علاقة بالرسالة التي حصل عليها
في العشية السابقة من بول.

على القدَر أن يقبل أن نؤجل ذلك

دقيقتين، لا سيما أنه قد ضرب ضربته،
وأن نفتح قوسًا: الطريق السريع الذي يسيرون عليه
هو أشهر طرق فرنسا،
وهو معروف باسم «طريق الإجازات»، ومعروف عبر
أغنية مرحة لشارل ترينيه، كانت في عام ١٩٥٩ جديدة تمامًا
وتحمل اسم الطريق: *Nationale Sept*
إذا انطلق المرء من باريس تجاه الجنوب على هذا الطريق
وواصل السفر في الاتجاه نفسه حتى يختفي
الطريق ويصبح بحرًا، ثم بعد ذلك
قارة أخرى، أي لا يعود سوى اتجاه، وفي هذا
الاتجاه في تلك القارة الأخرى
إذا واصل المرء القيادة ألفي كيلومتر، عندئذ
يصل إلى أقصى جنوب الجزائر، وتحديدًا إلى
مدينة يسكنها البربر ولا ترد في أغنية ترينيه:
تمنراست. في هذا المكان النائي، أو
على مقربة شديدة منه، تُجري فرنسا في فبراير ١٩٦٠ ـ
ثلاثة أشهر بعد اليوم الذي كانت فيه أنيت
مع جورج على الطريق السريع رقم ٧ ـ
أولى تجاربها النووية. تحت اسم
عملية «الجربوع الصحراوي الأزرق»
يأمر ديجول بإلقاء قنبلة في الصحراء،
تبلغ قوتها ثلاثة أضعاف تلك القنبلة التي

تحمل اسمًا شاذًّا هو «الولد الصغير» (هيروشيما). ليست
الجرابيع الصحراوية، وكما يعلم كل شخص ـ حتى إن لم يرَ
مرة هذه القوارض الصغيرة ـ زرقاء.
وكما لا يعرف كل شخص ربما، لكنه
قد يتصور ذلك، فإن الجرابيع رملية اللون.
الأزرق الوحيد في رمال الصحراء الكثيرة
هو العمامات، أو شاش الطوارق الذين يعيشون هنا
منذ العصور القديمة، ولذلك يطلق عليهم الأوروبيون
«الرجال الزُّرق». من هؤلاء ومن أطفالهم
ونسائهم يموت الآلاف. لا توجد أرقام دقيقة
عن الموتى أو المصابين بالإشعاعات. تمنراست.
لا يتغنى شارل ترينيه بهم. إنهم يموتون
بعيدًا جدًّا، وبعيدين بصورة خاصة وبالأساس
عن الطريق السريع رقم ٧.

في مطلع نوفمبر ١٩٥٩ يُلقى القبض على
جورج وأنيت في الطريق المذكور. من سيارة مرسيدس
تجاوزتهما اقتحمتهما ثلاث نظرات، وانتهى
الأمر. بعد عدة مئات من الأمتار كانت الحواجز
ذات المسامير في انتظارهم، حسنٌ، حسنٌ، سنتوقف.
«ما اسمك إذن؟»، ما زال لدى أنيت بعض الوقت
لتسأل المسافر معها هذا؛ لكنها لا تعني اسمه

الحقيقي، ولا «جورج»، وهو الاسم
الذي تعرفه، بل الاسم المكتوب في الوقت الحالي
في أوراقه المزورة. شيء ما ينتهي بـ«ـبير»،
«روبير» ربما أو «ألبير». لن تعرف اسمه الحقيقي
إلا في السجن، وهذا الاسم تستطيع أن تقول بكل صدق،
على عكس رجال الشرطة، إنها لم تسمعه قَطُّ:
«محمد دقسي». ما لا تسمعه من رجال الشرطة، على الأرجح
لأنهم لا يعرفونه بعد، هو اسمها هي.
لم يكتشفوا الاسم الحقيقي المتخفي
وراء الأوراق المزورة. يخاطبونها بـ«مدام»،
في حين ينادون دقسي بلا ألقاب ولا احترام، فهو عربي،
هي لا، الأمر واضح ولا يحتاج إلى فحص أو بحث.
مرحاض مؤقت سيصبح آخر مخبأ، أو بالأحرى
قبرَ سلسلة المفاتيح السميكة التي لا تزال أنيت
تحتفظ بها. حتى تصل إلى المقر الأخير للمفاتيح
يقودونها عبر فناء حيث ـ لدهشتها الشديدة ـ
تجد سيارتها «مفكوكة ومبعثرة الأجزاء مثل
قطع غسيل على أحد المروج» (على حد قول أنيت). تفكر
في ولديها، وكم سيشعران بالبهجة
لو أُتيحت لهما فرصة اللعب في ورشة كهذه. وفجأة
يسودُّ كل شيء. ما كان مستقبلاً،
لم يعد سوى وقت طويل فارغ وميت، لن تنفذ إليه

ضحكات الأطفال، ولا الشغف، ولا أنفاس
البحر العميقة. ترى كل شيء أمام عينيها،
لأنها فجأة تستطيع رؤية ذلك، وتعرف ذلك. ألم
تكن تعرف ذلك من قبل؟ أكانت عمياء؟ كانت تعرف
وقبلت بالمخاطرة، بل كانت حتى تعرف بدقة إلى حدٍّ ما
كم سنة في حياتها قد يكلفها استقلال
الجزائر، واستقلالها هي كامرأة في ظروف معينة؛
لكن ماذا تعني المعرفة؟ بالطبع،
يعرف المرء أنه قد يتسبب في حادثة،
عندما يقود سيارة، وقد يموت أو يفقد
ساقيه ويعجز عن السير بعد ذلك. المرء يعرف، لكنه
لا يفكر في ذلك، وإلا لما جلس أحد خلف عجلة القيادة.
أكانت ستنضم إلى المقاومة لو كانت
تعرف ـ بهذا المعنى الآخر للمعرفة
الذي لا يعود يفرق بين
تصور شيء والخبرة الحسية
والذهنية لذلك الشيء ـ أي لو
عرفت ما التعذيب، أو الموت بالغاز، أو
أن تقتلك فرقة إعدام رميًا بالرصاص؟

المستقبل لا ينكشف في معظم الأحيان، لحسن الحظ،
إلا بوصفه لحظة تالية، وهذه اللحظة المستقبلية

تتطلب حاضرًا، وتحديدًا الذهن الحاضر. ما يهم
في البداية هو التحمل فحسب، أطول فترة ممكنة،
على الأقل حتى هذا المساء، من دون إفشاء اسمها
أو أي اسم آخر قد يقود إلى زوجها، لأنه هو الآخر،
يتجول في العاصمة حاملًا حقيبة. الطفلان
وحدهما في البيت مع الوالدين الاحتياطيين، إليز ولوسيان؛
الوالدان الحقيقيان كلاهما خارج المنزل،
الأب في مهمة، والأم في أحد الأقبية، أو بالأحرى
في غرفة التحقيق لدى الشرطة، في قصر أسقف
مارسيليا، حيث استقرت الشرطة منذ الانفصال،
أو منذ أن تبادلت الكنيسة دورها مع الدولة
في مطلع القرن. باعتبارها «فتاة العرب اللعوب»
تنال على الفور عدة صفعات، ثم يأتي شخص
بسلوك أفضل، تشرح له، أو تحاول
أن تشرح له لماذا تعارض قمع الشعوب
الأجنبية، ولماذا تساند تحديدًا جبهة التحرير الوطني.
تتكلم، وتتكلم، ويبدو الأمر فعلًا (على حد قول
أنيت) كأنها «تقابل نفسها»
كشخص يثير السخرية بعض الشيء، يستخدم
الكلمات الكبيرة التي يمكنها أن تفخر بها،
وهي حقًّا فخور. الجالس أمامها يهز كتفيه فحسب.

في أعقاب ذلك: تفتيش المنزل. باستثناء
القناعات الراسخة فإن ستة أو سبعة من رجال الشرطة
يقلبون كل شيء رأسًا على عقب. تعلم أنيت هذا: ما فعلته،
كان صائبًا. ربما لا يكون القانون في صفها،
لكن العدالة معها، ليست لديها في ذلك
ذرة من الشك. أيجب عليها أن تشك؟
بينما يعمل مرتدو الزي الرسمي، ويقلبون
الأدراج والمراتب، وبينما تحاول أنيت
أن تشرح لطفليها أن عليها بعد ذلك
أن تذهب مرة أخرى مع رجال نقل الأثاث هؤلاء،
فلنلقِ نظرة على الأرفف التي تقف عليها
في صمت الكتب الكثيرة التي جمعتها مع جو،
وقرآها على مر السنين. لقد انتزع الموظفون
بعضها من أماكنها، وهزوها،
ثم استسلموا، فالكتب كثيرة جدًّا
بالنسبة إليهم. فلنسحب كتابًا منها
إذا لم يكن بينها، فمن الممكن أن يكون بينها على كل حال:
L'homme révolté أو «الإنسان المتمرد»
لكامو، ولنفتحه: «أيًّا كانت صحة
الهدف الذي يدافع المرء عنه، فإنه
يصبح مشينًا إذا وقعت

مذبحة لجموع بريئة، يعرف القاتل فيها
منذ البداية أنه سيقتل أيضًا نساء وأطفالًا».
لنُعِد الكتاب إلى مكانه في الصف،
ولنتناول آخر: روسو. «لا شيء
على هذه الأرض يستحق أن يُشترى
بدماء البشر». وكتاب ثالث يسرد فيه
كروبوكتين، الأناركي، قصة إعدام القيصر الروسي:
«كان ألكسندر الثاني يرقد هناك فوق الثلج،
بعد أن خذله مرافقوه. كل مَن حوله
ولى الفرار. بعض طلاب المدرسة العسكرية الذين أتوا
لتوهم من عرض عسكري، رفعوا
القيصر المحتضر من على الأرض،
ووضعوه على زحافة، ثم فردوا
معطفًا عسكريًّا على الجسد المرتعش. ومعهم
أسرع أحد الإرهابيين، إمليانوف ـ وما زالت قنبلته،
الملفوفة بالورق، تحت ذراعه ـ لمؤازرة
الرجل المصاب إصابات جسيمة». نهاية الاقتباسات.
وربما بداية شيء آخر؟ بداية
شكوك؟ كلَّا. بعيدًا عن الشكوك التي
تتغلغل حتى تصل إلى وعي الإنسان،
تسبح شكوك أخرى في أماكن قصية من

روحه. هل ما يفعله الثوري
حب أم كره؟ هل هي أفكار أم أنها
شيء حي يهز أعماقه هزًّا،
أعماق مَن يقف أمام تعيس الحظ، أمام مَن يعاني الجوع،
والألم، أمام مَن... مزق انفجار القنبلة ساقَه
إلى أشلاء، وقد أمسى على وشك الموت؟ بينما راحت الشرطة
تبحث محمومة في الخزانات، ترى أنيت طفليها
يلعبان، وتعرف أنها لن تعود في الأمد القريب
تراهما وهما يلعبان. رأسها ربما
خالٍ تمامًا من الأفكار، لكنها تشعر بألم
متوغل، وجهد هائل، تحتاج إليه
حتى لا تبكي أمام الطفلين، وكي
تتظاهر بأن كل شيء سيصبح على ما يرام. لا أحد
يمكنه أن ينظر في ظلام رأس، ناهيك عن
ظلام رأس المرء نفسه، لكن تلك اللحظات الطويلة
تتمخض ربما عن سؤال لا تسمعه
ولا يسمعه الآخرون: أكان الأمر يستحق؟ هل
فعلت الصواب؟ لا؟ نعم؟

هل كان لهذا النضال أن يصل
بطريقة أخرى، من دون عنف،

إلى هدفه؟ كامو، المولود في الجزائر،
كان قد كتب في نهاية الثلاثينيات عن بؤس
منطقة القبائل، وعن الاستغلال، إنه حتى يطلق عليه:
«العبودية». آخرون طالبوا بإصلاحات، ومساواة،
لكن كل ذلك لم يُفد كثيرًا، حتى لا نقول: لم يُفد شيئًا،
فقط عندما انفجرت القنابل، شرعت الحكومة
الفرنسية ببطء، ببطء أكثر من اللازم، تصحح بحذر
سياستها. هناك غاندي، صحيح، وفيما بعد
جنوب أفريقيا. يتحلى أناس بالصبر، يؤمنون أن العنف
لا يجلب إلا العنف، ويفضلون أن يقبعوا في السجون
سنوات على أن يمسوا شعرة من شعر
المستغلين أو المستعمِرين. مَن يستطيع أن
ينتقد أحدًا على قلة صبره؟
كامو على سبيل المثال، ينتقدهم. إنه ليس
سليل المُستعَمِرين، أي الإقطاعيين والمستغلين والطفيليين،
وعديد من الفرنسيين الجزائريين هم في العموم
فقراء، حتى إن كانوا أكثر غنى من
جيرانهم العرب. تعلم أنيت ذلك تمامًا،
لكن الأمر بالنسبة إليها يتعلق بشيء آخر، وتحديدًا:
بالمبدأ، أو بأحد المبادئ، وبالمبدأ الذي يعطيها الحق،
ويقول: «لا يجوز أن يَخضع شعب لشعب آخر». كامو لا يقول

شيئًا آخر، لكنه يقول عدا ذلك شيئًا إضافيًّا،
تقريبًا كالآتي: «في هذه الأيام تُرمى القنابل في الجزائر على
عربات الترام. قد تكون أمي في إحداها.
إذا كانت تلك هي العدالة، فإنني
أفضِّل أمي». ألا يمكن أن يحصل المرء على كليهما، الأم
والمبدأ؟ لو حالفك الحظ، بلى. وماذا يقول
فرانز فانون؟ «بالنسبة إلى المستعمَر فلا يمكن
أن تبزغ الحياة إلا من جثة المستعمِر المتعفنة».
هذا هو المكتوب في كتابه *Les damnés de la terre*[١]،
تقديم سارتر، وقد تكون مقدمة كهذه
نوعًا آخر من الوصاية أو الاستعمار؛
أم أنها ليست كذلك؟ حتى إن كان كاتبها قد
أراد ذلك. يقول في مقدمته: «إذ في أول مرحلة
من مراحل الثورة، يجب عليه [المقاتل] أن يَقتل.
إنه حين يقتل أوروبيًّا، يضرب بحجر واحد
ضربتين: يزيل مضطهِدًا ومضطهَدًا
في آنٍ واحد». وينسى سارتر

(١) صدر الكتاب بالعربية بعنوان «معذبو الأرض»، وترجمه سامي الدروبي وجمال الأتاسي. والمقاطع المقتبسة هنا من مقدمة سارتر مأخوذة من طبعة الترجمة الصادرة لدى دار مدارات للأبحاث والنشر بالقاهرة، الطبعة الثانية ٢٠١٥، ص٣٣. (المترجم).

أنه هو نفسه أوروبي.

لديها وقت طويل لمثل هذه الأفكار الآن،
وفي الوقت نفسه، يا للمفارقة، لقد فات أوان ذلك.
أُحكمت الأصفاد حول يديها. الصحف والمجلات
تنهال باستمتاع ونهم على الفريسة
السهلة. فرنسية، وطبيبة أيضًا،
doctoresse، تساند عربيًّا، ماذا
يمكن أن يكون ذلك سوى عبودية جنسية؟
الأنثى المسكينة وقعت تحت سطوة هذا الفحل،
وعلى الفور يستشهدون بجملة مختلَقة، أو
بالأحرى مأخوذة من تراث الصحافة الصفراء
الذي أثبت فعاليته: «من أجله أفعل أي شيء». وبجانب العبارة
تبرز صورة جميلة حملها معه
أحد رجال الشرطة الستة خلال تفتيش البيت؛ أليس
من المسموح أن يكسب المرء قليلًا فوق راتبه؟
عشرات الصحفيين، تقول الصحيفة، ترددوا على
بارات وكباريهات مارسيليا واحدًا بعد آخر، حتى
يعرفوا شيئًا عن حياتها المنحلة. للأسف
لم يرَ أحد أنيت قَطُّ، باستثناء صاحبة
مطعم كانت أنيت تأكل فيه أحيانًا،
وهي تشهد أنها... كانت تجلس دومًا وحيدة،

ومعها كتاب. يا للهول! صحيفة *France Soir*
تطلق عليها «خدَّامة جبهة التحرير الوطني»، وهي كلمة
تعني بوضوح أنهم يقصدون «عاهرة». يذكرون عرَضًا
أنها كانت يومًا في المقاومة، باعتبار ذلك
هو أصل هوسها بتغيير اسمها.
أما موضوع البحث التفصيلي، فهو
على ما يبدو اللغز الأكبر الذي
يثيره الاعتقال: كيف حدث أن امرأة
كانت حتى ذلك الحين محترمة جدًّا ـ
طبيبة وباحثة، وفي المقام الأول أيضًا
زوجة ابن طبيب أعصاب وأستاذ
في كلية الطب، يتمتع بمكانة عالية في مارسيليا،
زوجة طبيب، وأم أطباء المستقبل، أو أشخاص
على درجة مشابهة من الاحترام ـ ماذا حدث لسيدة
قد تخسر كل شيء، أي سمعتها الجيدة، حتى
تتورط مع أشكال كئيبة وفقيرة هكذا؟

خلال التحقيقات تحتاج إلى كل قوتها
وذكائها كي تبرئ جو الذي اشترك معها
على الرغم من كل تحفظاته، وأسدى لجبهة التحرير الوطني
هذه الخدمة أو تلك، ولتشتيت أي شبهة عن لوسيان وإليز،
اللذين آويا أيضًا جزائريين من جبهة التحرير الوطني.

لا بد في كل الأحوال من الحفاظ على هؤلاء الأحباء الثلاثة
من أجل طفليها اللذين أصبحا من الآن بلا أم ـ
وتنجح في ذلك. يعقب هذا أربعة عشر يومًا من
الحبس الانفرادي، وبعدها تشعر بنفسها مثل ذلك
البطل المجمد طيلة نصف قرن لدى
ماياكوفسكي[1]. لا تعرف شيئًا عن العالم الخارجي،
ولا عما يحدث في داخل سجن
«لي بوميت»، لكن الناس في الخارج
والداخل يعرفون الكثير عنها. وهكذا
يحدث أن تحصل ذات يوم ـ مع وعاء الحساء
الذي توزعه سجينة بمرافقة الحارسة ـ
على قطعة خبز أكبر من المعتاد،
وتنال نظرة أيضًا. في قطعة خبز «الباجيت»
تختبئ أربع سجائر، وعيدان كبريت
إلى جانب شريط لإشعالها، وصابونة صغيرة
على شكل قلب. أليس هذا لطيفًا؟ شخص ما يفكر فيها.
وهذا الشخص وقَّع على الفور بثلاثة أسماء
أنثوية: «ناديا، حليمة، زينب». ما كادت
تصل إلى السجن، حتى وجدت صديقات مجهولات،

---

(١) إشارة إلى مسرحية ساخرة للشاعر الروسي فلاديمير ماياكوفسكي، تجمد فيها البطل ٥٠ عامًا «في انتظار جنة الشيوعية». (المترجم).

جزائريات يشكرنها بهذه الطريقة،
ويُظهرن لها أنها لم تُنسَ، وأنها ليست وحدها
بين الأسوار المعتمة الغريبة. بعد
عشرة أيام كانت تلك أولى الإشارات الإنسانية
التي تصل إلى محبسها. عما قريب
تلتقي الصديقات الجديدات. كانت ثلاث سجينات سياسيات
أخريات قد وصلن قبلها بقليل من الجزائر، وبينهن أيضًا
الشابة جميلة بوحيرد التي سلكت سلوك الأبطال،
والتي كانت تعامَل هكذا أيضًا، لأنها شاركت
فيما يطلق عليه «معركة الجزائر»، حتى إنْ كانت
القنبلة التي زرعتها ـ لسخطها ـ لم تنفجر
قَطُّ. كانت مصابة، وتعرضت بعد اعتقالها
إلى التعذيب، من دون أن تعترف بمكان مخبأ
رئيسها، ياسف سعدي، الذي سيمثل فيما بعد
دوره في فيلم (موسيقى: يوهان سبستيان باخ
وإنيو موريكوني) على نحو أفضل
مما فعل في الحياة. أما هي فتلعب حاليًّا
دورها في السجن. محاميها، جاك فيرجيس،
وضع نصب عينيه هدفًا، وهو أن يجعل
منها في آنٍ واحد، أو تباعًا، «روح الإرهاب»،
ووجه الثورة الجزائرية، وزوجته. فيرجيس هذا
لا يعجب أنيت كثيرًا، وتفضل أن توكِّل محاميَين

من أصدقائها. الجزائريات الثلاث من
الجزائر، ومنهن جميلة، يعتبرن أنفسهن
شيئًا أفضل قليلًا من أولئك، مثل ناديا
وحليمة اللتين لا تعيشان في الجزائر، بل
في فرنسا حيث مارستا نشاطهما، أي أنهما
لم تشاركا في الحرب الحقيقية. صحيح أنهما شاركتا
في الاعتداءات على صهاريج النفط في موريبيان ولافيرا،
التي أسفرت عن إصابة تسعة عشر شخصًا
وموت إنسان، لكن ذلك لا قيمة حقيقية له
بالمقارنة، وبالفعل يُحكَم على جميلة وحدها
بالإعدام بالمقصلة. ثم يصدر عفو عنها
بعد عامين. في حين أن أنيت...

لكننا لم نصل بعد إلى هذه النقطة، مثلما يقولون
وليس بلا سبب، إذ إن شهرًا في السجن
يطول إلى حد كبير، لا سيما
عندما يعقبه شهرٌ ثانٍ، ثم آخر
وآخر... إدارة السجن تستغرب
استغرابًا شديدًا لأن أنيت تطالع مذكرات
الجنرال ديجول. وتطالع «لو موند». وتطالع
في المقام الأول أرواح حارساتها
والمسجونات معها، من المومس إلى

الفلاحة التي أرادت التخلص من زوجها العنيف،
وتخلصت منه أيضًا بمساعدة بلطة، إلى
موظفة البريد التي اختلست بضعة فرنكات
من الشركة الحكومية لليانصيب،
ذات المليارات. بسرعة تغدو أنيت ما يشبه
مركزًا للتواصل بالنسبة إلى كل الذين لديهم أسرار
أو مشكلات، أيًّا كان نوعها؛ أطفال، رجال،
أو بثور في القدمين. إحدى الإرهابيات، زينب،
تحلم بأن تصبح ملكة جمال الجزائر، أو على الأقل
ملكة جمال مارسيليا، ما يبين أنها لا تأخذ القومية
على محمل الجد تمامًا. مجموعة مرحة.
عديدات لا يفتحن أفواههن. اكتئاب.

تلاحظ أنيت، وهي مسجونة مع جزائريات،
أنها تناضل من أجل بلد لا تعرف عنه
شيئًا. هذا معناه أنها لا تكافح من أجل
بلد، بل من أجل أفكار: المساواة،
حق تقرير المصير. هل هذا ممكن أساسًا؟ أبمقدور
المرء أن يناضل من أجل أفكار ويموت في سبيلها؟ وهل
تظل الأفكار التي يناضل المرء من أجلها أفكارًا؟ ألا
تصبح شيئًا حقيقيًّا، إداريًّا،
بشرًا، مجموعة من القواعد، لحمًا ودمًا؟ الفكرة

في حد ذاتها، أهي أكثر من هواء؟ فضاء
يخلو من حياة؟ لقد ناضلت ـ هذا ما تلاحظه ـ
من أجل حقيقة لا تعرفها إلا من الصحف. صحيح
أنها كانت يومًا في الجزائر تزور أصدقاء. لكن
الجزائريين الذين تعاملت معهم، كانوا بالأحرى
موظفين. هنا في السجن الموظفون فرنسيون:
لا ينفذون بسرعة وبساطة ما يُطلب منهم.
هي نفسها تنتمي إلى الجزائريات والمجرمات.
تتعلم منهن الكثير عن بلدهن ـ
البلد الفكرة ـ وجميلة على وجه الخصوص حكاءة
(لا نريد أن نتحدث عن «ألف ليلة وليلة»). في أثناء الجدل
لا تطيق أبدًا أي اعتراض، هي
البطلة، وكبطلة تتمتع بالثقة في النفس. ما كنه
هذه الثورة؟ من أين تنبع؟ وإلى أين
تسير؟ لا أحد يعرف إجابة أفضل من المرأة
التي تجسدها. هي الثورة، وهي الشعب،
ولو كانت هي الحقيقة، لما تعجبت
أنيت كثيرًا. إلى ذلك فهي
ذكية، ورفيقة جيدة في السجن.

بعد ذلك يأتي عيد الميلاد. علاقة أنيت
بالمديرة جيدة: يُسمح للسياسيات

بتناول العشاء معًا. تُحضِر أنيت من فرن منزلها،
بفعل سحر ساحر، الديك الرومي التقليدي المحشو بالكستناء،
والذي طهته صديقتها إليز، وتُحضِر أيضًا من مكان ما
«بوش دو نويل»، وهي كعكة أسطوانية
دسمة للغاية. وافقت جميلة، بصفتها سُلطة
في المسائل الدينية، على طقس الطعام الغريب،
بشرط أن يُذبح الديك الرومي على نحو صحيح.
لذلك أُحضِر الديك من جزار يبيع لحمًا حلالًا، وبالتأكيد
فإن ذلك أمر غريب بعض الشيء بالنسبة إلى اللحم المحمر
في عيد الميلاد. تهليل وفرح - إلى أن تسأل جميلة
عن الصلصة، وعن الدين الذي يتبعه الفرن. حسنٌ، حسنٌ،
سؤالها ليس هكذا. لكنها تسأل عما إذا كانت
الصلصة والفرن يلبيان الشروط الإسلامية. إنهما لا يفعلان.
يجب منع الديك الرومي. من الواضح أنها
مصممة على أن تفسد على نفسها وصديقاتها
هذا الحفل الصغير بعيد الميلاد غير الورع.
(آنذاك لم تتوفر وجبات حلال في السجن
مثل الآن).

الكل نيام، وحدها أنيت ساهرة تبكي. ربما
تفكر في هذه المناسبة في أن جو، زوجها،
قد حذرها قبل عامين من تأثير الإسلام

على المناضلين من أجل الاستقلال. لدى
جورج، الرئيس الذي أُلقي القبض عليها معه،
لم تلحظ شيئًا من ذلك، ولدى الشيوعيين
من الجزائريين بدا أن الدين أيضًا
لا يحتل أهمية كبيرة. ألسنا جميعًا
بشرًا متساوين، وإذا لم نكن متساوين-
أليس المهم هو أن نصبح كذلك ونكون كذلك؟
الأديان تُفرق، بدلًا من أن تجمع. من ناحية أخرى، كيف
خطر على بالها أن تفرض على مسلمات
طعامًا مسيحيًّا؟ الإجابة هي
أنها لم ترَ فيه طعامًا مسيحيًّا. لم ترَ سوى
فرصة للقاء المبهج معًا،
لا سيما أن دواعي البهجة قليلة.
وهذه هي النقطة الحاسمة: رأت الأمور كذلك، وجميلة
رأتها على نحو مختلف. قبل أن تدخل السجن، كانت
تعيش في بلد، بلدها، حيث تسعة أعشار
السكان مسلمون، وكل العطلات الرسمية مسيحية.
ربما أرادت برفضها أن تقول ببساطة:
«من الآن فصاعدًا يمكنكم الاحتفاظ لأنفسكم بأشيائكم:
بغصون السعف، وبيض القيامة، وإوز عيد الميلاد!». ربما
يكون الوضع كذلك. بعد عودتها إلى زنزانتها لا ترى أنيت
سوى عناد، ورفض، وعداوة تجاهها،

على الرغم من أنها تقف بجانب جميلة بالكامل ـ
أم أن جميلة لا ترى الأمر هكذا؟ أم أنها ربما
لن تستطيع أبدًا أن تقف في ذلك الجانب، حتى لو
قضت سنوات كثيرة في السجن، أو حتى
ماتت من أجل استقلال الجزائر؟ أمن الممكن
أن تكون المسألة متعلقة بالمولد؟ هل ولدت
في الجانب الخطأ، في جانب القامعين، المستعمِرين؟
نوع من الخطيئة المتوارثة؟ ألا يمكن أن يتطهر
الإنسان منها؟ لا تفكر بهذه الطريقة. إنها من البروتاني،
لكنها ليست كاثوليكية. ما زالت جميلة صغيرة في السن،
وقد مرت ببعض التجارب، لذا فهي تتصرف الآن
تصرفات خرقاء بعض الشيء، أو أنها عنيدة،
لكن ليس بإمكان المرء أن يلومها لفترة طويلة
بسبب ديك رومي. أما الديك فيقسمنه ببساطة
على غير السياسيات.

حياة السجن في الحقيقة لن تكون سيئة أبدًا،
على كل حال، إذا كان المرء مثلها له زنزانة منفردة،
وكتب، وزيارات، وانشغالات مختلفة.
وهي تتمتع بالصحبة أيضًا، الوضع حقًّا على ما يرام،
لو لم تكن هذه الحياة تحدث
وراء القضبان. لكن حسنًا. في مطلع كل عام

تستأنف من جديد أبحاثها في مجال
الفسيولوجيا العصبية (أو على وجه الدقة: في مجال
الاعتلال الدماغي المصحوب بارتجاج عضلي مبكر
وعدم انتظام مفرط في ضربات القلب، إذا كان
لهذه المصطلحات معنى بالنسبة إليكم). وكلما عَلت أكوام الكتب،
كبر بطنها. تشعر بأنها بخير. ثم تشعر
ببؤس لم تشعر بمثله من قبل. تفكر في جيلو وفي
جان-ري ـ لكن ماذا يعني: «تفكر فيهما»؟ إنها
لا تستطيع في هذه اللحظات التفكير مطلقًا، إنها
تحتضن الطفلين، تعانقهما، تقبلهما،
وكل شيء، كل خلية عصبية في النظام النطاقي،
أو أي جهاز آخر، يقول لها إنها
لا ترعاهما، إنهما ليسا هنا. ومن المرجح
أنهما لن يحضرا إليها قريبًا. الأرجح أنها
هي التي لن تكون حاضرة حيث يجب أن تكون
وفق مشاعرها والعُرف الاجتماعي، بل
ستكون مسجونة في هذه الزنزانة أو تلك.

في هذا الوضع ليس هناك في الحقيقة سوى رغبة حارقة
واحدة وسؤال واحد: كيف أخرج من هنا؟ الشيء الوحيد
الذي يمكن في أفضل الأحوال أن يفتح بابًا صغيرًا
هو بطنها الكبير. بسببه يريد المحاميان، كيجمان

وفيدال-ناكيه، أن يحاولا إعفاءها من
الحبس الاحتياطي، وتأجيل القضية
إذا كان ذلك ممكنًا. ما دام ديجول لا يريد
التفاوض مع جبهة التحرير الوطني، فإن المناضلين
ومساعديهم يُعتبرون إرهابيين. لكن الربيع يُنبئ
بأن المفاوضات وشيكة، على الرغم من كل التأكيدات
بعكس ذلك ـ وفي يونيو تُعقد الجولة الأولى. السيدة الثرثارة
والمتقلبة، التي تُدعى «الرأي العام»، تغير بين عشية وضحاها
الجبهات قليلًا. كلما تأخر موعد القضية،
زادت فرص أنيت في ألا تكون إرهابية،
بل مدافِعة عن قضية عادلة. ولكن، كيف
يمكن الوصول إلى ذلك؟ البطن الكبير وحده
لا يكفي للأسف، الأمر يحتاج إلى حيلة أخرى صغيرة.
لا بد أن يكون الحمل صعبًا، حتى إن لم يكن
في الحقيقة كذلك. على الفور
تظهر عدة متاعب. مستشفى تحت الحراسة (*Hôpital de la*
Conception). فحوصات، خبراء، أطباء. صحيح أن
الأطباء اختارتهم المحكمة، لكنْ في المستشفى
آخرون، يختلف توجههم عن توجهات المحكمة.
أحدهم لطيف جدًّا، ويبدل ببساطة
أنبوب الاختبار بأنبوب مريضة
تسبح في باطنها جراثيم ضارة. خطر على الحياة!

الجنين مهدد! في الثاني من يونيو يصل إليها الخبر:
يُسمح لأنيت بالذهاب إلى بيتها حتى تلد،
وتظل هناك حتى موعد المحاكمة الوشيك. بالطبع
تحت الإقامة الجبرية. رجال شرطة نهارًا وليلًا أمام الباب.
ولكن: لقد خرجت!

يُقام احتفال، صخب وناس، باقات زهور،
كؤوس تُقرع، اضطراب، حتى يبدأ نصف رأسها في الطنين؛
النصف الذي لم يبقَ محتجزًا. للحظات
تتشوق إلى هدوء الزنزانة. كل شيء سيتحسن! كل شيء
سيكون على ما يرام. يضطرم باطنها بالأمور التي تريد أن تخرج، كما
أرادت هي أيضًا أن تخرج من الزنزانة. ثم، بعد عدة أيام،
الولادة التي تجري من دون مضاعفات، على عكس
كل التخوفات. بنت صغيرة، مريم، تتطلع إليها
بعينين ودودين تحيط بهما التجاعيد. ويحل صيف
لا تحدس بأنه صيفها الأخير ـ ليس الأخير
في حياتها الطويلة، مطلقًا، لكنه مع ذلك الأخير.
العائلة، القرب من الأطفال، بيت يموج بالحياة، كل هذا
يصل الآن إلى نهايته مع آخر الأيام الحارة، على الرغم من أنها
قد أنجبت طفلة لتوها، وكل شيء كان من الممكن
أن يكون مختلفًا تمامًا أيضًا ـ هل كان هذا ممكنًا؟

في الخريف تقف أنيت مع المدعى عليه الآخر
محمد دقسي، واسمه المستعار «جورج»، أمام محكمة عسكرية.
رسميًّا ما لم تندلع الحرب بعد، لكن حالة الطوارئ
سائدة، والمحاكم الحربية ـ على الرغم من عدم
وجود حرب ـ هي التي تسود. لا يضيع المحاميان
وقتًا، يبحثان عن طرق، عن حجج
واستراتيجيات، ولكن حاوِلوا أن تشرحوا لضباط، هم أنفسهم
الذين يخوضون الحرب (أي «الأحداث»)، أنها
ظالمة، ولا تصلح لشيء. معظم حاملي الحقائب
من الـ*réseau Jeanson* ـ وأنيت كانت
منهم ولا تزال ـ حوكموا قبلها
بأسابيع (باستثناء جانسون نفسه، الذي أخذ حقيبته
في الوقت المناسب واختفى). معظم أصدقائها
حصلوا في المحكمة على عشر سنوات، وإذا
تأمل المرء الأمر بمنتهى الهدوء، فلا
سبب يجعلها تحصل على شيء آخر. إذا أردنا الدقة
فبإمكاننا أن نستغني عن المرافعات العظيمة
وشهادات الشهود، لكنهم لا يستغنون عن شيء،
إنهم يريدون أن يُظهروا للسادة الضباط أن
هذه حالة جديدة من حالات مقاومة الاحتلال
الأجنبي، يطلقون عليها بالفرنسية *Résistance*
وتُمنح ميداليات «للمقاومين».

لكن من الواضح بالطبع أن هذا الجهد في نهاية المطاف
لا طائل منه، وسيذهب أدراج الرياح.

حُدد مكان المحاكمة في قلعة «سان نيكولا»
وهي قلعة ضخمة تعلو الميناء
أمر بتشييدها لويس الرابع عشر بهدف
ترويض مارسيليا المتمردة. هل ستنجح
المحكمة العسكرية داخل هذه الأسوار في ترويض
دقسي والمتواطئة معه أنيت؟ يبدأ
اليوم الأول من المحاكمة، ولا شيء يفرض نفسه عليها
في هذا العالم الرحب سوى ضرس العقل الملتهب
الأقوى من كل القلاع والجيوش والملوك،
والذي يغلف كل شيء بغيمة من الألم. وبينما
أنيت حبيسة تجويف فمها، تتابع ظهور
شهود النفي الذين راحوا يرسمون لها
صورة حسنة، بلا أورام. يجلس على مقعد الشهود
ألفريد فيسار، الأستاذ الجامعي بـ«الكوليج دو فرانس»
وأحد فطاحل طب الأعصاب، وجاستو، رئيس أنيت
في المستشفى، وزملاء... وسيمون ودانيال،
الطفلان اللذان أنقذتهما ذات يوم، واللذان لم
يعودا طفلين، بل أصبحا في الثلاثين. لا تنفذ
كلمات كثيرة إليها عبر هذه الغيمة

من الألـم، لكنها تنفذ حتى تصل إلينا،
نحن، الذين حضرنا مع الجمهور، أو
كنا نتمنى ذلك. تشهد سيمون بأن مساعَدة الآخرين
وإنقاذهم شيء يجري في عروق منقذتها، وأن والديها
كانا أيضًا هكذا، دائمًا كان هؤلاء الناس يمدون يد العون
إلى كل المنبوذين والمُهانين، وأنها تتذكر
كيف التقطت أنيت من الشارع
شخصًا ونقلته بالتاكسي بسرعة إلى المستشفى،
في حين راح كل عابر من العابرين الآخرين
يقنع نفسه ويهدئها ويريحها بالقول بأنه مجرد سكير
استغرق في نومه. لكن ذلك لا يؤثر
إلا قليلًا في أعضاء الجيش. الأمر هنا
يتعلق بأعمال إرهابية. تهديد للدولة.
إن رجال جبهة التحرير الوطني
الماثلين هنا ليسوا صعاليك مساكين. دقسي،
وهو كهربائي من قسنطينة، يجلس خلفها على مقعد
باستقامة ومهابة، كأنه حاكم
مملكة نوميديا. هكذا كان يجلس عندما دخلت
القاعة، يحيط بها رجال الشرطة، وجلست في مكانها
أمامه بصف واحد. ولأنها استدارت كي
تحييه، فقد نهض وقبَّل يدها.
(ننصح بشدة بهذا المشهد في فيلم

عن حياتها).

بعد يومين أو ثلاثة أوشك الحكم أن يصدر، القضية واضحة، لقد اعترفت، بل أعلنت بوضوح وبفخر تقريبًا أنها خدمت جبهة التحرير الوطني انطلاقًا من إرادتها الحرة وضميرها الحر. الفريق الصغير، المكون من المحاميين الأول والثاني ومن أصدقاء، ومن جو ومنها، فكر منذ فترة طويلة في مَخرَج، كل شيء رُتِّب في الحقيقة، ولا يحتاج إلا إلى قرار نهائي، يعقبه التنفيذ. ولكن، هل الهروب حقًّا أفضل حل؟ وجو؟ والأطفال؟ ماذا سيحدث لهم؟ هل سيلحقون بها؟ تقول لنفسها إنها تكاد تكون اعتادت السجن، (ولكنها لا تبوح بذلك لأي شخص، مَن يعلم، ربما يصدقونها ويتوقفون عن بذل أي جهود أخرى). اعتادت سجن «لي بوميت» حيث نزلت مرة، وحيث تعيش صديقات لها، فهناك يكون لحياتها إيقاع. لكن عشر سنوات؟ فهذا هو الحكم المرتقب. هذا كثير جدًّا، ولن تتحمله أيضًا. لا يتبقى سوى شيء واحد: عليها أن تهرب ما دامت قد تنجح في ذلك، وما دامت تحت الحراسة، لكن غير مسجونة وراء أسوار سميكة؛

أي قبل صدور الحكم، وقبل انتهاء الإقامة الجبرية.
صحيح أنها تطيع وترتدي في المحاكمة،
مثلما وعدت ناديا، الزي برونزي اللون الذي خاطت به الأخيرة،
بجهد كبير، أشياء ضئيلة جالبة للحظ مثل مسحوق المشيمة،
وأنها تشعر بالغبطة في تحسسها الحشو اللطيف
خلال ساعات المحاكمة الطويلة،
لكنها لا تميل إلى كل أنواع الخرافات
والخزعبلات. لا شيء يمكن أن يساعدها:
عليها أن تهرب. طريق الفرار محدد
أيضًا، لكنه يقود عبر درب ملتف قليلًا:

الشقة الموضوعة تحت الحراسة، التي ينبغي أن تهرب منها،
تقع في بيت حميها البرجوازي الكبير:
الأب السابق ذكره كان طبيبًا مرموقًا، والأم، الصارمة
للغاية وغريبة الأطوار، تتحدر من عائلة يهودية
روسية تتاجر بالألماس من أوديسا، وما زال
لديها بعض قطع الألماس. يعيش الاثنان حياة
لا تعرف التقتير، في بعض الأحيان كان لديهما سائق،
روسي مثل رئيسته، ثم تخلى فجأة عن وظيفته
عندما تزوج. بعد شهور، ربما حتى
بعد عام، تفتح مدام روجيه العجوز
باب خزنتها حتى تضع فيها حلية

كانت حتى ذلك الحين معها دائمًا، وماذا تجد؟
لا شيء، مكانًا فارغًا، مفهومًا موضوعه فارغ،
ما يطلق عليه كنط *nihil privativum*
أو بعبارة أخرى: سرقة.
يتصلون بالشرطة التي تفحص
البيت كله بعيون محترفة، وتجد في القبو أيضًا شيئًا،
لكنه ليس الحلي، بل مرتبة، وبجانبها موقد بالغاز
في أحد الأركان الكئيبة. ثم تعثر أيضًا
على باب لم يلاحظه أحد حتى ذلك الحين،
ناهيك عن أن يكون قد استُخدم. يقف أفراد الشرطة
خلفه ـ البعض يُسهل الأمر حقًّا على الشرطة ـ
ويقبضون على أول مَن يدخل.
إنه ـ لا عجب ـ السائق، لكنه
بلا حُلي، إذ إنه قد باعه بثمن بخس
منذ فترة طويلة. تمر السنوات من دون أن يحتاج أحد
إلى هذا الباب الصغير الذي لا يلفت الأنظار. حتى الآن.
إلى أن يتحتم على أنيت الهرب، فتتذكر على الفور الباب
الذي يُفضي إلى حارة خلف المنزل. والحارة
غير مراقبة جيدًا.

أما زالت تفكر؟ أتتردد حتى
النهاية؟ كلَّا، إنها عازمة ومصممة؛ سيلحق

الأطفال بها، هذا هو الاتفاق. لم يعد
يمكن أن تقلب أي شيء على وجه آخر، لقد تمعنت
في كل ما يمكن التمعن فيه. فات الوقت الذي
كان بالإمكان فيه التشكك، أو كانت الإمكانية
متوفرة في تغيير مسار الأشياء؛
أما قبل صدور الحكم بثلاثة أيام، فقد فات أوان
التفكير في شيء آخر غير: الهرب. ستترك خلفها
الطفلة حديثة الولادة. ستترك أيضًا كلا الصبيَّين
أو الفتيَين. وستترك جو الذي
تَشكَّل الطفلان بين أحضانه.

في أحد صباحات سبتمبر ١٩٦٠ يتسلل
من باب القبو كيانٌ بشعر أسود جديد
وحاجبين سوداوين غريبين على البروتاني. تصعد
أنيت في سيارة صغيرة لصديقة تمر بها
في الوقت نفسه ـ شيء عملي للغاية.
لا تصعد إلى مقعد الركاب، بل تنفتح حقيبة السيارة
كأنها مطواة، المكان ضيق جدًّا، صندوق خضار،
وعندما ينغلق تنكمش أنيت على نفسها أكثر. ينطلق
بها هذا الصندوق إلى المطار، حيث توجد غير الطائرات
أيضًا سيارات وأماكن وقوف رحبة لها، وهناك يمكن
تبديل السيارة من دون لفت الأنظار. السيارة بأرقام

أجنبية وبها صديقة أخرى، سوزان،
التي تعيش في باريس، لكنها في الأصل من جنيف.
تسافر بها إلى قرية غير بعيدة عن آخر الحواجز،
أي الحدود السويسرية التي لا بد أن
تعبرها. في القرية الواقعة في مكان ما
بين تونون-لي-بان وأنماس تقابلان قريبتي
سوزان، الأخت والأم، اللتين
تسكنان على الجانب الآخر، ولتوهما
عبرتا منطقة الجمارك؛ ولأنهما تفعلان ذلك كثيرًا، فإن
هيئتهما خلف الزجاج الأمامي
مألوفة لموظفي الجمرك. كل شيء
من الآن فصاعدًا هو في الحقيقة بسيط جدًّا؛ بسيط
مثلما تبدو الأمور في الغالب بعد أن يمر الزمن.
تحصل أنيت من الأخت على معطفها، وأيضًا
على نظارتها ووشاحها الذي يُربط حول
الرأس من أجل الموضة، وأيضًا من أجل أن تتشابها.
تصعد مع أم سوزان في السيارة السوداء،
وبعدها بقليل، والظلام سائد إلى حدٍّ ما، تلوِّح
لموظفي الجمارك بلطف وهي تعبر بهم.

برن، ميلانو، روما، ثم تونس، مقر
الحكومة الجزائرية التي لم تحكم بعد. جهود أنيت

في أن ينعم الجميع بحياة حرة وعادلة
لطالما دفعت بها إلى التوغل جنوبًا
أكثر فأكثر؛ دينان، ليون، مارسيليا والآن
هذه القفزة إلى تونس، كأن الجنوب
أكثر من مجرد اتجاه سماوي، إنه واحة سياسية
تخلو من الطغيان ومن الاستغلال، اسم
آخر لذلك المكان المعروف منذ القدم،
والذي لم يره أحد، المكان الذي أراد كثيرون
زيارته يومًا. ساحل البروتاني،
الذي ولدت أنيت عليه، يشير ـ تمامًا مثل
ساحل شمال أفريقيا ـ إلى الشمال.

تونس إذن. كل شيء هنا غريب بالنسبة إليها،
وتقريبًا كل شخص، لكن العكس ليس صحيحًا.
المدينة القديمة كلها تعرف، في غضون ساعات أو
أيام على الأكثر، أن هذه المرأة ساعدت
جبهة التحرير الوطني. تحصل على قطع من راحة الحلقوم
أكثر مما تستطيع أن تأكله خلال
حياتها الطويلة. غيابيًا
يصدر في مارسيليا الحكم المرتقب على المدعى عليها:
عشر سنوات سجنًا، وفي «فرانس سوار» سنقرأ
بعد قليل: «أنيت روجيه في تونس»، بجانب

الصورة التي التقطها أحدهم من دون أن يسألها أمام مكاتب
جبهة التحرير الوطني. كانت تفضل أن تكون مجهولة.
لكن، أليس لطيفًا جدًّا أن يشعر المرء بشيء مثل التكريم
والامتنان لما فعله، بعد أن جلس طويلًا في السجن،
ثم أُجبر على الهرب، ثم الذهاب إلى المنفى؟
ولا حتى هذا يحدث. منذ خمس عشرة سنة
لم تعد أنيت «لا أحد»، لكنها لم تتخلص قَطُّ
من كونها «لا أحد»، وآجلًا أو عاجلًا،
تدفع بها الحياة مرة أخرى إلى تحت الأرض،
في مختلف أنواع المخابئ، وإلى التخفي. فضلًا عن ذلك:
مهما كانت حياة الـ«لا أحد» سيئة، فهي في النهاية
مثل عش، مثل ليل يشعر المرء فيه أيضًا بأنه في بيته
ولا يغادره ببساطة هكذا
بين عشية وضحاها. هي في تونس، هذه الأيام،
تشبه بومة انتزعوها إلى النور، ولكن بمجرد أن
تستطيع ثانيةً أن تبادر بالفعل، ولا تعود ممزقة
بين هذا وذاك، فسوف تختفي سريعًا
كل تلك الكوابيس. وماذا يأتي عندئذ؟

قبل فترة قصيرة كانت حبلى، تضم بين أحضانها
ابنتها الأولى، وكان لديها ابنان صغيران،
وزوج، وعمل مفيد في معظم

الحالات؛ وكل ما كان أصبح: لا شيء.
في هذه الهوة قد يسقط المرء، لكنها
لا تسقط، كلَّا، إنها تواصل العدْوَ باستمرار،
وكأن أرضًا تمتد تحت قدميها؛ تلتف كل ساق حول الأخرى
مثلما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة القديمة.
بالنسبة إلى الأطباء ينبغي دائمًا إنجاز الكثير، وبالأحرى
في بلد، مثل تونس، لم يحصل هو نفسه على الاستقلال إلا قبل
أربع سنوات، وحيث أقامت جبهة التحرير الوطني
نقطة ارتكاز على حدوده مع الجزائر. أنيت في كل مكان
في الوقت نفسه، في المستشفى في تونس العاصمة
حيث استلمت وظيفة فرانز فانون ومساعداته،
وبالقرب من الحدود، في مدينة الكاف الصغيرة،
وفي المخيمات والمعسكرات حيث ينتظرها مصابون كثر،
وينتظرها أيضًا التحرر من الأوهام:
ما الذي جعلها آنذاك تساند جبهة التحرير الوطني؟
ألم تكن التقارير التي تقول إن
الجيش الفرنسي يعذب أسراه، مثلما
كان الجستابو يعذب أعضاء
المقاومة الفرنسية؟ الآن تلاحظ: جبهة التحرير الوطني
تمارس التعذيب أيضًا. لا أحد يناضل من أجل الاستقلال
وحده، الجميع يناضلون من أجل السلطة أيضًا.
يُعذَّب الخارجون عن الإجماع، والمنافسون، وأيضًا

جنود بسطاء لم يكن من السهل دفعهم إلى النضال
هكذا بدون أسباب، الأمر لا يدور بالأحرى
حول النضال، فهم يريدون النضال
ويستطيعونه، والموت خلاله
أمر ليس بالغ الصعوبة. لكن التضحية
بالحياة في سباق عبثي لاجتياز الحواجز؟
إذ حتى يقطع الطريق بين جبهة التحرير الوطني
وقاعدتها في تونس، أقام الجيش الفرنسي على طول الحدود
شريطَ موتٍ مُراقَبًا رقابة جيدة، يتكون من
أسلاك كهربائية وألغام وأسلاك شائكة.
تريد جبهة التحرير الوطني الآن، وبأي ثمن، دفع
المتمردين إلى عبور منطقة الرعب هذه، التي يجتازها
القلائل؛ مَن لا يتحول إلى أشلاء أو لا
يصعقه التيار الكهربائي، يُرمى فورًا بالرصاص
على الجانب الآخر. أما مَن يرى أن من الأجدى البقاء
حيث هو، فإنه يتعرض للتعذيب. صحيح، هذا لا يحدث
بشكل ممنهج. وربما يحدث حتى بشكل نادر.
يكفي أنيت أن هذا قد حدث،
وما زال يحدث. هل فعلت كل هذا،
وهل فقدت كل عزيز عليها حتى الآن
(هكذا فكرت في ذلك الوقت)، لا لشيء إلا من أجل

أن تستبدل في النهاية تعذيبًا بتعذيب؟

ترغب في التوقف عن كل شيء. وتتوقف عن كل شيء.
يؤثرون عليها لتغير رأيها. هل سيكون حال المرضى
والجرحى أفضل بدون مساعدتها؟
ثم مهما كانت هذه الطرق وحشية وبشعة،
يبقى الاستقلال هدفًا نبيلًا
لا يمكن التشكيك فيه، ولن تقلل منه
كل الأخطاء والجرائم التي
تحدث بالتأكيد دائمًا. لكن لماذا؟ لماذا هذه
الانتهاكات؟ أهذا هو الوضع دائمًا؟ ألا
يمكن أن يكون مختلفًا؟
أهذه هي الأشواك التي تنبت في الورد؟
«من يحضر العجة»، هكذا سمعت أنيت
آلاف المرات لأن القول مثل شائع في بلدها، «عليه
أن يكسر البيض». ما زالت مترددة.

تبقى. وهل لديها خيار آخر؟
عليها، إذا رحلت الآن ببساطة،
أن تعترف بأن الخطأ ليس في جبهة التحرير الوطني
فحسب، بل فيها، هي أنيت، أيضًا. هل كانت

متعجلة؟ هل ضللتها رغبتها في الفعل،
أو ضللها الغضب فلم ترَ حقيقةً
ما كانت تعرفها بعد قَطُّ، ولا تستطيع أن تعرفها
والآن تتعرف عليها تدريجيًّا فحسب،
لنقل على جانب منها، من الدولة المجاورة؟
ربما. لا تستطيع، ولا يستطيع أي شخص آخر
أن يقرر ما الصواب وما الخطأ، بصرف النظر
عن أننا هنا لسنا بحاجة إلى قاضٍ خارجي أو
داخلي؛ نحن على الأكثر بحاجة إلى شيء مستحيل
مثل قرار آخر بأثر رجعي.
تشترك الاتجاهات الكثيرة التي يمكن أن تسير فيها
الحياة في أنها جميعًا تشير إلى الأمام.
والأمام يعني الفعل، وتخفيف الآلام، والتنظيم،
والشفاء، هناك كثير، كثير جدًّا مما ينبغي أن يُفعل
في هذا البلد الذي لم يصبح بلدًا بعد، ولم يكن
بلدًا قَطُّ، بل أمنية، رغبة،
أملًا. لا تتعامل مع فقراء مساكين فحسب،
بل أيضًا مع مَن سيصبح لاحقًا من ذوي السلطة، تقابل
فرحات عباس الذي سيحكم في البداية هذا البلد
غير الموجود، وبومدين الذي يقود جيشه
الذي يفرض وجوده الكبير، وبوصوف الذي يتجسس فيه
على نحو فعَّال، وبوتفليقة الذي سيرأسه بعد ذلك

بأربعين حتى ستين عامًا وهو على وشك الموت، والأرجح
أنه ظل يرأسه وهو ميت تمامًا. البَيض السليم
بمختلف أشكاله ستخرج منه بعد بضع سنوات
نخبة حاكمة. ما زالت أنيت تحلم
ببلد اشتراكي عادل،
ولا تحدس ـ ولا تريد ربما أن تحدس،
بل تريد أن تأمل ـ بما سيفعل به لاحقًا
هؤلاء الرجال. تحلم بهذا المكان السعيد
الذي تتشوق إليه منذ فترة طويلة، والذي سارت في اتجاهه
زمنًا لم يصل بعد إلى نصف حياتها؛ تحلم بمكان
لا وجود له ـ تمامًا كهذا البلد الجديد ـ ولم
يوجد قَطُّ، لكنه سيوجد حقًّا بمساعدتها
وبمساعدة ملايين غيرها.

هذا هو حلم البلد الجيد. وهناك أيضًا
حلم الحياة الجيدة، حيث ستعيش أخيرًا
مع أطفالها مرة أخرى. كان الاتفاق عندما
هربت أن يأتي بهم جو بأسرع
ما يمكن. لقد حصل على وظيفة في مارسيليا
لا يريد أن تطير منه، لكنه عازم على أن يطير إلى أنيت
وإلى الأطفال كلما أمكنه ذلك. فترةً من الوقت
لا بد أن تسير الأمور هكذا، لمَ لا؟ لن تستمر

الحرب طويلًا جدًّا، وبعدها قد يصدر
حكم بتخفيف العقوبة. هذا هو الأمل،
وهكذا فكروا، ولهذا بدأت تبحث، فور وصولها
إلى تونس، عن مسكن للعائلة، حيث لكل طفل
غرفة خاصة جميلة، بل إن هناك
مربية أطفال تنتظر قدومهم، فأنيت
لديها عملها. ليس على الأب سوى
إحضار الأطفال إلى روما، هكذا كان التفكير، وهكذا
يبدأ التنفيذ. وهكذا يحاول أيضًا، لكنه
يوقَّف مع الصبيين على الحدود
مع إيطاليا. حظر سفر. كيف ذلك، وهو
لم يقترف جرمًا؟ (في الحقيقة لقد فعل، على الأقل
من وجهة نظر الدولة، لأنه حمل أيضًا حقائب
لجبهة التحرير الوطني، لكنهم لم يثبتوا عليه شيئًا قَطُّ).
أيًّا كان الأمر، لا يدعونه يمر. في فرنسا تسود
«الأحداث»، لذا لا تدقق الشرطة ولا العدالة كثيرًا؛
إذا أرادوا أن يمنعوا أحدًا من مغادرة البلاد،
فإنهم يمنعونه، حتى إذا كان لديه
أطفال صغار وزوجة في مكان آخر.

هناك الأحلام. وهناك اليقظة منها. في هذه
الحياة الجديدة، التي لم تحلم بها، لا يمكن أن يحصل المرء ـ

أن تحصل هي ـ على كل شيء: الكفاح من أجل عالم أفضل،
وتحدي المخاطر، وإنجاب أطفال. إنجاب أطفال، ربما،
لكن: الاحتفاظ بالأطفال، وأن يكون **لديك** أطفال!
أن ترى الأطفال يلعبون ويكبرون، أن تلمس الأطفال
وتداعبهم! لا تنتبه إلا بعد ربع عام
على هروبها، وتلاحظ أنها فقدت،
ربما نهائيًّا، أطفالها الثلاثة.
عشر سنوات! بعد عشر سنوات سيكون الصبيان
بالغين تقريبًا. البنت المولودة حديثًا،
مريم، لن تكون قد رأت أمها أبدًا، أو ستراها
من دون ذكريات. ستنظر إليها ربما
مثلما تنظر إلى أي امرأة غريبة، أو جارة
جديدة. لأول مرة خلال عدة عقود
تفضل أنيت الموت على الحياة. فلتذهب
جبهة التحرير الوطني إلى الجحيم، ومعها كل الجزائريين؛
فليذهب ديجول إلى الجحيم، ومعه الشيوعيون. ولتذهب هي
نفسها إلى الجحيم، ألف مرة إلى الجحيم.

الأحلام عنيدة. فهي لا تموت بعد بضعة أسابيع
من الظلام والجفاف. قريبًا جدًّا تنسج خططًا جديدة
للقاء ربما بعد بضعة شهور، عندما يجيء
الصيف ثانيةً: على صفحة البحر المتوسط.

حدود البلاد مراقَبة رقابة صارمة، لكن أليست
المياه تحديدًا هي التي تفصل بينها وبين أطفالها؟
ماذا عن استخدام قارب؟ أليس بالإمكان
اللقاء على سطح البحر؟ ستأتي من تونس، وجو
والأطفال من مارسيليا. وإذا لم ينجح ذلك أيضًا،
فيبقى دائمًا الأمل في النهاية التي بدأت تلوح في الأفق
لهذه الحرب، في استقلال الجزائر،
وبذا ـ يومًا ما ـ في العفو.

يومًا ما سيأتي زمن يفسح مجالًا
للأفكار، بل مجالًا رحبًا، واديًا عريضًا من الزمن
حيث لا مناص من التفكير، وحيث يكون التفكير
فضلًا عن ذلك عذابًا، لكن، ليس الآن، الآن ينبغي
فعل الكثير جدًّا، والتفكير بالنسبة إلى الفعل
كابح. وبالمناسبة: لقد حدث التحول
ولا شيء يمكن أن يغيره. تضع آمالها الآن
في الصيف المقبل، في الأطفال. تعمل. ولا تشعر
مطلقًا بأنها في خطر، ولا تلاحظ إلا متأخرًا
بأنها كانت ولا تزال في خطر. عند آل شوليه،
الفرنسيين مثلها، والمدافعين عن
جبهة التحرير الوطني، تسمع صوتًا في شتاء ١٩٥٩–١٩٦٠
يأتي من أعلى ومن بعيد، وكأنه صوت شخص ورع،

وربما صوت الله. لكنها لا تؤمن بشيء
غير العقل البشري، الذي لم يبقَ منه
الكثير لديها بعد أن صعدت بعينيها
إلى الجسد اللانهائي لصاحب الصوت،
إلى أن وصلت في النهاية إلى
عينيه. باختصار: لقد أصابها السهم. هناك
ومضات برقية من القلب لا تنتظر
التوقيت الصحيح، بل تصيب ببساطة
متى شاءت وأحبت؛ وميض برقي كهذا
يهبط في ذلك اليوم في ممر بيت شوليه. «عمارة»
هو اسم الرجل الذي يتسم بالطول الفارع، مثلما تتسم
أنيت بالقصر البالغ؛ جزائري، ومثل كل الجزائريين
في تونس العاصمة فهو يعمل مع جبهة التحرير الوطني.

من الآن سيتغير مرة أخرى كل شيء؛ ستأتي
الانعطافة وسط التحولات، وهي التي ستصبغ
فيما بعد ذكرى تونس العاصمة، وذكرى تونس الدولة،
بالضوء الذي رأته في اليوم الأول من طائرتها
الهابطة، الغبار المتحمم في الشمس
الذي ترفرف فيه سُحب من الفلامينجو.

ويومًا ما تعرف من عمارة نفسه،

أنها ـ هي التي تعتقد أنها وصلت الآن
إلى بلد صديق وأنها بمأمن من الملاحقة ـ
ستكون في أمان أكثر ألف مرة في السجن،
وأن عمارة ليس عاشقها فحسب، بل أيضًا
حاميها. لكن أليس كل المحبين هكذا،
سواء كانوا رجالًا أم نساء؟ هذا صحيح، لكن
ليس بالمعنى نفسه تمامًا. عمارة هو المسؤول
عن أمنها، وهو يحميها سرًّا منذ فترة طويلة،
أو يكلف أحدًا بحمايتها، ولم تلاحظ هي شيئًا
من ذلك قَطُّ. هل حياتها في خطر إذن؟ صحيح، هناك
جماعة تُسمى «اليد الحمراء». لكن
الشيء الأحمر الوحيد فيها هو الدم الذي تريقه.
عن طيب خاطر تقتل «اليد الحمراء» الجميع، مثلًا الذين
يوردون الأسلحة إلى جبهة التحرير الوطني، أو
مَن يساندها من المحامين أيضًا، أو مَن يقدم لها
يد العون بأي طريقة كانت. لكنهم بالتأكيد لا يقتلون
السمك الصغير، وهي تُعد منه؟ على الأقل تعتبر نفسها
منه. تَرى فرنسا الأمر على نحو مختلف قليلًا:
لقد أُدينت على كل حال، بالسَّجن مدة لا تقل عن
عشر سنوات طويلة. وبمناسبة فرنسا:
متأخرًا جدًّا يتضح أن عصابة القتلة هذه،
«اليد الحمراء»، ليست جماعة من أقصى اليمين المتطرف

وعتاة المستعمِرين، مثلما شاع دائمًا، وكانت
جماعات كهذه موجودة أيضًا. بل إنها الدولة. اليد التي
تُخفي بشرًا من دون عقوبة مطلقًا، أيًّا كان مَن
تخفيه، هي اليد الخفية للمخابرات
الفرنسية. كان لها وجود إذن، هذه الجماعة
من أقصى اليمين المتطرف وعتاة المستعمِرين، التي كانت
تغتال ذوي الفكر المختلف. اسمها الحركي «اليد الحمراء»،
أما اسمها الحقيقي فهو: «فرنسا».

بمساعدة عمارة، وبمحالفة الحظ الكبير، تنجو أنيت
من يد القتلة الحمراء الممدودة من بلادها؛ هذا ما خبِرته
علبة من الشوكولاتة البلجيكية الفاخرة وصلت
بالبريد من لياج إلى منفاها،
ولأن تكات مريبة كانت تصدر عنها، أو بدا أنها
على وشك الصدور على كل حال، أطلِقت رصاصة
عن بعد لإبطال مفعولها. مَن يعرف أن آخرين
لقوا حتفهم عند فتح هدايا شبيهة، سيضحك أقل
على هذه الحيطة. لقد أوقف حُماتُها
طردًا مميتًا حقًّا،
قبل أن يصل إلى يديها.

تعمل. في مكاتب جبهة التحرير الوطني في تونس،

حيث تؤدي واجباتها بانتظام، يريد ذات يوم
شخص يُدعى «يونسي» أن يقابلها. «مَن هو هذا
«اليونسي»؟ لا أعرف أحدًا يُدعى «يونسي».
ربما مريض؟». ينفتح الباب وفي صدر أنيت
«تتصادم كرات نارية وتنفجر»
(على حد قولها). الرجل الواقف على العتبة
هو بول، أو الذي تعرفه باسم «باول» وتعرف أنه خائن،
لأنه هو الذي أبلغ عن دقسي وعنها قبل نحو
ثمانية عشر شهرًا. *Nationale Sept.*
لا أدلة لديها، لكن لديها ما هو أكثر بكثير
من مجرد الشك، لديها مؤشرات، عدد منها؛ لا
علاقة لذلك بالحدس، وخاصة الحدس الأنثوي، لا
علاقة مطلقًا. لماذا كانت الشرطة تعرف آنذاك
في التحقيق بعض الأشياء، مثل أنها حامل، أشياء
لا يستطيع أن يعرفها أحد غيرها وغير دقسي؟ غيرها
وغير دقسي ـ وهذا اليونسي. لماذا سلك قبل ذلك
سلوكًا مثيرًا للشبهات، إذا لم يكن
مشبوهًا؟ إنه الواشي، متأكدة
هي؛ الكثير جدًّا يشير إلى ذلك. أنَّ آلافًا
من الكيلومترات تفصل بينها وبين أطفالها،
أنها مكثت في السجن نصف عام، وأن عائلتها
يجب أن تنتظرها تسع سنوات أخرى ونصف السنة؛ أنَّ

كل شيء، كل شيء تغير في حياتها، ليس لأنها
قررت ذلك، بل لأن هذا الرجل ذا الصفات السيئة، الذي
لا يتسم بذرة أخلاق، قد باع نفسه للمخابرات الفرنسية
التي استخدمته؛ أن محمد دقسي، الذي عرفته باسم «جورج»
وعملت معه وسيطةً فترة، يقبع في السجن في فرنسا،
لأنه مثلها حصل على عشر سنوات، لكنه بخلافها
لم يستطع الهرب؛ كل هذا، وأكثر
بكثير، متأكدة هي، المسؤول عنه هو
هذا «اليونسي». ها هو يقف على عتبة الباب ويبتسم
بوقاحة لا تصدَّق، وبطريقته الزائفة المعهودة.
والآن؟ لا تستطيع في هذا الموقف أن تفعل شيئًا
أكثر من التملص منه.

تخاطب بشأنه اثنين ممن يُسمون «صبيان بوصوف»، وهو
ليس اسم فرقة غناء شعبي، بل جهاز تجسس ومكافحة
التجسس في تلك الدولة التي لم يكن لها وجود حتى تلك اللحظة.
من أجل أمنه الشخصي، وبنسبة أقل من أجل أمن الدولة،
يغير رئيس الجهاز، بوصوف، مكان نومه في كل ليلة،
لكن صبيانه لا ينامون. أم أنهم ينامون؟
تعرف اثنين منهم، تلقي في آذانهما
بشكوكها (أو بيقينها)، مثلما يلقي المرء
حجرًا في بئر عميقة ـ لا يعرف المرء أبدًا،

ربما يكون الأمر مجديًا هذه المرة. تنصت: لا تسمع
ولا حتى صوتَ ارتطام خافتًا. صمت.

تفكر في أشياء أخرى. تواصل عملها كالسابق.

بعد عدة أسابيع يعتقل رجال جبهة التحرير الوطني
الخائن شمالي باريس (أوبيرفيليه) ويحققون معه
شهرًا ونصف شهر. أنه وشى بدقسي ومساعدته،
أو أنه يُتهم بذلك، هي إحدى النقاط فحسب
بين نقاط أخرى في عريضة الاتهامات. بعد أن
واجه دقسي الغدر على يده، والاعتقال على يد آخرين،
استولى يونسي على مركزه، وأصبح
هو نفسه رئيس الولاية الجنوبية -
وهو أمر يزيد من قائمة اتهاماته. من هذا المركز
استطاع بسهولة أن يُشغل الوظائف بعملاء سريين آخرين
ويتسبب في اعتقالات أخرى. وشايات.
اختلاسات. إلى ذلك فقد تحرش بزوجات
رجال جبهة التحرير الوطني المقبوض عليهم
وهددهن، وابتزهن ابتزازًا مقززًا. على كل حال
فهو متهم بذلك. خلال هذه الأسابيع التي
يُعتقل فيها في الضاحية الباريسية، يقدم

اعترافًا قد يقدمه في ظروف مشابهة
شخص بريء أيضًا.
صحيح. لكن ذلك لا يبرئه
مطلقًا. خلال محاكمته لا يوجد
محامٍ أو محكمة. الحبس الاحتياطي
يقضيه في شقة بمكان ما. يدرك بسرعة
وضعه: في الأيام الأولى
يقطع شرايينه بشفرة
حلاقة، لكن الأمر ليس بهذه السهولة. يود
أن ينطلقوا به إلى الغابة كي يلقى هناك حتفه ببساطة،
لكن العدالة السريعة ليست متعجلة إلى هذا الحد.
ينقذونه. لا يُشنق إلا بعد أسابيع، وتُرمى
جثته في نهاية يونيو في نهر السين. في ذلك الوقت
كانت الحرب قد انتهت؛ تصفية الحسابات،
وعمليات التطهير، إلخ، تبدأ الآن فحسب.

أنيت من مناهضي عقوبة الإعدام.

في هذه الحالة أيضًا؟

في كل الحالات.

لكن سخطها لا يتجاوز حدودًا معينة.

بين طوفان البشر الذي تتعرف إليه أنيت
عبر أكثر من تسعة عقود، أو الذي
تقابله، مكوِّنًا محيطًا من الكائنات الغريبة
التي عرفتها جيدًا أو استبعدتها، فإن يونسي
شخصية لا تكاد تتعرف على ملامحها، وجه عابر
رأته عدة مرات عام ١٩٥٩، ثم مرة أخرى عام ١٩٦١،
إنه رأس يطفو على بحر الزمن لوهلة
ثم يختفي ثانية. ومع ذلك فإن هذا الإنسان
الضبابي الذي لا يلفت الأنظار
هو العائق الذي تصطدم حياتها به، الحجر في الطريق،
وبعده يأخذ كل شيء مسارًا آخر.

بعد أن أبطلت المخابرات مفعول
قنابل البريد، يوشك فجأة
أن يأتي خطر من الجانب الآخر: أصبحت أنيت
مرة أخرى ذات شعر أشقر داكن، مثلما كانت منذ مولدها،
لكنها لم تعد لفترة كذلك من أجل هروبها من فرنسا. اللون الأشقر
في تونس العاصمة، وتونس الدولة في هذه الأيام، أي
في يوليو ١٩٦١، ليس نموذجًا للجمال، بل إهانة، إنه
الراية الحمراء ـ إحدى الرايات الحمراء ـ وخلفه

اليد الحمراء، يد الاحتلال التي تأتي لتصافح المحتل
على مرآه. «محتل»؟ أليست تونس
منذ عدة سنوات عاصمة دولة حرة
ذات سيادة؟ هذا صحيح. ولكن ما يحدث دائمًا هو أن فرنسا
عندما تذهب، فإنها لا تذهب تمامًا. لا يبقى فحسب
أناس، وهيئات، ولغة، وشبكات،
إلى آخره، بل ما دام ذلك ممكنًا، فإنها تتشبث
بقطعة صغيرة أو كبيرة من البلاد، وهذا ما حدث لاحقًا
في صحراء الجزائر. أما في تونس فإنها
بقعة صغيرة من الأرض، لكنها ذات أهمية استراتيجية كبيرة
وللاحتفاظ بها يضع الفرنسيون المغادرون
شروطًا: «حسنٌ، حسنٌ، سنذهب، ولكن
بشرط أن نحتفظ بقاعدة بنزرت البحرية».
يسير الأمر لفترة سيرًا حسنًا، إلى
أن تظهر المصاعب في صيف ١٩٦١، ويتفجر
صراع يسفر عن مئات من القتلى،
من بينهم ما يزيد على عشرين فرنسيًّا.
بعدها بفترة قصيرة يخلي المنتصر الميدان،
وهو ما كان مقررًا، إن آجلًا أو عاجلًا،
ولا بد أن يحدث، ما دامت
بنزرت تقع في تونس. لماذا إذن
هذه الحرب الصغيرة؟ حتى لا تفقد فرنسا ماء وجهها،

يفقد مئات حياتهم. أما الباقون فهم
ساخطون على الفرنسيين وعلى كل ما هو فرنسي،
ولأن أنيت لا ترتدي تيشيرتًا مكتوبًا عليه في الأمام بخط كبير:
«لقد حصلت على عشر سنوات سجنًا لأني
ساعدت جبهة التحرير الوطني!»، فهي بشعرها الأشقر
لا تفرَّق كثيرًا عن الفرنسيين من نوع آخر. إنها
تعلم بالطبع مَن هي، وتعلم أفكارها، لكنها
لا ترى الخطر واضحًا، إلى أن تعود مساء يوم
من المستشفى، وفي طريقها إلى المنزل يحاصر
سيارتها كارهون لفرنسا وهم يزأرون.
السيارة، «فيات ١١٠٠»، تنقلب بسرعة،
ولأن الشرطة تقف بجانبها ناظرة إلى السماء،
فإنها تنقلب داخل الفيات. صحيح أنها نفذت بجلدها
ولم تُصب سوى بخضة، لكنها من الآن فصاعدًا لا تريد
أن تظل شقراء، بل سوداء مثل التونسيات، أو حتى
أكثر سوادًا. لا يساعدها ذلك دائمًا، لكنها بهذه الصبغة
تقضي الصيف، وفي أكتوبر تنتصر فرنسا،
وبعدها على الفور تُذعن وتستجيب. بنزرت
تصبح تونسية، وشَعر أنيت يرفرف في الهواء ثانية
بلون أشقر.

قبل ذلك يجيء أغسطس، وتسافر فعلًا

إلى إيطاليا، وفي الطريق إليها كان جو وأطفالها أيضًا
على ظهر قارب، أو بكلمة أدق: على ظهر يخت.
لا أحد يعترضهم في أثناء الرحلة، يصلون جميعًا،
ليسوا كلهم، لأن مريم، الطفلة، ليست معهم، لم
يأخذها الأب معه في النهاية.
أنيت غاضبة، وحزينة في المقام الأول. بلغت البنت
الصغيرة عامًا الآن، وهي لم ترها
قبل هروبها إلا بضعة أسابيع. منذ فترة طويلة
والأطفال متفرقون بعضهم عن بعض. مريم
لا تعيش عند أبيها، بل عند إليز ولوسيان.
أم أنيت، مارت الصغيرة، أخذت جيل معها إلى
البروتاني. جان-هنري وحده، الطفل الأكبر، يعيش
مع جو في البيت، ما معناه أنه معظم الوقت لدى الجيران.
عائلتها ممزقة. وأنيت كذلك. والآن:
إجازة؟ نعم. إنهم في بورتوفينو، ولديهم
عدة أسابيع. أعليها أن تضيعها وتفسدها،
لأنها أفسدت الكثير من قبل؟ سعيدة هي
بولديها. جو رجل رائع، لكن له للأسف
منذ البداية علاقات غرامية، وعلى الرغم من ذلك
يظل رجلًا رائعًا؛ ولأنيت أيضًا منذ عدة أشهر
علاقات غرامية. كل منهما يعرف
غراميات الآخر. لكن ماذا يفعلان

بالأطفال؟ الكل أو لا أحد: هذا ما تريده أنيت، وربما
تطلب بذلك الكثير، وفوق ذلك فلا رغبة كبيرة
لدى جان-ري في السفر إلى أفريقيا من دون كل أصدقائه.
عندئذ تنتهي الإجازة.

وسرعان ما يلوح أمل جديد،
واتفاق: بعد أن تستقل الجزائر ـ
ولن يستغرق ذلك طويلًا الآن ـ
وعندما تتأكد من أنها ستمكث فترةً
في هذا البلد، وسيكون لها محل إقامة
ثابت، عندئذ ستحصل على الأطفال الثلاثة،
كلهم.

لا يمكن أن يستغرق ذلك وقتًا طويلًا، ومع ذلك يبدو
بعيدًا جدًّا. لكن في الخريف يعلن جو فجأة
أن جيل، الأوسط، ذا الأعوام التسعة،
سيعبر الحدود السويسرية في حقيبة سيارة
ثم يأتي إليها بالطائرة. ستساعده في ذلك
صديقة. نعم، سيجيء
الصبي. الفرحة والآمال كبيرة،
تريد أن تفعل كل شيء على نحو صحيح، لكن ربما
لا شيء «صحيحًا»، إذا كان الكثير معقدًا هكذا.

أولًا: المدرسة. المدرسة الفرنسية ترفضه
بسبب أمه الإرهابية
(معه أوراق مزورة، لكنها
لا تكفي). في مدرسة أخرى، للأيتام،
معلمٌ رائع، لكن ابنها يتحول هناك
إلى طفل محب للشجار وفاقد للرغبة. يتسم الأيتام
بسمات خاصة بعض الشيء، يطلقون عليهم «أبناء الشهداء»
لأن آباءهم لقوا حتفهم في الحرب. ومع أن
أنيت تشرح لابنها الصغير ظروف هؤلاء
الأيتام، وأنه ليس يتيمًا ولا ابن شهيد، فإنه لا يفهم
ذلك فترة طويلة. وفي النهاية يُصاب أيضًا بمرض
خطير. سل رئوي. لا اتهامات يُمكن أن توجه إليها
أقسى من الاتهامات التي توجهها هي، أنيت، لنفسها.
تسب نفسها بأبشع السباب، كأم مهمِلة،
تصيب الجميع بالتوتر، الأصدقاء، الأطباء، أمها،
مارت الصغيرة، التي تسافر في النهاية مع الصبي
الصغير إلى مصحة في يوغوسلافيا.
ينال الشفاء، فيما يخص رئته على كل حال. بعدها
يعود إلى فرنسا، وبذلك تحتضر في عينَي أنيت
كل الآمال المتعلقة بالأطفال،
ما دامت لا تستطيع العودة بعد إلى وطنها،
وتعيش على الجانب الآخر من المتوسط،

في المنفى.

في الدولة المجاورة يُستَشرف من الآن
اليوم الذي لن يعود فيه علم الجزائر
ممنوعًا، اليوم الذي سيُرفع فيه: بعد ثمانية أعوام
توشك فرنسا على كسب الحرب
وخسارة الجزائر، كما كانت الحال مع المغرب
وتونس وإقليم بودوتشيري الهندي، والهند الصينية،
والسنغال، وتوجو، وتشاد،
ومناطق أخرى، لأن البشر لا يقبلون على الدوام
بأن يُسلب منهم بلدهم وحقوقهم، حتى لو فعل ذلك
بلد حقوق الإنسان. لكن ديجول ما زال يقول:
«لا نتحدث مع إرهابيين» (في حين يَسمح بمحادثات سرية
مع جبهة التحرير الوطني). وما زال يقول
عن بن بلة الذي يغدو بعد فترة وجيزة أول رئيس
للدولة الجديدة: «المرء لا يتفاوض مع عريف في الجيش».
وهنا على المرء أن يعلم ـ حتى إن كان وقف إطلاق النار
سيتأجل قليلًا بسبب ذلك ـ أن بن بلة
خلال الحرب العالمية الأخيرة خاطر بحياته
حتى يحرر إيطاليا في البداية، ثم فرنسا،
ثم ألمانيا، من الألمان، أي من ذلك الجزء من
الألمان الذين... لقد حارب في المعركة

الدموية حول مونتي كاسينو التي قُتل فيها
شقيقاه، ووضع ديجول على صدره أعلى وسام
يستطيع مَن هو في درجته الحصول
عليه. عدم ترقيته إلى رتبة ضابط
لا علاقة له بقلة إنجازاته الشخصية،
بقدر ما له علاقة بأن الجنود الجزائريين في
الجيش الفرنسي مسموح لهم بأن يحاربوا
وأن يموتوا، لكنهم مبدئيًّا لا يصلون إلى
رتب أعلى. واحد فقط منهم، اسمه
«رافع أحمد»، استطاع الوصول إلى رتبة عميد،
أي *général de brigade* فحسب، الرتبة، إذا شئنا الدقة، التي وصل إليها
ديجول أيضًا في نهاية حياته العسكرية،
وعلى نحو مؤقت. ولم يصل قَطُّ إلى
أعلى رتبة «جنرال»، لأنه
فرَّ إلى إنجلترا، إلخ. استطراد صغير. معذرة.

مع رجال العصابات هؤلاء، بلا رتب ولا أسماء، أو
بأسماء عربية غريبة، تبدأ في مطلع ١٩٦٢
المفاوضات الرسمية أيضًا. في منتصف مارس تُبرم
اتفاقية وقف إطلاق النار في إيفيان على بحيرة جنيف،
يسقط بعدها مزيد من القتلى، لأن عتاة المحرضين
على الاستعمار (القيادة السرية لهؤلاء الحمقى

تُدعى «OAS»)، يتشممون وراء ذلك حق تقرير المصير،
لذا راحوا يضربون حولهم وقد أعماهم الغضب.
هكذا يُقتل عمدة إيفيان، على سبيل المثال،
لأنه كان جسورًا واستقبل
المفاوضين. ولأنه مجهول، وبالنظر إلى
مئات الآلاف من ضحايا هذه الحرب
لا يكاد يتذكره أحد، فإننا نخصص له، لكاميل بلان
الاشتراكي، وعضو حركة المقاومة السابق، وعمدة إيفيان،
هذه الوقفة القصيرة على طريقنا وطريق أنيت
إلى هدف، كان هدفه هو أيضًا، لكنه لم
يره قَطُّ، أي الطريق إلى السلام وإلى
بلد جديد، ليس مصيره في يد
فرنسا، بل في يد سكانه.

تُوفي عمدة إيفيان، لكن
المفاوضات تُقام على الرغم من ذلك، وتنتهي
بمعاهدة. أحد بنودها ينص على العفو
عن كل مَن أدين في أعقاب هذه الحرب.
وفقًا للاتفاقية يُفرج عن زارعي وزارعات القنابل،
وزعماء جبهة التحرير الوطني،
حتى مَن حُكم عليه بالإعدام، ما داموا
على قيد الحياة، ويُطلق أيضًا سراح

ياسف سعدي وكل الآخرين. على خلاف أنيت؛
صحيح أنها أطلقت سراح نفسها بنفسها، لكنها ما زالت
لسنوات عدة لا تستطيع العودة إلى وطنها وإلى أطفالها.
وعلى خلاف كل الفرنسيين الآخرين أيضًا الذين
أُدينوا بتهمة تقديم المساعدة للجبهة. صحيح أن العفو يشمل
الفرنسيين أيضًا، لكن فقط إذا كانوا، مثلًا، من أفراد
الجيش الذين مارسوا التعذيب. لكنه لا يشمل حاملي الحقائب
أو المنشقين. لقد توصلت جبهة التحرير الوطني
إلى ما يمكن التوصل إليه؛ حفنة الفرنسيين الذين
ساندوهم يستحقون بالتأكيد الاحترام، لكنهم
لا يتمتعون بالأولوية في المفاوضات.
حظهم سيئ. ربما يصدر قريبًا عفو
آخر؟ ربما. الأمل عَونٌ.

من بين المُفرَج عنهم صديقات أنيت
من سجن «لي بوميت»، وفي مقدمتهن
المرأة التي تجسد الجزائر، جميلة بوحيرد،
التي استاءت من ديك عيد الميلاد الذي طهته أنيت،
لكنها بصرف النظر عن ذلك كانت رفيقة جيدة في السجن.
في أبريل ١٩٦٢ تصل صاحبات أنيت القديمات
إلى تونس حيث تأسست الدولة المجاورة،
وحيث توشك صراعات جسيمة أن تندلع.

تُستقبل المناضلات استقبال الظافرين
وتوفَّر لهن الإقامة في فيلَّا سلامبو في ضاحية
المرسى الأنيقة، وهناك يضعن بلذة
عجينة السكر اللزجة على سيقانهن ثم ينتزعنها
بلذة وألم مع شعيرات الساق. يستمتعن بشمس الشهرة
ويشتركن جميعًا، ذهنيًّا، في بناء جزائر
اشتراكية، وفيها يكنَّ، هنَّ المناضلات، أكثر
من مجرد زوجات وأمهات. لكن الأحداث كلها
تأتي على نحو مغاير. ويحدث أيضًا
أن ينتقل المعهد الفرنسي فيما بعد إلى فيلَّا سلامبو
حيث تجري الدعاية للثقافة واللغة الفرنسيتين. مع أن
اسم الفيلَّا كان يمثل من قبل أيضًا دعاية لذلك: فهو
عنوان رواية لفلوبير، وهو اسم الشخصية الرئيسية فيها،
المستمد من سلمبعل، إحدى بنات حملقار. إننا نلاحظ:
حيثما يجب على الفرنسيين الذهاب، فإنهم يبقون. إنهم
حقًّا في كل مكان، وحتى في الأماكن التي لا ينبغي
أن يكونوا فيها، ولا يريدون ذلك، مثلًا في العَلَم الجديد، الذي
صممته، كما يُقال، الفرنسية إميلي بوسكان.

من بين المُفرَج عنهم أيضًا العريف
بن بلة الذي سُجن منذ أكتوبر ١٩٥٦ مع أربعة
آخرين من زعماء جبهة التحرير الوطني، بعد أن

التقطت المخابرات الفرنسية طائرتهم
بين المغرب وتونس. تتبادل أنيت
الحديث معه، إذ سرعان ما يعرف الجميع
في جبهة التحرير الوطني في تونس بعضهم بعضًا.
وسط هياكل السلطة الهشة هذه، أشياءُ غير قليلة بالتأكيد
لا تنتبه لها، على الرغم من أن جميع
من تختلط بهم، والذين لديهم نفوذ ما،
يجيدون الفرنسية، وتخرجوا في
مدارس فرنسا. هل سيهتم ذوو السلطة
في الدولة القادمة بالجماهير العريضة؟
هل ينوون اقتسام ثروات البلاد مع الجميع؟
أم أن ما سيحدث لن يتعدى استبدال نخبة
من الجزائريين بنخبة من الفرنسيين؟ وهل سيغير
الاستقلال أي شيء على الإطلاق بالنسبة إلى الذين
يعانون الجوع ولا يستطيعون الذهاب إلى المدرسة؟
هذه هي الأسئلة التي تطرحها أنيت على نفسها، وأيضًا
على المحيطين بها، بمجرد أن تثق بهم. بن بلة
هو الوحيد الذي يُبدي قلقه بشأن الفلاحين،
أي الأغلبية العظمى في دولة المستقبل، وبشأن
النساء اللاتي ربما لسن أغلبية، لكنهن
النصف على كل حال. بإمكانها أيضًا
أن تتحدث معه بصراحة عن كل ما لا يريحها،

بل يسبب لها قلقًا عظيمًا؛ التفكير القبلي،
الصراعات حول السلطة فحسب، وذلك السلوك
العتيق في تبادل الخدمات: «شيِّلني وأشيلك». تثق
بالرجل الذي يسألها
عن تصوراتها بخصوص الشؤون الصحية. ربما
تفيد قليلًا هذه الدولة التي لم تولد بعد،
هكذا تقول لنفسها. وبعد فترة وجيزة تنادي بن بلة
بـ«ب. ب.»، أي «بيبي»، مثل آخرين من المقربين منه
أيضًا. خلف كل الرؤى والآراء المعروضة على الجميع
ترى أنيت دائمًا إنسانًا يتحدث ويفعل،
وترى، أو تعتقد أنها ترى، ما إذا كان هذا الإنسان
يتطابق مع ما يعلنه ويتغنى به، أو أن قناعاته
مبالغ فيها مثل قميص أبيض مُنشًّى.
عن بن بلة، تقول لنفسها: «إنه على ما يرام».
إذا كان مصير الفلاحين الفقراء يهمه،
فربما لأنه هو نفسه فلاح فقير،
أو لأن والديه كانا منهم. أكثر مَن تتفاهم معهم
أنيت هم البسطاء عمومًا، الذين يُطلق عليهم في فرنسا
«المتواضعون»، *gens modestes*،
كأن الفقر يؤثر على الشخصية على ذلك النحو
الذي يتمناه الأغنياء.

لم يدرس بن بلة، على الأقل
ليس في أي جامعة. كان جنديًّا، وعريفًا، وناقل أسلحة،
ومن رجال العصابات (سطا على مركز البريد في وهران،
لا ليملأ جيوبه، بل ليملأ خزانة الحزب
الذي سبق جبهة التحرير الوطني)، وسُجن
طويلًا أيضًا. خلال ذلك كله خَبِر وتعلم
بعض الأشياء؛ في حالة أنه كان متواضعًا وبسيطًا،
فعلى الأرجح لم يبقَ كذلك، فالمتواضع
سيصبح ربما جنديًّا، لكنه بالتأكيد لن يغدو
من رجال العصابات، وشخصية مهمة في
منظمة سرية تُعَد إرهابية.
عاش فترةً بعد ذلك في مارسيليا
ولعب في نادي «أولمبيك مارسيليا»، بل
سجل حتى هدفًا ذات مرة في بطولة
كأس فرنسا. الرجل يصغي ـ ما لا
يحدث كثيرًا ـ عندما يقول له أحد شيئًا.
إنه في السادسة والأربعين، لكنْ فيه شيء فتي،
طفولي، وفوق كل ذلك له لُغد.
تقول أنيت لنفسها: «الرجل طيب». وهي
ربما محقة؟ بالمناسبة، سيتزوج بن بلة
فيما بعد، ويتبنى ثلاثة أطفال، أحدهم

مُعاق. والآن بصراحة: هل سيفعل ذلك إنسان
إذا كان في الحقيقة نذلًا كبيرًا؟

نتظر إلى الوراء ـ أنيت نفسها
مضطربة وتلقي من بعيد نظرة إلى الوراء ـ
ونعتقد أننا نستشرف شيئًا، كان
ملتحفًا بالضباب. بفضل معرفتنا بما
حدث منذ فترة طويلة، لكنه كان لمن عاش آنذاك
في غياهب المستقبل، نعتقد أننا مؤهلون لأن نشارك
في الحديث، ونهز الرأس، ونَدين هذا أو ذاك. أما بالنسبة
إلى مَن عاصر الأحداث فالطرق كلها غارقة في الضباب.
ومع ذلك، قد تكون أنيت محقة بعض الحق
منذ أيام تونس: ربما لا يكون الرجل طيبًا، لكنه
ليس سيئًا، وهو على كل حال أفضل من
كثيرين آخرين. الصراعات حول الحكم
في أوجها، أسابيع فحسب ويلوح
الاستقلال. بعد عقود ما زال من
غير الواضح ماذا حدث بالضبط في تلك الأيام
بين القوات التي تنتظر على حدود
تونس، وبين «البارتيزان» داخل البلاد،
المتفرقين في مختلف المنظمات السرية، وبين مناضلي
الاتحاد الفرنسي لجبهة التحرير الوطني الذين كانوا

حتى ذلك الوقت ينشطون في العاصمة، وأولئك، مثل
بن بلة، الخارجين لتوهم من زنزانات فرنسا
ويريدون أن يروا نور السلطة. لا نساء بينهم،
ولا عجب في ذلك، إذا فكرنا في أن
فرنسا أيضًا لم تكن بها وزيرات.
إنهم إذن رجال كثيرون عاشوا وكافحوا
سنوات في انتظار هذه اللحظة، أو
قبعوا في السجون أيضًا، وأولئك
الذين يسمون أنفسهم «أخوات»، و«إخوة» على وجه الخصوص،
فإن ميلهم إلى أي نوع من الأُخوة
هو أقل من أي أحد آخر في هذا العالم. مَن
لا يريد عقد تحالفات أو تقديم تنازلات مؤلمة، عليه
في الحقيقة أن ينسى الأمر برمته؛ قد يتحلى الفرد
بالقوة والشجاعة كما يشاء: في قفص مع حيوانات مفترسة
لن يبقى على قيد الحياة. يواجه بن بلة
في الحكومة المؤقتة، التي لم تحكم بلدًا بعد،
خصومًا أو أعداء، ولذلك يتحالف مع العسكر
وزعيمهم هواري بومدين.

وهكذا فإن السوس من البداية
ينخر فيهم، أو ربما تلتف عليهم أفعى. المسنود
بالجيش، من دون أن يكون له جيش خاص، لا

يجلس مطمئنًّا ولا مستريحًا. لكن، هل هناك
ثورات، وتأسيس للدول، وبدايات جديدة
بلا سوس؟ تقريبًا لا. جبهة التحرير الوطني،
التي كانت يومًا حركة من أجل دولة حرة ذات سيادة،
هي الآن حزب، الحزب الوحيد، في
هذه الدولة الجديدة التي ستتأسس
قريبًا. يروق لأنيت ما ينوي بن بلة فعله،
أي تأميم ملكية الأراضي، وما يطلق عليه
«أدوات الإنتاج»، والاشتراكية، والإدارة ذاتية؛
طريق ثالث للعالم الثالث. الأمل
كبير جدًّا، وهذا السوس صغير جدًّا، حتى إنه
في ذلك الوقت يختفي في الأمَل مثل ذبابة الفاكهة
الشائعة في الخَل.

في الأول من يوليو ١٩٦٢ يُعلَن أخيرًا ما يعرفه
أو يحدس به الجميع منذ أمد بعيد، بمن فيهم ديجول أيضًا
والفرنسيون في الجزائر، ولهذا أيضًا أجلوا
الاستفتاء الشعبي قدر ما استطاعوا:
كل الشعب الجزائري تقريبًا ـ
تحديدًا: ٧٢, ٩٩٪ ـ لم يعد يريد بعد اليوم
أن يكون مستعمَرًا وجزءًا من فرنسا. ألم يكن

ممكنًا سؤالهم قبل ذلك؟ كان لا بد من
ثمانية أعوام حربًا، وخمسمائة ألف قتيل تقريبًا،
من بينهم عدد كبير بشكل غير متكافئ،
أربعمائة وخمسون ألفًا، غير فرنسيين
(لا أحد يعرف أرقامًا دقيقة)،
حتى يكونوا على استعداد للسؤال عما
إذا كان السكان الأصليون يفضلون ربما
أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم. إنها المرة الأولى منذ
مائة وثلاثين عامًا التي يسألهم فيها أحد شيئًا.
هنا في الجزائر ما زالت فرنسا،
ما كانته يومًا في فرنسا، عندما كانت الانتخابات
أمرًا يقتصر على عدد من رجال الدين
والنبلاء. والآن، ١٩٦٢، يُسأل الآخرون
لأول مرة، وبالإجماع يقولون
نعم لدولتهم الخاصة. على الأرجح
يتصورون أنهم، من الآن فصاعدًا، سيُسألون كثيرًا رأيهم
في شيء ما، لكنهم كانوا مخطئين. المرة التالية التي
سيُسألون فيها شيئًا ستحين في ١٩٩١،
ولكن إجاباتهم سيجري تجاهلها بالطبع.

مسكينة الجزائر! ومسكينة أنيت. كلتاهما

لا تعلم ما ستثمر عنه الفترة القادمة، إنهما
مفعمتان بالأمل والترقب بخصوص البلد الجديد، حيث
يبدو كل شيء ممكنًا، حيث لن يبقى شيء على حاله
وكل شيء سيكون جيدًا وجديدًا. الاستقلال
دنا الآن قطافه، وفي اليوم الذي يسبق
الاستفتاء تجلس أنيت، ومعها عمارة وشخص آخر
يبدأ كذلك بحرف العين، عبد الحميد، الصديق
لكليهما، في سيارة أنيت «الفيات»، التي تحمل
على الصفيح الساخن متاع منزلها، وقد تكوم
فوق رؤوسهم مع الطاسات وكل ما يلزمها.
يمثل الأمر مخاطرة بالنسبة إلى أنيت، ما دامت الجزائر
فرنسا، وهي محكوم عليها بسنوات طويلة
من السجن. ينصحونها بألا تفعل، لكنها
مصممة؛ إلى ذلك فعليها أن تهتم
بمرضاها الذين يُنقلون قبل بقية السكان
العائشين في المنفى إلى بلادهم الأصلية القديمة
الجديدة. الحدود مكتظة
بالساعين إلى الوطن، والتفتيش على أشده،
في أثنائه تُظهِر أوراقًا مزورة باسم «جميلة
مقطفي»، وتدس أنفها بخجل متصنع
داخل الحجاب غير المألوف. يعبرون

خط موريس[1] والمنطقة المحرمة كلها المحاطة
بالأسلاك الشائكة والألغام غير المرئية، يسيرون على طريق
غير ممهد، حيث ما زالت تفوح في محيطه
رائحة الموت. لا يقولون شيئًا، أولئك الذين يشعرون بقلوبهم
تتراقص في الصدور عند وصولهم.
تسير السيارة بحذر، لكنها تسير. أول مكان يَصلون
إليه ـ اسمه اليوم «العوينات»، وآنذاك «كليرفونتين» ـ
يستقبلهم استقبالًا احتفاليًّا، فهم أول
أبطال التحرير، أو يكادون، الذين
يسيرون في هذه المنطقة منذ الاستفتاء،
يستقبلونهم بالأحضان والقبلات، يُقَبلون أيضًا
أنيت بلا خجل، ومن دون أن يشعر أحد بشيء
سوى الفرحة والاحتفال.
تسير السيارة، وتسير، دائمًا في اتجاه الغرب، إلى أن
يسمعوا من عمق الليل ضجيجًا مبتهجًا
يقترب حتى يصل إليهم: يقتربون من مدينة
قسنطينة التي شُيدت قبل ألف عام من
الفتح العربي، وقبل أكثر من ألفي عام

(١) خط دفاعي أنشأه الاستعمار الفرنسي في خمسينيات القرن العشرين في الجزائر، وكان الهدف منه منع مقاتلي جبهة التحرير الوطني من دخول الجزائر عن طريق تونس والمغرب. أُطلق عليه اسم وزير الدفاع الفرنسي أندريه موريس. (المترجم).

من غزو الفرنسيين. الهواء كله يهتز
ويجعل من المدينة فرقة موسيقية
تصعد بصيحات تهليل سكانها حتى السماء،
وتهبطُ بها إلى كل الأغوار والأخاديد
التي تكثر هناك، وأيضًا إلى الضواحي
الرحبة التي تقترب منها ببطء
سيارة أنيت «الفيات». بعد يومين من الاستفتاء
اعترف ديجول باستقلال الجزائر
نهائيًّا، خرج الناس يهللون مبتهجين في الشوارع
وفي الأزقة، يرقصون على إيقاعات «المالوف»
العربية الأندلسية وكذلك على أغاني جوني هاليداي
أو على موسيقى «التويست»، والنساء يطلقن الزغاريد
مثلما يفعلن في الأعراس. يطلقون عليه بالفرنسية
Liesse populaire، الاحتفال الشعبي، كلمة *liesse*
مشتقة من *laetitia* اللاتينية، أي «البهجة»، لكنها تعني أكثر
من ذلك، إنها تعني المرح والمجون، وبين الآلاف
الذين يحتفلون طيلة أيام ويضحكون، بين الأيادي الكثيرة،
الكثيرة، الملوحة والمرفوعة في الهواء،
تمسك يدٌ فجأة يدَ أنيت وتضغط عليها؛
إنها يد محمد دقسي الذي
لم تره منذ المحاكمة. قبل أن
يختفي سنوات في السجن، كان قد

انحنى أمامها، أمام مَن منحت بلدًا مستعبَدًا،
بلده، سنوات كثيرة من حياتها. الآن يحتضن
كل منهما الآخر، لا سيما أن كل مَن حولهما
يحتضن الآخر، سواء كان طفلًا أو رجلًا، وإذا
لم يسمح الدين بذلك، فإنهم في هذه الأيام يستغنون
عن فروضه. السيادة هنا للبهجة.

هنا أي في قسنطينة، في هذا
اليوم تحديدًا الذي يستمر ثلاثة أيام تقريبًا.
في أماكن أخرى يسود الكره والقتل. في وهران،
غربي الجزائر، تقع مذبحة ذات عصر
يروح ضحيتها أوروبيون عديدون؛ أعضاء جبهة
التحرير الوطني، والشرطة المؤقتة الجديدة أيضًا، يفتشون
عنهم في شققهم، ويخلعون الأبواب، ويطلقون الرصاص على
سائقي السيارات أو على امرأة تقف في الشرفة. عديدون
يختفون، ولا يُعثَر على جثثهم أبدًا.
بجانب سينما «ركس» يعلقون جثة فترة طويلة
على خطاف حاد من أحد محلات الجزارة. الوضع
أقل سوءًا في أماكن أخرى، لكنه بالرغم من ذلك
سيئ جدًّا. ما كاد هذا البلد الجديد يعلَن،
حتى وجد نفسه يسبح في الدماء،
ليست الدماء الفرنسية فقط، مطلقًا، بل على وجه الخصوص

دماء مواطنيه أيضًا. جزائريون يقتلون جزائريين،
لأنهم، مثل ما يُطلق عليهم «الحركي»، حاربوا
من أجل الفرنسيين، سواء طوعًا أو لا، أو لأنهم اقتربوا
منهم مجرد اقتراب، أو كانوا ينتمون إلى فصيل آخر.
لماذا لا يتناهى إلى سمع أنيت من كل ذلك
سوى القليل؟ لا تشعر بنفسها في خطر أبدًا،
لا في تلك الأيام الأولى، ولا بعدها،
وعلى الأرجح لم تكن قَطُّ في تلك
الأماكن تحديدًا التي تحدث فيها ملاحقات
جماعية، مثلما يمكن أن يحدث للمرء في عام
٢٠٠٥ إذا كان يعيش في فرنسا
ولا يعرف شيئًا مطلقًا عن نحو
عشرة آلاف سيارة تُشعَل فيها النيران
في غضون عدة أسابيع، إلا ربما
عبر الراديو والتلفزيون إلخ. على المرء
أن يكون في مكان الحدث، وفوق ذلك
ينبغي للمرء أن تكون لديه
إرادة المعرفة. هل تريد هي أن تعرف ذلك؟

من مليون فرنسي لا يبقى
في الجزائر المستقلة إلا نحو

الخُمس. الباقون يفرون. عندما
تعبر أنيت الحدود، في صيف ١٩٦٢، يكون
أغلبهم قد رحل، بحقائب أو
بدون حقائب قد ركبوا سفنًا مكتظة
قاصدين بلدًا غريبًا بالنسبة إليهم اسمه «فرنسا». كان
عليهم البقاء، هكذا تفكر أنيت. كان بإمكانهم أن
يبقوا. ربما تفكر في ذلك أيضًا، لأنها
تبدو تمامًا مثل الفارين، أو مثل
الأوروبيين على أي حال، عندما
يكون واضحًا أنهم أوروبيون. وإذا غضضنا
البصر عن سيارتها الفيات المقلوبة (وهي بعد في تونس)،
فلم يحدث لها قَطُّ أي شيء. تعد مخاوف
الفرنسيين الجزائريين مبالغًا فيها بشدة.
أهي كذلك؟ البعض منهم يبقى
فعلًا؛ ليسوا كثيرين. ليس فحسب لأن
عليهم أن يخافوا على حياتهم وسلامتهم؛ إنهم
الآن ببساطة أشخاص غير مرغوب فيهم
في هذا البلد الذي ولدوا فيه، وولد في بعض
الأحيان أيضًا أسلافهم. من يملك شيئًا،
يُسلب منه، وما زال أشخاص حتى في ٢٠١٧
يطلبون من المحكمة في فرنسا ـ إذ

لا يُنتظر شيء من محاكم الجزائر ـ
تعويضًا. ولا ينالون شيئًا.

ربما تكون أنيت على سجيتها لأنها
في تلك الأيام أو الأسابيع الأولى الشائكة
تسافر كثيرًا مع عمارة، فهي زوجته،
وإن لم يكن أمام القانون، من دون أن
تتحتم عليه حمايتها، فحضوره
وحده بجانبها يحميها. من قسنطينة
يسافر كلاهما ـ ومع عبد الحميد يصبحون ثلاثة ـ
إلى مدينة البليدة جنوبي الجزائر العاصمة، مسقط رأس
عبد الحميد، وحيث سيمكث بداية (وحيث قضى سابق الذكر
فرانز فانون عدة سنوات رئيسًا للأطباء في
قسم الأمراض النفسية)، وبعد ذلك يواصلان السفر
جنوبًا، إلى البرواقية، إلى عائلة
عمارة. من يدرس الأمر، يقرأ ويسمع أن
الجزائر الفرنسية كانت مجتمَعًا به
طبقات، وفي أعلى الطبقات، أو الصناديق، كان بالطبع
الفرنسيون. وبين المجموعات كان هناك
مجال للاحتكاك من كل نوع، هذا صحيح،
وكان يدور تعامل بينها، لكن هذا لا يعني
أنهم كانوا يختلطون بعضهم ببعض. والآن،

لأن هذا البلد لم يعد أخيرًا فرنسيًا، والمرء
قد يتخلص قريبًا من الفرنسيين،
يُحضر الابن عمارة فرنسيةً معه إلى المنزل،
وهي ليست فرنسية قُحة فحسب، بل أيضًا
أكبر منه باثني عشر عامًا ـ هذا ما لم نذكره
حتى الآن، لكنه بالتأكيد ليس عديم الأهمية
تمامًا ـ أكبر منه إذن باثني عشر عامًا، وكأن ذلك
لا يكفي، فهي كذلك لا تزال متزوجة
ولديها ثلاثة أطفال صغار (وهذا ما لا يُذكر
على الأرجح، إلا على هذه الصفحات). استقبال
المرأة الغريبة، الفرنسية، الزانية
والمسيحية (وربما أسوأ من ذلك: الملحدة)
كزوجة الابن، أليس هذا أكثر من اللازم بالنسبة إلى أب
متشدد في أمور الدين، ويعيش حسب فروض
الإسلام؟ قلبها منقبض قليلًا عندما
تقترب بالسيارة الفيات من دار الوالدين. الشقيق الأكبر
لعمارة مطلع على الأمر، وحذر
الأب، ولكن ماذا يعني ذلك؟
أيمكن أن يكون المرء متأكدًا من أنهم سيرحبون به
إذا كانت له مثل هذه العيوب الكثيرة الواضحة؟

الأب رجل حكيم، لا يرى الأمور

بتلك النظرة الضيقة التي قد ينظر بها المرء دائمًا
إذا كان مسلمًا أو يهوديًّا أو مسيحيًّا.
اسمه «مهند». كان جده يصارع
الأُسود، من المرجح إذن أن يتغلب أبناؤه
على بضعة مستعمِرين. في لحيته
تغفو أساطير، وفي قلبه
أسرته ذات الأفراد الأربعة، وهي ستنتمي إلى هامشها أيضًا
بعد وقت ليس بالطويل، أنيت، الحيوية،
والذكية، ذات العينين الخضراوين حينًا، والزرقاوين أحيانًا.
ولديها، في المقام الأول، شيء آخر، يعادل
على الفور عيوبها: لديها هالة البطولة
لأنها ساعدت جبهة التحرير الوطني، ولهذا
حصلت على عشر سنوات سجنًا. من أجل حرية الجزائر،
من أجل بلد غريب عنها تخلت عن حريتها الشخصية،
وخاطرت بها. هذا يكفي لكسب ليس قلب هذا الأب وحده،
بل قلوب بقية العائلة، والبلدة كلها في الحقيقة،
إذ إن عليهم أن يشرحوا للناس أن
لديهم فجأة فرنسية، تكاد تكون زوجة الابن.

في هذه الدار حيث تسكن النساء معًا
والرجال في مكان آخر تمامًا، المبنية حول
فناء شاسع، تحصل أنيت لأول مرة

مكتبة
t.me/soramnqraa

على فكرة شاحبة، أو بالأحرى
فكرة حافلة بالألوان، عن كيفية سكن
العائلات العربية: مَن يشغل أي مكان
في الدار، وما الحدود التي يتحرك
المرء بداخلها. تدخل عالمًا غريبًا،
ولا تجرؤ على إصدار حكم.
أو ربما تفعل؟ «حكم»، كلَّا، بالتأكيد
لن تطلق عليه هذا الاسم، لكنها لا تستطيع خلاف ذلك
ويتحتم عليها، شاءت أم أبت، أن تفكر في شيء ما
عندما ترى الوجه الحزين لعائشة الرائعة، التي لم
تنجب، ولذا ستحصل عما قريب
على منافِسة شابة في العائلة. هي نفسها
لعبت طوال أسابيع إقامتها، عبر كونها فرنسية
وطبيبة ولجهودها من أجل جبهة التحرير الوطني،
دورًا وسطيًّا بين الرجل والمرأة، وكأنها خنثى. تعاملها
النساء مثل امرأة غريبة الأطوار قليلًا،
ويعاملها الرجال في الوقت نفسه مثل
رجل غريب الأطوار
بعض الشيء. الوحيدة المسموح لها بتناول
الطعام معهم إذا أرادت؛ الوحيدة التي يستقبلها
الأب في مكانه تحت شجرة التين، حيث ترعى
بالقرب الخراف القليلة التي تملكها العائلة.

هل فكرت مرة كيف ستسير
الأمور؟ فالسوس ينخر ليس فقط في البلد الجديد،
بل على الأرجح أيضًا في الحب الجديد،
الذي يعاني منذ البداية عطبًا ما،
سيغدو عمارة شخصًا آخر في بلده الجديد الحر،
وفوق ذلك، بالتأكيد، هناك الهوى
الذي سيهوي بهما لا محالة، آجلًا أو عاجلًا.
البرواقية! ربما ينتهي كل شيء نهاية سعيدة مع ذلك.

ستصل قريبًا إلى الجزائر العاصمة للمرة الثانية
في حياتها. المرة الأولى كانت إجازة قصيرة،
الآن كي تعيش هنا.
هنا؟ ما زال كل شيء غريبًا غربة فظيعة. كل
ما فعلته وما عوقبت عليه بعشر سنوات
سجنًا، كان من أجل هذا البلد،
من أجل أناس لا تعرف بعد
خصالهم. بكلمات أخرى: لم يكن هذا البلد
بذاته وعاداته ولغاته وأديانه ومناطقه
هو الذي يعنيها، بل المبدأ، أو أيضًا
المبادئ. كامو في رأيها كاتب جيد
ورجل طيب حقًّا، لكنها على خلافه
تُعلي المبدأ على الحالة الفردية،

لا سيما أنها لا تعرف حالات فردية تقريبًا.
وصلت لتوها إلى هناك.

بينما كان العاشقان في البليدة وفي
البرواقية، حُسم الصراع حول السلطة
من دون مشاركتهما: الحكومة المؤقتة
التي تفاوضت حتى ذلك الحين مع الفرنسيين
حول كل شيء، كانت مؤقتة جدًّا، وانتهت على نحو
أسرع مما كانت تأمل. وسرعان ما فرض
آخرون رأيهم، وتحديدًا جيش الحدود،
وخلافًا لـ«البارتيزان» الذين مُنوا بخسائر كبيرة في
المنظمات السرية، فإن الجيش قد أصبح
قويًّا وذا نفوذ، وقائده هو العقيد
بومدين. والأخير يعلم أنه في فترة الانتقال
الحالية لا يستطيع الانفراد بالحكم، ولهذا يحتاج
إلى شخص يستطيع التلاعب به: يختار
الاشتراكي بن بلة، الذي تعرفه أنيت من أيام تونس.
ربما يستطيع المرء أن يحكي الأمر من الجانب الآخر، أي
أن بن بلة استند إلى زعيم الجيش، لكن
الأكيد هو: منذ البدايات، الجيش يأخذ مكانه في القارب،
حتى إن لم يستطع في البداية الإمساك بالدفة.

ومعهم ستجلس قريبًا في القارب ـ كمسافر
غير مشروع، أو شبه غير مشروع ـ أنيت، التي
وصلت في تلك الأثناء إلى أعتاب الأربعين، وتحلم
منذ أمد بعيد جدًّا ببلد لا تعني فيه الشيوعية
حكم «الجولاج»، بل بلد تسود فيه أخوة حقيقية،
حيث يتقاسم الناس ثرواتهم
ويديرونها معًا. لم يعد ذلك
ممكنًا في فرنسا، لكن لِمَ لا هنا،
في هذا البلد حديث الولادة الذي لا يكاد
يعرف صناعة أو جماعات ضغط؟ أليس كل شيء هنا
محتملًا ويمكن تصور حدوثه؟ ليس محتملًا ويمكن تصوره
فحسب، بل إن شيئًا يتحقق على كل حال
لم يكن موجودًا قبل عدة أشهر، وهو
أنها تحصل على وظيفة في وزارة
(وبالتحديد: وزارة الصحة) وهناك
تتعامل مع أناس «لم توجه إليهم بعد
التحية» (على حد قول أنيت). عن بعدٍ، من المسافة
التي تفصلها اليوم، تنظر إلى نفسها ببعض الاستغراب
والخجل أيضًا، لكنها آنذاك لم ترَ سوى كل ما هو
ممكن، وعلى نحو خاص كل ما هو ضروري في هذا البلد
الذي عانى في السابق أيضًا نقصًا في الأطباء، والآن
يعاني بشدة، وإضافة إلى ذلك ينتشر فيه السل والتيفود

والكوليرا ومجاعة كبيرة، وأشياء أخرى. الحفاظ على الحياة،
تخفيف المعاناة، ليس في هذه الحالة أو تلك فحسب، كما
يفعل كل طبيب أو كما ينبغي أن يفعل، بل في البلد كله
بمساعدة إجراءات عامة مثل التطعيم
وتدريب الأطباء والممرضات ـ
أمن الممكن أن يكون في ذلك عيب؟ أهي سياسة
أم حب الناس؟ أهو طموح أم
شيء مثل التفاني؟ ليس بمقدور المرء تحديد
الأمر بدقة، إلى ذلك: أليس الأمر سواء؟ أليس
المهم هو النتيجة؟

من الآن فصاعدًا لم تعد هناك ليالٍ تقريبًا،
إذا كنا نفهم من الكلمة الراحة مثلًا،
أو الاسترخاء أو النوم. ما عليها عمله، هو من
الضخامة والكثرة حتى إنه لا يمكن إنجازه حقًّا
في خلال أيام من ٢٤ أو حتى ٤٨ ساعة، ولا في شهور
أو سنوات. بسهولة يفكر المرء في سيزيف،
لكن سيزيف يرى الجبل الذي
عليه أن يتسلقه بصخرته، أما هذا الجبل
فشاهق الارتفاع حتى إن أنيت لا ترى له
ذروة: من أين تبدأ؟ يجب أولًا
الحصول على أطباء جدد، فقد رحل معظم القدامى

إلى فرنسا. ودور الأرشيف
والمستشفيات دُمرت جزئيًّا، ما يعني
في لغة المتعصبين بين الـ*Pieds Noirs*، الذين
كانوا يريدون حتى آخر يوم الاحتفاظ بالمستعمرة
بكل الوسائل الدموية: «سنرحل، طيب،
هذا ما تريدونه، ولكن قبل ذلك سيُدمَّر
كل شيء، وبعد ذلك بإمكانكم
أن تنفقوا جميعًا».

في الوزارة الجديدة تحصل أنيت
على قسم التدريب والبحث العلمي؛
يصبح وزيرًا رجلٌ، محمد الصغير نَقاش، تعرفه
من أيام تونس، حيث كان مسؤولًا
عن رعاية الجرحى والمرضى من الجيش الجزائري
الرابض على الحدود. وكما حدث من قبل مع بن بلة
تشعر أنيت، أو تُصدِرُ تشخيصها،
بأن هذا الرجل ـ طبيب يقولون عنه
إنه يعالج المرضى المعوزين مجانًا ـ
ليس بالإنسان السيئ، إنها ترى أنه
لا يدخر جهدًا حتى تتحسن
أحوال البشر عمومًا. لا يهمه لقب
ولا مال، بل يهمه حقًّا،

مثلها أيضًا، شيء مثل عالم أفضل،
وأفضل يعني، على سبيل المثال، ألا يموت
الأطفال، أو على الأقل أن يموت منهم عددٌ أقل.
هذا هو انطباعها عن الرجل، ومن المرجح
للغاية، كلَّا، من المؤكد، أنها لا تعرف
ما نعرفه الآن عن الرجل، أي أن
المخابرات الحربية الألمانية قد جندته
خلال الحرب العالمية الأخيرة، وفي الخمسينيات
بقي على اتصال بالمدعو
«ريشارد كريستمان» الذي لم يعد يعمل في
المخابرات الحربية بل في جهاز الاستخبارات الاتحادية.
على ما يبدو فإن ألمانيا في حقبة
أديناور، في سنوات استعراض الصداقة
الألمانية-الفرنسية، كانت تدعم سرًّا إرهابيين
أو أشخاصًا يعتبرهم البعض مناضلين من أجل الحرية
والبعض الآخر إرهابيين، أي
جبهة التحرير الوطني.

هكذا تسير الأمور إذا دقق المرء النظر ـ وحتى
يستطيع ذلك، فمن الأفضل أن ينظر من بعيد جدًّا،
على كل حال يجب ألا يكون، مثل أنيت، مدفونًا
في رمال الحاضر. إننا نرى: كل شخص تقريبًا لديه

في تلك الأزمنة شيء يخفيه، على كل حال كل شخص
تقريبًا لديه سلطة أو يريد أن يحوز سلطة، حتى لو أراد
بهذه السلطة الخير كله، لنقل: مدارس للجميع،
حقوق متساوية للمواطنين، عمل، رعاية طبية.
وهذه هي الحال مع نَقاش، الرجل الهادئ المتواضع،
ومن المرجح أن تكون هذه هي الحال أيضًا مع الرجل
الجذاب بن بلة، الذي يأمر بحبس أعدائه ومنافسيه ـ
ومن المرجح أن يفعل ذلك أي شخص
لو كان مكانه ـ وجعل نفسه
في فترة وجيزة ليس فقط الرئيس، بل أيضًا
زعيم الحزب الأوحد، في النهاية وزيرًا للشؤون الداخلية،
أو من الأفضل أن نقول: للشؤون كافة.
كل هذا صحيح، يمكنها رؤية ذلك، وتراه
للأسف أيضًا، لا يمكن أن يفوتها،
لكنها تتمنى كل التمني أن تنجح إعادة
تشكيل المجتمع هذه، وهذه البداية الجديدة،
ترى الشقاق بين الجائعين إلى السلطة
وبين المجموعات الأخرى؛ كيف يمكن
أن تسير الأمور من دون رجل قوي إلى حدٍّ ما؟ مقارنةً
مع الآخرين الذين قد يحلون محله،
فإن «ب. ب.» يبدو شخصًا وديعًا ولطيفًا جدًّا،
وما يريده، وما بدأ في تحويله

إلى حقيقة، هي الاشتراكية كما في يوغوسلافيا
وأفضل، وليس كما في الاتحاد السوفيتي، اشتراكية إذن
حلمت بها طويلًا، وأثبتت ربما في النهاية
أنها تصلح للحلم أكثر منها للتنفيذ.

الديمقراطية؟ هل يستطيع أحد أن يشرح كيف ينبغي
أن تطبَّق بين عشية وضحاها في
بلد سواده الأعظم لا يستطيع القراءة
والكتابة، لأن الدولة لم تجد ضرورة لمحو الأمية
في الأعوام المائة والثلاثين الأخيرة؟ كيف
يكوِّن المرء ما يُطلق عليه «الرأي الحر» حتى يضع
علامة صح على إحدى الخانات،
إذا لم يحدث ذلك عبر القراءة؟ حسنٌ: السؤال
عما إذا كانوا يريدون الاستقلال، فهمه
الجزائريون فهمًا كاملًا من دون قراءة
أو كتابة. ولكن الأمر نادرًا ما يكون بهذه السهولة،
ولا يُجاب عنه بنعم أو لا في الانتخابات. أوجوست
بلانكي، الاشتراكي والأب الروحي اليوم لعتاة اليساريين،
وصاحب مقولة: «لا رب، ولا سيد»، التي جعلتها
أنيت شعارًا لها، رأى قبل ذلك بثمانين عامًا
أن الثورات تحتاج بادئ ذي بدء إلى حكم استبدادي،
عامًا أو عشرة أعوام، وذلك لأن الذين خضعوا طويلًا

يجب عليهم في البداية أن يتعلموا التفكير وأن يكونوا أحرارًا.
ما لا يشرحه بلانكي هو كيفية التخلص من المستبدين
مرة أخرى بعد عام أو عشرة أعوام. رأى اللورد
ماكولاي ـ قبل بلانكي ـ الأمر على نحو
مغاير قليلًا. ألا يحصل شعب على حريته
إلا بعد أن يكون قد تعلم استخدامها، يُذكِّره بخرافة
قديمة أراد فيها أحد الحمقى ألا ينزل إلى الماء
قبل أن يستطيع السباحة.

حزب الوحدة؟ يد واحدة تقبض على سلطة اتخاذ القرار؟
أحيانًا تشعر أنيت بعدم الراحة عندما تفكر في ذلك،
لكن لديها أشياء أخرى عليها إنجازها، غير الاهتمام
بحكايات السلطة هذه. هنا شعب يبلغ تعداده
نحو تسعة ملايين، جائع، مريض، وهنا
مائة طبيب، ثلاثمائة على أقصى تقدير. إذا
أحكم شخص قبضته في الوقت الحالي
على ثلاث وزارات، ما أهمية ذلك؟
تعمل. طوال ثلاثة أعوام لا تفعل شيئًا آخر.

ألا يشبه الأمر أننا، لنقل ألمانيًا مثلًا أو
إيطالية، نريد بناء نظام التعليم أو الصحة وإدارته
في دولة مثل بوليفيا؟ ألن نشعر بالعجز التام

في هذا البلد الغريب الذي تتوغل أرضه
في الصحراء، والذي تبلغ مساحته أربعة أضعاف فرنسا
ويتحدث تقريبًا كل الذين يحتاجون إلى مساعدة طبية
لغة مفعمة بالأسرار، تتولد حروفها
في الحلق؟

لا ونعم. لا لأن كثيرين من أعضاء الحكومة
والوزراء يشعرون كذلك
بالعجز، لأنهم إما كانوا جنودًا
أو سجناء، أو طلبة في فرنسا
(أي في فرنسا الحقيقية، وليس في
إحدى المستعمرات) ولذلك فإنهم أيضًا لا يعرفون
أجزاء كبيرة من بلادهم على نحو أفضل. مَن منهم
اهتم يومًا بمنطقة القبائل أو بحياة البدو
في الصحراء؟ عدد ليس بالقليل منهم يتحدثون
الفرنسية أفضل بكثير من العربية. ومع ذلك
فالأمر مختلف. بإمكانهم أن يظهروا لأنيت
بعيدين عن الدين وعلمانيين على الطريقة الفرنسية،
ناهيك عن كونهم اشتراكيين، لكنهم رضعوا شيئًا
يجعل هذا البلد وسكانه أكثر ألفة
بالنسبة إليهم، إنها العادات
والتقاليد والدين. كم سيكون الأخير

مهمًّا، وكم هو مهم الآن (المقصود هذا النوع من الدين الذي يخلط التصوف على الفور بالسياسة، مستهدفًا اتحاد الرأي وتكميم الأفواه)، إذن ما معنى هذه الأشياء العقائدية، هذا أمر لا تلاحظه ربما، لأنها لا تريد أن تلاحظه، ولن تكون هذه هي المرة الأولى التي لا يرى فيها أحد شيئًا لا يريد رؤيته، لأنه لا يتناسب مع تصوراته، بالتأكيد مر كل منا بموقف كهذا.

غريبةٌ هي بالطبع، وليست بالضرورة ذات كفاءة مميزة في كل المواضيع، لكن بعد ثمانية أعوام من الحرب والدمار واختفاء الأطباء المحليين والمعلمين والصحفيين، إلى آخره، فإن البلد بحاجة إلى كل شخص. الأكاديميون كانوا قلة أيضًا قبل ذلك، وهؤلاء اختفوا بأعداد كبيرة نسبيًّا تحت الأرض أو اتجهوا إلى المنظمات السرية ـ ومعظمهم لم يُقتلوا على يد فرنسيين، أو، إن حدث، فعن طريق غير مباشر، بعد أن أجرت المخابرات الفرنسية مناورات ماهرة بزرع الشك تجاههم لدى جبهة التحرير الوطني، التي كانت من الغباء واللطف أنها تخلصت منهم شيئًا فشيئًا في عدة عمليات تطهيرية جنونية. هكذا هو الوضع في عام

١٩٦٢: هم بحاجة إلى كل شخص
تعلم شيئًا ولديه نية طيبة.

لحظة: ألم تكن الفكرة
هي الاستقلال؟ أليس من المفروض
أن يحكم الجزائريون البلد بأنفسهم؟ بلى. لكن شخصًا
قدم خدماته إلى جبهة التحرير الوطني، وسُجن لقاء ذلك
أو كان عليه أن يُسجن طيلة عقد من الزمان،
هو في هذه الأيام الأولى أكثر جزائريةً
من شخص، لنقل، من سيدي بلعباس، لم يفعل شيئًا قَطُّ
أو ربما كان في صف الفرنسيين.
وللتدليل على صحة ذلك تحصل أنيت
في نوفمبر ١٩٦٢ ـ ما مثل مفاجأة عظيمة لها ـ
من بن بلة، الرئيس الجديد نفسه، على
الجنسية الجزائرية التي لم يكن لها وجود
قبل شهور. ماذا تفعل؟ إنها تؤيد
الاشتراكية والدولية بدلًا
من الجنسيات. وبجنسية واحدة
لديها أكثر مما يكفي. فضلًا عن ذلك فهي تشعر بأنها
بالأحرى غير جزائرية، وخاصة، وبقدر أعظم،
غير مسلمة. لكن هذه هدية،
وماذا يفعل المرء بالهدايا؟ يقبلها

شاكرًا. في الأول من نوفمبر، في اليوم الذي
يتذكر فيه المسيحيون قديسيهم، وفي العصر
أو في الصباح التالي يتذكرون موتاهم، تصبح
جزائرية (وتظل فرنسية أيضًا). إنه في الوقت ذاته
أول يوم عطلة يختاره الجزائريون بأنفسهم،
«الرابع عشر من يوليو» الخاص بهم،
فهو التاريخ الذي بدأت فيه في عام ١٩٥٤
الثورة أو الانتفاضة على فرنسا.

استطراد قصير: في الباستيل، الذي كان
سجنًا كئيبًا كما يعلم الجميع، كان معظم السجناء
من النبلاء، وفي الغالب برغبة من عائلاتهم
التي فضلت لسبب من الأسباب
أن ترى أفول نجمهم. في ١٧٨٩ لم يعد في الباستيل
سوى سبعة سجناء. في ١٩٥٤، خلال اغتيالات نوفمبر،
قُتل أربعة مدنيين فرنسيين، معلمان شابان
وسائق تاكسي وحرَّاج. إلى ذلك، ثلاثة جنود وضابط.
وجزائريان. وهذا هو الآن يوم العيد الوطني؟
من الممكن القول إن الأعياد الوطنية
لا تحتفل بما حدث في هذا التاريخ،
بل بشيء يرتبط منذئذ بهذا التاريخ،
مجاز لا علاقة له مطلقًا، أو

تقريبًا، بهذه الأفعال، مجاز يرمز إلى التحرير،
بصرف النظر عمَّن كان المقتولون أو المحرَّرون
أو كم كان عددهم.

وفي حين كانت أنيت وكثيرون غيرها ـ جزائريون
وأشخاص من جميع أنحاء العالم، لا سيما مما يُسمى
العالم الثالث، ومهاجرون حديثًا ـ يعملون
ويكدون، تمر فوق رؤوسهم
الغيوم التي نرى في أشكالها
اليوم وجوهًا، وخلف الوجوه
الجيش، ما يُسمى «جيش التحرير الوطني على الجبهة الحدودية»،
ولا أحد يعلم على وجه الدقة كنه هذا الجيش
وما سيظل يمثله: المنتصر الوحيد. هناك من ناحية:
الوجه، الطويل والحاد مثل نصل سكين،
للخائن فيما بعد، بومدين، الذي تزعم
الجنود الحدوديين، وكان من المنطقي أن يصبح
وزيرًا للدفاع في عهد بن بلة، ونائبًا للرئيس.
ثم الوجه، المرتفع والعريض، للرجل
القصير، في الخامسة والعشرين، الذي كان
يحكم البلاد بعد خمسة وعشرين عامًا
من فوق كرسيه المتحرك، ومن أَسرَّة المشافي الفاخرة
في سويسرا وباريس. هو أيضًا

من الجيش الحدودي، ويبدو في البداية وديعًا
على نحو غريب، مثل طاغية ما زال في الشرنقة،
والمقصود وزير الدولة للشباب
والرياضة والسياحة. لم يسبب له القطاع الأخير
عملًا كثيرًا. مَن يريد الآن
قضاء إجازة هنا؟

الحرب انتهت، الحرب مستمرة. كثيرون
يُقتلون. ومع ذلك هناك أناس
يعاندون كل المخاطر، متعاطفون، يأخذون زمام المبادرة،
وهناك أيضًا: أم أنيت، مارت الصغيرة. مارت
الصغيرة شارفت في تلك الأثناء على الستين، وليس
لديها سوى ابنة واحدة، التي رحلت من لو جيلدو، ذلك النجع
عند مصب نهر أرجينون، كي تحمي
العالم من كل الشرور، وكي تشفيه.
على الضفة الأخرى من البحر المتوسط هي الآن
جزء من حكومة، ومارت الصغيرة تريد حتمًا
أن تعرف الوضع هناك، وما إذا كانت ابنتها
تحصل أيضًا على ما يكفيها من الطعام والنوم.
وهكذا تسافر إليها مارت الصغيرة
ببساطة. في زمن يفر فيه الأوروبيون
جماعات، ها هي، سائقة لا تهاب شيئًا، تقود السيارة

راحلة في الاتجاه المعاكس. أنيت
مشغولة جدًّا، وتأخذها أحيانًا معها
في رحلاتها حتى ترى أيضًا شيئًا
من البلد الغريب، وذات يوم تنطلقان بالسيارة،
من دون هدف، السائق يغفو في الخلف، ووراء عجلة القيادة
تجلس أنيت، وبجانبها تحكي لها مارت الصغيرة
عن الأطفال؛ وبسرعة هائلة تأتي سيارة
من الخلف، سائقها يضغط على آلة التنبيه، وبوقاحة
يقطع عليها الطريق ويرغمها على الوقوف،
ويريد أن يسبَّها، ويسبُّها، إلى أن يهبط من السيارة
الوقحة شخص، وتعرف أنه بن بلة.
ترحيب حار من الأطراف كافة؛ مارت الصغيرة تقابل
الرئيس.

بالمصادفة، هناك على جانب من الشارع
مقهى، وعلى الجانب الآخر الجيش، أي
ثكنة فرنسية، لأن عقود إيفيان
تنص على الانسحاب التدريجي في غضون
الأعوام المقبلة. كل الذين نزلوا
من السيارتين، يذهبون معًا ليحتسوا شيئًا
في المقهى المكتظ بالجنود
الفرنسيين. الرئيس! الكل يتحلق حول بن بلة

ويصافحونه، ويشعرون بالفخر،
وعلى ما يبدو نسَوا أن هذا الرجل،
قبل فترة قصيرة، كان مسجونًا في فرنسا بوصفه إرهابيًّا
يمثل خطرًا على الدولة. بهذه السرعة تتغير الأمور!
هذا ما يفعله المنصب، اللقب: «الرئيس».

كل شيء بسيط، ومعقد تعقيدًا جنونيًّا. بسيط
نظرًا إلى غياب بروتوكول مفصل ينظم الأمور الحكومية،
المرء يهتم بأكثر الموضوعات إلحاحًا،
حتى لو لم يكن من الممكن إنجازها، ويهتم بها
في أي مكان، مثلاً في الليل في شقة الوزير
أو الرئيس، ما يجعل أنيت تفكر
في أنها ربما في المكان المناسب
ولدى الناس المناسبين، إنها أحوال
ربما تبدو في عيون البعض بالأحرى ثانوية،
أي التعامل بلطف وبلا شكليات، لا ترف،
ولا سلوكيات مبالغ فيها. نقّاش، على سبيل المثال،
يسكن في شقة بسيطة من ثلاث غرف.

قد يكون ذلك خطأ، أو ميزة، لكن
أنيت مرهفة الحس تجاه ـ
ماذا نطلق على ذلك؟ أفضل شيء:

«جوهر الإنسان»، الانطباع الذي يتركه
لديها. أهو صادق؟ أيريد أن يترك
انطباعًا معينًا، أم أنه كذلك؟ تأميم الإقطاعيات
الكبيرة، الإدارة الذاتية، الاشتراكية؛
نعم، بالطبع، إنها تؤيد ذلك وتعتبره أفضل
الحلول. لكن لو لم يكن بن بلة ونَقَاش وعدد
من الآخرين الذين تثق بهم، لما كانت جزءًا
من هذه الحكومة. قد تكون مخطئة. أهي مخطئة؟
أليس الأمر بالأحرى هو أنها لم تلاحظ
بعض الأشياء إلا متأخرًا؟ بعد فوات الأوان؟

تمر بما يُسمى «ديجافو»،
أو تستشرف حدوث ذلك، ولذا
تغرق في العمل. ماذا كانت المقاومة إذن
سوى صراع للتحرر من المحتلين؟
بالنسبة إليها فهذه هي المقاومة نفسها، الفارق الوحيد هو
أنها هذه المرة في جانب المحتلين، أو كانت كذلك.
التشابه الثاني هو أنها تفهم الصراع من أجل التحرر
كمرادف للتحولات. إزاحة المحتلين، وتأسيس
مجتمع جديد. وإلا لماذا يناضل المرء
لو حل محل عشرة آلاف حاكم
عشرة آلاف آخرون؟ ١٩٤٥ خُدعت بصفتها شيوعية ـ

خُدع جميع الشيوعيين وسُلب منهم هذا النصر ـ
لأن ما جاء بعد ذلك لم يكن البلد
الذي خاطرت بحياتها من أجله.
والآن؟ ترى من حولها
البرجوازية، العشائر القديمة تقتنص
امتيازات جديدة. نَقاش وبن بلة
مختلفان، هكذا يبدو لها، تتشبث بكليهما
وتغض البصر بقلق عن كل ما عداهما.

لديها العمل، ولديها الحب. هذا ليس
سيئًا! ما أكثر الذين ليس لديهم شيء من كليهما.
ألديها الحب، أم أن الحب يسيطر عليها؟ تدريجيًّا
يتغير عمارة، ينظر إليها
بغرابة في العينين، إذا نظر إليها
أساسًا، فهي كثيرة الأسفار في ربوع البلاد، حتى
تكوِّن صورة عن الوضع الصحي؛ تسافر حتى إلى
الواحات البعيدة حيث لا يتكلم الفرنسية
إلا أقل القليل، لذا فهي دائمًا
بحاجة إلى مترجم. تتعلم إشارات
ساكني الصحراء. تتعلم العربية أيضًا، لكنها
تتخلى عن محاولاتها بعد جهد كبير، فموهبتها
اللغوية أقل بما لا يقارن مع موهبتها

الثورية. عمارة يسافر من جهته
كثيرًا أيضًا. مع أصدقاء. عمل في
إحدى الوزارات، ما دامت تلك الوزارة
في مكان ما بالخارج، ولم تكن الدولة
قد وُجدت بعد. الآن، بعد مولدها، لا يريد
عمارة أن يخدمها، لا يريد وظيفة،
ولا يريد على وجه الخصوص رئيسًا لا يستطيع تحمله،
وينبغي له مع ذلك تحمل معاناته معه. الوزارة
التي حصل فيها على وظيفة، عندما كانت الحكومة في تونس،
كانت وزارة أمن الدولة والمخابرات،
وبعد الاستقلال لم يعد يقودها
بوصوف، بل بومدين.
«صبيان بوصوف»، الذين ينتمي إليهم والذين لم يعودوا
منذ فترة طويلة ودعاء مثلما يوحي الاسم، ليسوا
مُرحبًا بهم في الدولة الجديدة؛ لقد دربهم رئيس أزاحه بن بلة
لصالح شخص آخر وبمساعدة هذا الشخص. البعض يندس بعد فترة
في قوات البوليس السري
وفي خدمة بومدين. عمارة لا.
لا يثق به. فضلاً عن ذلك ربما كان
يأمل من الاستقلال أكثر من اللازم، أي حل
القضايا المعقدة، أو في الحقيقة حل كل القضايا،
وبعد مشاعر السعادة التي انتابته في البداية، وبعد الانتشاء

بالنصر المرتقب منذ أمد بعيد، جاء الإحباط سريعًا جدًّا
وتمدد في صدره. الأمر ببساطة هكذا،
وهو ما لا يحدث للمرة الأولى في التاريخ للأسف،
يسيطر الحب الحب الحب في الفترة الأولى
وبعد ذلك يظهر إنسان مختلف تمامًا،
يطلقون على ذلك «خلفية ثقافية»، مع أنها
لا تكون أبدًا خلف الإنسان، بل في أعمق أعماقه
وفي داخله. إضافة إلى ذلك فإن أنيت حصلت على منصب عالٍ
وهو لا، وحتى إذا لم يكن يريد منصبًا، فإن هذا الوضع
ليس مثاليًّا تمامًا لـ«الأنا» والذات.
وفوق ذلك فهي متزوجة مرتين. ومن المرجح
أن لديها أكثر من عاشقَين. تحيا حتى تلك اللحظة
مثل النساء بعد جيل أو جيلين، وهكذا ما زالت
تعيش أيضًا. غيرة. نزاعات فظيعة!
تحطيم كل شيء. وفي يوم ما تأتي النهاية، يهجر
عمارة أنيت.

تسقط في هوة عميقة، إذ شيء ما
في هذا الرجل لن تنساه سريعًا
ولا حتى بعد خمسين عامًا،
هي أشياء بين اللمسة واللمسة،
والنظرة والنظرة، أشياء من النادر

أن يكون لها مستقبل، تبرق
وفي حالات شديدة الصعوبة مثل هذه
تواصل وهجها طيلة الحياة.

كان لديها عمل، وكان لديها حب.
ما زال لديها عمل، بل يتزايد
يومًا بعد يوم، كلما نقصت الأشياء الأخرى في حياتها.
تناضل مع العاملين لديها ضد
انتشار التراخوما، هذا المرض
الذي يصيب العين ومن الممكن أن يؤدي إلى العمى،
وضد كل ما يمكن أن ينتشر في هذا البلد،
في حين أنها تعاني ـ ما يتحتم عليها بعد فترة
أن تدركه ـ نوعًا من العمى،
لا تعرف له شفاء ناجعًا، إلا
أن يهزها أحد هزة عنيفة، ويصب عليها ماء باردًا،
وهو ما يحدث لها في فجر
التاسع عشر من يونيو ١٩٦٥.

يتصل بها شخص في الخامسة فجرًا،
على ما يبدو يريد أن يعرف فحسب ما إذا كانت في البيت،
ولا يقول حتى «صباح الخير». ما كادت
تغفو ثانية حتى يتصل

شخص آخر أيضًا، صديق جيد،
لا يقول «صباح الخير» فحسب، بل يحكي
أيضًا عن دبابات في الشارع. منذ عدة أيام
يصوَّر في قلب مدينة الجزائر فيلم،
سبق ذكره هنا، ويُظهِرُ
ما يطلَق عليه «معركة الجزائر»، والموسيقى
لإنيو موريكوني وباخ. بسبب التصوير
تسير عدة دبابات في طرق المدينة،
ويوافق ذلك هوى الجيش جدًّا، ويستغل
الأمر لاقتحام العاصمة بدبابات حقيقية ـ
انتباه، أعمال تصوير! ـ من دون لفت الأنظار.
يثير ذلك ريبة عظيمة لدى الصديق
على الطرف الآخر من الخط، ولديها بصورة أكبر، ففي
تلك اللحظة تنقشع الغشاوة من عينيها، أو
يرتفع ستار ثقيل، وترى
كل ما لم تره، وما لم ترد أن تراه
طيلة الفترة الأخيرة، الكيان ذا الوجه الحاد كالسكين
للعقيد بومدين، النظرة الحولاء للوزير
عبد العزيز بوتفليقة. هذا ما يُطلق عليه «جماعة
وجدة»، أو جزء منها يرى أن بن بلة
قد أزاحه من السلطة، ولا ينوي
بأي حال من الأحوال أن يسمح بهذه الإزاحة، لا سيما

أن لديه دبابات، وبذا لديه بوضوح القدرة الأكبر
على الإزاحة.

تندس أنيت بسرعة في تنورة، وفي نحو
الخامسة وعشر دقائق تخرج من شقتها. إلى أين
عليها أن تذهب؟ بن بلة ونَقاش، هكذا سمعت،
اعتُقلا، وهي أبعد ما تكون عن
الشعور بالأمن. تستعرض بسرعة أصدقاءها.
والمعجبين بها أيضًا. أحدهم يوصلها بسيارته
إلى المنزل الفخم لأحد علماء الطفيليات،
وربما يكون ذلك أمرًا صائبًا، لكنها
تفضل الذهاب إلى آل «د.»، حيث
تستطيع من حديقتهم، وعبر كنيسة صغيرة تحت الأرض،
الوصول إلى حديقة سفارة إنجلترا،
لكل الأحوال. المصادفة جيدة أو سيئة:
آل «د.» سيرحلون بعد غد،
لقضاء إجازة، نعم، يبدو هذا غريبًا، لكن في حين
يقضون هم إجازة، ينفذ آخرون
انقلابًا. لا تفعل أنيت أي شيء
سوى الانتظار، والتفكير، تستعرض في رأسها
كل ما فعلته وما لم تفعله أيضًا خلال السنوات الأخيرة،
المرة تلو الأخرى، ثم مرة أخرى، وكأن الأفكار أحجار ثقيلة

تمر برأسها، وبصدرها أيضًا.

خمسة أسابيع وهي وحيدة تمامًا في
الحجرتين حيث لا يستطيع أحد أن يراها
من الخارج، وفي الليل، في الشرفة
المحيطة بالشقة، والتي تُظهر القبة السماوية
كأن المرء يشاهدها بالمنظار، وحيث الإجاباتُ تنتظر
مَن يعرف قراءتها فحسب.
بعض الأصدقاء المطلعين على مخبئها
يُحضِرون لها الطعام والصحف، وهكذا
تعرف بسرعة مَن مصيره الاعتقال
ومَن ينجو منه. لديها راديو أيضًا، تضعه
في الحمام الخالي من النوافذ. تُذاع في البداية
مارشات عسكرية طويلة، ثم في وقت ما أحدث الأخبار:
لقد تحررت الجزائر الآن من الطاغية الخطير
ومن المؤثرين على اتخاذ القرار والمستشارين
التروتسكيين، ومنهم كثيرون ما زالوا
في الخارج. أهكذا إذن؟ آه. صحيح أن السلطة
كانت متركزة في يد بن بلة، لكن من الغريب،
بل من العجيب بعض الشيء، أن الذي يشكو ذلك
ويزيل أسباب الشكوى في اللحظة نفسها
هو قائد الجيش. وهكذا يعين نفسه في المنصب

إلى الأبد، إلى أن يأتي الوحيد
الذي يملك سلطة أكبر منه في البلد،
الموت، في شكل مرض اسمه «فالدنستروم»[1] (أجنبي آخر،
غدَّار؛ لا يستطيع المرء أبدًا أن يحمي نفسه بشكل كافٍ منهم)،
وينتزع منه العرش بعد أربع عشرة سنة.

لا تريد أنيت أن تبقى كل هذه المدة. بعد أسابيع
من الحبس الانفرادي الاختياري تشعر بأنها قد سئمت نفسها،
وهذا البلد، بل حتى النجوم
أو الأوهام. ما هذا الذي
فعلته؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل الاستقلال؟ التحرر؟
من أجل أن تقف الدبابات الآن في كل ركن
من الأركان، ولذا لم يعد أحد يستطيع أن يفتح فمه،
هل من أجل حكم الجيش المرعب
فقدت مريم الصغيرة جدًّا، التي ولدت لتوها،
وفقدت جان-ري، وجيل؟
أهذا ممكن؟

ولأن ذلك غير ممكن، ولا يجوز أن يكون،

---

(١) مرض نادر، يطلق عليه بالعربية «مرض وجود الجلوبيولين الكبروي في الدم»، ويسبب إنتاج كميات كبيرة من خلايا الدم البيضاء المشوهة التي تفرز بروتينات ضارة بالجسم. (المترجم).

فلم ترَ ربما ما تراه الآن بوضوح لا يرحم،
ترى أنه منذ البداية كان هناك شيء خطأ
لدى مولد الدولة التي طال انتظارها،
فمنذ الساعة الأولى لم يكن الهدف توجهًا جديدًا
أو تصورات مختلفة للمجتمع الذي سينشأ،
بل كان المهم الجماعات والعشائر،
والمهم أكثر الأشخاص، وأن
رئيسها ـ الذي رأت أنه الأفضل ـ
كان ببساطة أكثر مهارة في فرض رأيه، لكن
ذلك وحده لم يكن كافيًا، كان عليه أن ينضم
إلى آخرين، أن يتحالف
مع الشيطان أو مع مَن هو أكثر شيطنة
منه شخصيًّا. كان هناك يومًا ـ قبل
الدولة ـ الحكومة المدنية المؤقتة،
خصوم، فرحات عباس، كريم بلقاسم،
بوضياف؛ أين ذهبوا؟ حُكم عليهم بالإعدام،
أو سُجنوا، أو أجبروا على الرحيل إلى المنافي.

كانت قد قالت لنفسها: وهل يُنتظر
شيءٌ آخر بعد كل هذا القمع، وبعد كل هذا الوقت،
صحيح أن فرنسا كانت هنا، لكن الديمقراطية شيء آخر،
والآن، كيف لهم أن ينجحوا بين عشية

وضحاها؟ تتوفر أعذار كافية لمَن
يبحث عنها، وإذا كان المرء نفسه
هو القامع ـ بالطبع ليس هو
شخصيًّا، فيما يتعلق بأنيت، ولكن
إذا كان المرء ينتمي إلى شعب القامعين ـ يميل
بالفطرة إلى البحث عن تبريرات للمقموعين القُدامى
وغض البصر عن كل الأخطاء والرذائل.

في المخبأ لا تميل إلى شيء غير الحقيقة
التي لم تكن مرئية حتى الآن بالنسبة إليها،
والتي تنظر في عينيها لأول مرة منذ
وقت طويل. والحقيقة هي أنها خسرت
كل شيء من أجل دولة ذات سيادة
تحولت في غضون فترة قصيرة ـ
ولمدة طويلة جدًّا، عقود، وهو شيء لا تعرفه،
لحسن حظها، في المكان الذي هربت إليه ـ
إلى نظام عسكري.

تأخر الوقت. تأخر وفات بالطبع. كل الذين
كان بإمكانهم أن يخطئوا، أخطأوا، لكن العواقب
لم تكن واحدة لدى كل منهم.
لم ينجُ كل شخص. تولد عن الخطأ

لدى البعض نعمة. ليس هذا
ما حدث لها. تحمل معها الخطأ ـ الذي
أضحى ألمًا ـ وتدحرجه فوق هضبة سنواتها،
والهضبة تغدو جبلًا، لأنها في كل مرة،
عندما تظن أنها وصلت إلى الذروة،
تلمح قمة جديدة متوارية، عليها
أن تتسلقها بحملها الثقيل. وهكذا تسير الأمور
مائة عام.

بمعونة فستان أنيق جديد يحضره لها
ملحق سفارة غانا، وأيضًا بمعونة
بضعة أصدقاء أوفياء يحمونها،
وبمساعدة محاميها، جورج كيجمان، الذي
يحضر ليخلصها من هذا الشرَك، وبمساعدة
الحظ خصوصًا، يُسمح لها في نهاية صيف طويل
بالاختفاء من البلد الذي رحلت إليه يومًا
كي تؤسسه وتناضل في سبيله، وقَبِلت
من أجله السجن والمنفى.
انتهى ذلك. وداعًا، الجزائر! وداعًا، أيها
الأمل الجميل، الأمل بتقرير المصير،
والاقتسام العظيم مع الآخرين!

من يريد التقدم، لا يرى حاليًّا إلا الخطوة العسكرية،
بدأ ذلك مع بن بلة. لكن الرئيس الأول للبلاد سيقبع
في نهاية المطاف في السجن في الجزائر
فترة أطول من التي قضاها سجينًا تحت حكم المستعمِرين.
فرَّ أعضاء حكومته كلهم تقريبًا ليلتحقوا
بالرجل القوي الجديد، ما يُظهر ليس فقط
مدى وفائهم وولائهم، بل أيضًا
أن هذا الانقلاب لا يعني سوى
تغيير في الأشخاص على القمة، وليس، مثلًا،
سياسة جديدة تمامًا.

والآن، أنيت، إلى أين؟ بلدها،
بلد الأم والأب، أُغلقت أبوابه
في وجهها سنواتٍ، ما دام لم يصدر
عفو عنها، وجنسيتها الثانية
التي حصلت عليها قسرًا قبل فترة قصيرة
لم تعد تفيدها الآن أدنى إفادة.
لماذا لا تسافر إلى روما؟ لقد جاءت
عبر هذا الطريق أيضًا. ومن هناك تسافر إلى
فيينا (وهناك تحضر بسرعة مؤتمرًا
لأطباء الأعصاب) حتى تصل إلى سويسرا،
آنذاك المرحلة الأولى على طريق الهرب، والآن

الأخيرة، لأنها ستبقى هنا، مع أنها ستحصل على
عروض أخرى، كوبا على سبيل المثال،
لكن شكرًا، لا، مسموح للمرء بأن يحتفظ
بـ«ركن صغير من الوهم» (على حد قول أنيت).
من غير المتوقع، على الأرجح، أن يحدث قريبًا
انقلاب في الفيدرالية السويسرية،
لكن ليس هذا هو الأمر الحاسم
في اختيار مكان إقامتها.

من بين كل الأماكن المتاحة، لأنها تقع
في الخارج، أي خارج فرنسا حيث ما زال
اسمها في سجل المطارَدين، فإن
جنيف لا تزال المدينة الأقرب إلى
مارسيليا، وبذا الأقرب إلى أطفالها،
بصرف النظر ربما عن تورينو وسان ريمو،
لكنها لا تجد هناك وظيفة. إذن جنيف.
المستشفى الجامعي. الآن سيعم الهدوء. لكن
لا! من قال «هدوء»؟ ستأتي بضع
محاولات لإصلاح العالم، لكنها
أقل لفتًا للأنظار (وتبقى مع ذلك
أكثر مما قد ينجزه الواحد منا

طيلة حياته). ولن نسرد هنا أيضًا
كل شيء، سنقفز ببساطة،
أربعين، خمسين سنة، وهو ما لا يحدث
إلا ذهنيًّا وعلى الورق فحسب، صحيح
أن عقود السنين الحقيقية لا يمكن
الإمساك بها أيضًا، ونادرًا ما تُجمَع
معًا، لكن حذفها عمومًا
من المستحيلات. لكن قبل القفزة الكبيرة
إلى المستقبل، أو اجتياز الخطوات الكبرى، هنا كلمة إضافية
عن الأطفال: مع أن سنوات السجن الطويلة
تنتظرها في فرنسا إذا أمسكوا بها،
تتنقل أنيت في سنوات جنيف الأولى - إلى أن
يفتح لها العفو الحدود - بأوراق مزورة،
وباسم مستعار، في جنوب فرنسا،
هنا وهناك، عند أصدقاء، أو الوالدين البديلين، أو
في المدارس الداخلية، حتى تضم طفلًا
من أطفالها إلى صدرها، وفي كل مرة تشعر
بالألم نفسه الذي لا تجد له اسمًا، والنابع
من أنها قد أصبحت غريبة عن أطفالها.

يكبر الأطفال، يحيون حياتهم، ويلقى

اثنان منهم حتفيهما. يكبر شيئًا فشيئًا
الحجر الذي يجب على أنيت أن تدحرجه على الجبل،
والقمة تعلو أكثر فأكثر. تحت هذا العبء
يبدأ ظهرها في الانحناء قليلًا
رويدًا رويدًا. شاب شعرها، ويتأرجح لون عينيها
بين الأخضر الزاهي وأزرق السماء الشتوية. ولأن
عملها في الطب والبحث العلمي ينتهي في يوم ما،
ولأنها تريد العودة إلى فرنسا، وتستطيع ذلك،
حيث أصدروا أخيرًا عفوًا عنها، فإنها لم تعد
تعيش منذ نحو ثلاثين عامًا
في جنيف، بل، كما ذكرنا في البداية،
في بيت نحيل في ديولوفي الواقعة في
إقليم دروم، بالقرب من جبال فركور التي كانت
إحدى قلاع المقاومة، في ديولوفي إذن،
البلدة الصغيرة، حيث لم يُبلغ أحد سكانها
أو يشِ بواحد من الكثيرين الذين لجأوا إليها
خلال الحرب والاحتلال، الذي كان بالطبع
إيطاليًّا، ولم يكن معظم الوقت قاسيًا.
كان يعيش هناك عدد كبير من البروتستانت. ذات يوم
في ١٩٤٤ مرَّت أنيت بالدراجة على المكان،
وأعجبها كثيرًا. كونها استقرت فيما بعد
هنا ليس له علاقة مطلقًا بالواشين

الذين لم يكن لهم وجود في ديولوفي،
لكن الأمر ليس محض مصادفة تمامًا.
مَن يدري؟

«الرب»، أو أيًّا كان اسمه، أراد
أن تعيش هنا، وحدها، قصيرة ومحنية القامة.
منحنية قليلًا فحسب، وظاهريًّا
فقط؛ داخليًّا هي مستقيمة.
مستقيمة كما يمكن للإنسان في هذا العالم
أن يكون وأن يحيا. بسيارتها
تسافر آلاف الكيلومترات،
إلى البروتاني حيث لديها
بيت ثانٍ صغير، إلى أصدقاء، وكثيرًا
ما تذهب إلى مدارس، وهناك تحكي للأطفال
شيئًا عن العصيان. ستبلغ قريبًا
السادسة والتسعين.

ذات عصر، في شهر نوفمبر،
تذهب في ديولوفي إلى عرض سينمائي.
يعرضون فيلمًا وثائقيًّا للمخرج
مالته لودين، «شيئان أو ثلاثة أشياء
أعرفها عنه»، بالألمانية مع ترجمة. بعد الفيلم

كان هناك ما يُسمى بـ«نقاش مع الجمهور»
حيث يتحدث الناس عن أمور
لا يفقهون فيها شيئًا. وفي النهاية يُسمح
للجمهور أيضًا بأن يقول شيئًا.
أنيت «تتناول الكلمة»، مثلما
يقولون، وتنتشر الكلمات في القاعة، وتتمدد،
وواحدة من الحاضرات التي تجلس هناك بالأعلى،
إحدى الألمانيات الطويلات الجادات، تنظر إلى أنيت
كأنها لاحظت أن من الأفضل لها
أن تغلق فمها. في المساء يجمع عشاء
كل الذين صمدوا حتى تلك اللحظة.
المطعم صاخب ومزدحم، على الأرجح
كان ذلك مساء السبت. بشهية عظيمة
تأكل أنيت صدر بطة. وبجانبها
الألمانية الطويلة؟ ومن دون أن تفكر
في شيء آخر ـ لا سيما أن
«الكالمار» لا يستدعي أي أفكار أخرى ـ
تأكل في ذلك المساء: سمك الحبَّار.

تستمع إلى حكاية أنيت ـ النسخة المختصرة منها ـ
من دون أن تفكر مطلقًا في كتابتها. في الحقيقة
لا تفكر في أي شيء، أو في القليل،

أيضًا لأنها مشغولة جدًّا بسماع
أكبر قدر ممكن مما تحكيه أنيت وسط
ضوضاء أدوات المائدة الدائمة السائدة حولها
وضجيج الناس.
تتطلع إلى المرأة العجوز بكل العين
وتفكر: «هل لك وجود؟ هل لك وجود حقًّا؟».
(منذ البداية تخاطبها أنيت بلا كلفة،
وهي تفكر فيها أيضًا بلا كلفة).
أكثر من مجرد الاستماع إليها، تكاد **تراها** تتحدث
بهذه الحيوية واللطف مع
غريبة، لكن ما معنى «غريبة»؟
هذا هو بيت القصيد، ليس أي إنسان
غريبًا عن آخر، لكن القلائل فحسب
يسلكون هكذا. وفوق ذلك فهناك
اللغة التي تتحدث بها، أو تكاد
تبتلعها، بعض الدارجة، وبعض
العامية الشخصية جدًّا،
عمومًا فإن لها على الأذن على كل حال
وقعًا مختلفًا تمامًا عما يتحدث به الأطباء رغمًا عنهم
في المعتاد وفي الغالب. يتكرر تعبير بشكل خاص
كثيرًا. حيث يستخدم آخرون التعبير
si tu veux (إذا أردت) في جملة اعتراضية

(البعض يقول أيضًا: *si tu préfères*، «إذا كنتَ تفضل»،
أو *si tu aimes mieux*)، فإن أنيت تحب استخدام
تنويع شخصي، ألا وهو:
إذا أردت الذهاب في هذا الاتجاه، *si tu*
veux aller par là.

أمام سمك الحبَّار تجلس امرأة
تعايش في تلك اللحظات شيئًا
يُطلق عليه في سياقات أخرى *coup de foudre*
أو: «أن يضرب برقُ الحبِّ الإنسانَ».
ما تكاد تعود إلى المنزل، حتى تسافر على الفور
إليها ثانية. ربما لن تقدم أنيت
لكل شخص فراشًا وطعامًا،
لكنها تقدمهما لكثيرين.

بعد فترة يبدأ الحبَّار،
فهذه هي طبيعته ولا يمكن
أن يحيد عنها، في إطلاق
حبر أسود، ويتركه
حيث كان في الآونة الأخيرة. ما يبقى
منه هو سحابة سوداء، وفي
السحابة السوداء ذات الخطوط ضيقة المسافات

تحيا أنيت، بيضاء وزرقاء.

كان كامو مسالمًا؛ لم تكن أنيت كذلك.
ومع ذلك فهي، بحياتها،
قد أضاءت شيئًا كتبه هو؛ يكفي
أن نضع في ذهننا خلال الفقرة التالية
اسمها بدلًا من «سيزيف»:

في تلك اللحظة العابرة، هكذا يكتب كامو،
التي يستدير فيها إنسان ليلقي نظرة على حياته،
يتأمل سيزيف، وقد عاد إلى صخرته،
تتابعَ الحوادث المتقطعة
التي تحتفظ بها ذاكرته البصرية، والتي
تؤذن بموته الوشيك. الصراع ـ
العذابات المستمرة والجهاد ـ
وصولًا إلى ذرى سامقة يكفي لملء
قلب إنسان. لذلك من الأفضل أن نتخيل سيزيف
شخصًا سعيدًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أساس هذا الكتاب هو المقابلات الشخصية مع آن بومانوار وحكاياتها الشفوية، وكذلك مذكراتها الصادرة في فرنسا بعنوان *Le feu de la mémoire* (نار الذكرى) لدى دار نشر «بوشين» في عام ٢٠٠٠.

الكاتبة

ولدت أنِّه فيبر في الثالث عشر من نوفمبر ١٩٦٤، وهي كاتبة ومترجمة أدبية حرة. تعيش فيبر منذ عام ١٩٨٣ في باريس. درست الأدب الفرنسي وعلم الأدب المقارن في جامعة السوربون، وترجمت عديدًا من الروايات الألمانية المعاصرة إلى الفرنسية. كتبت روايتها الأولى عام ١٩٩٨ بالفرنسية، ثم ترجمتها إلى الألمانية. وفي الآونة الأخيرة عادت لتكتب أولًا بالألمانية قبل أن تترجم أعمالها إلى الفرنسية.

من أعمالها بالألمانية: «إيدا تخترع البارود» (١٩٩٩)، و«هواء وهوى» (٢٠١٠)، و«وادي الروائع» (٢٠١٢).

حصلت على عدد من الجوائز الأدبية، أهمها «جائزة الكتاب الألماني» عام ٢٠٢٠ عن «ملحمة أنيت».

المترجم

درس سمير جريس الألمانية وآدابها في القاهرة، وماينتس بألمانيا، وترجم عن الألمانية نحو أربعين عملًا من الأعمال الأدبية المعاصرة، منها: «عازفة البيانو» لإلفريده يلينك (نوبل ٢٠٠٤)، و«صداقة» لتوماس برنهارد، و«العاصمة» لروبرت ميناسه، و«دون جوان» لبيتر هاندكه (نوبل ٢٠١٩). وألَّف كتابًا عن الكاتب الألماني جونتر جراس (نوبل ١٩٩٩) بعنوان «جونتر جراس ومواجهة ماضٍ لا يمضي».

صدرت له عن «الكرمة للنشر» رواية «الوعد» للكاتب السويسري فريدريش دورِنمات، والقصة الطويلة «تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين» لهانس فالادا، ونوفيلا «حلم» لأرتور شنيتسلر.

حصل جريس على «جائزة الملك عبد الله بن عبد العزيز العالمية للترجمة» (فئة جهود الأفراد) عام ٢٠٢٢، و«جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي» عام ٢٠١٨، و«جائزة معهد جوته للترجمة الأدبية» (فئة المترجمين المتمرسين) عام ٢٠١٤، والجائزة الأولى في ترجمة القصة من المجلس الأعلى للثقافة في مصر عام ١٩٩٦.

«منذ زمن طويل لم يذهلني كتاب ألماني مثل هذه الرواية»
- ألكسندر كامان، دي تسايت

«متعة قراءة حقيقية من البداية إلى النهاية» - زود دويتشه تسايتونج

«بالتأكيد أحد أفضل كُتب العام» - دير تاجس شبيجل

الحياة المذهلة لبطلة حقيقية من القرن العشرين.

ولدت آن بومانوار (أنيت) عام ١٩٢٣ في البروتاني في فرنسا، وانضمت إلى منظمة الشباب الشيوعي وإلى المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي خلال الحرب العالمية الثانية، وحصلت على وسام «الصالحين من بين الأمم» لإنقاذها طفلين في أثناء الحرب. حُكم عليها بالسجن عشر سنوات بسبب مشاركتها في حرب التحرير إلى جانب الجزائريين، وهربت من السجن بطريقة لا تُصدق، وكانت عضوًا في حكومة «بن بلة» قبل أن تهرب مرة أخرى - إلى سويسرا هذه المرَّة - حيث عملت طبيبة أعصاب.

اختارت الأديبة الألمانية-الفرنسية أنِّه فيبر أن تروي حياة آن بومانوار بشكل يقارب الملاحم الإغريقية، لأن حياتها لا تقل بطولة عن هؤلاء الأبطال الأسطوريين، وتؤكد لنا أن الأبطال الحقيقيين ما زالوا موجودين في عصرنا.

فازت هذه الرواية بـ«جائزة الكتاب الألماني» عام ٢٠٢٠، وهي من أرفع جوائز الأدب الألماني، وجائزة «بريميو ستريجا» الإيطالية المرموقة عام ٢٠٢١، وتُرجمت إلى عدة لغات. نقدِّمها بترجمة سمير جريس القديرة، التي حافظت على شكل هذا العمل الاستثنائي وروحه الملهمة.

ISBN 978-977-86480-7-2
9 789778 648072
الكرمة

مكتبة
t.me/soramnqraa